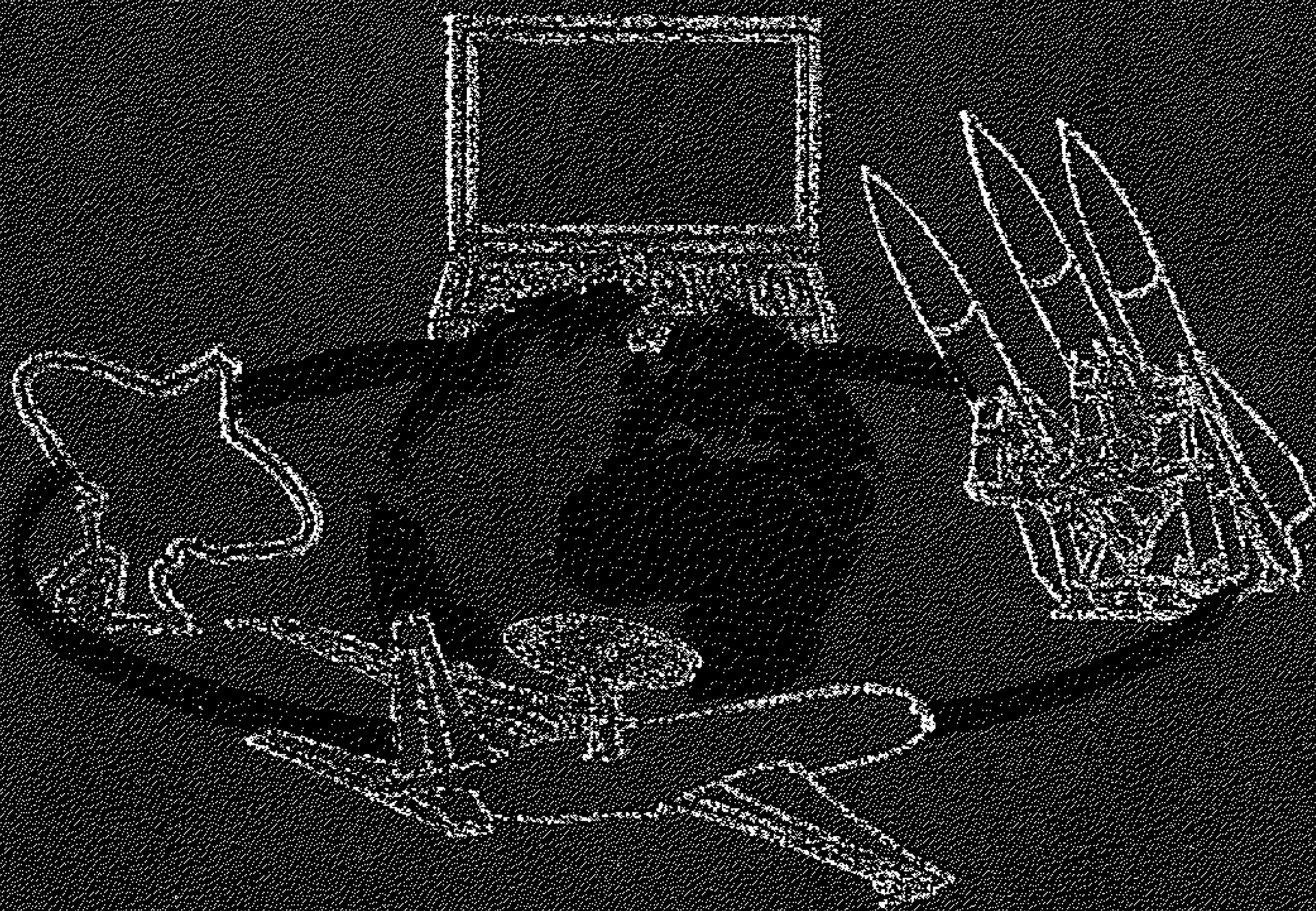
موسوعة
عالم المخابرات
كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات في البلدان الأوروبيّة

أسعَد مفرِّج

ولجنَة من البَاحثين

موسُوعَة

عَالَـــم المُخابَرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الحادي عشَر

الإستخبَارات في البُلدَان الأورُوبيّة

NOBILIS
MAISON D EDITION

إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات
كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارات في البُلدَان الأورُوبيَّة

الجِزء : الحَادي عَشَر

المؤلّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الإستخبارات الفرنسيَّة

جُوزيف فُوشيه: أبو الاستخبَارات الفرنسيَّة الحديثة

صحيح أنّ فرنسا قد عرفت الأنشطة الجاسوسيّة منذ أقدم عصورها وممالكها، غير أنّ الجاسوسيّة الفرنسيّة بمعناها الحديث، تُعتبر مؤسّسة على يدي "جُوزيف فُوشيه" (١٧٥٩ ـ ١٨٢٠) وزير الشرطة بفرنسا بين ١٧٩٩ و١٨٠٢، الذي مُنح لقب "دوق أوترانتو" سنة ١٨٠٩... والذي عُرف طيلة حياته بخلقه الانتهازيّ، فانضمّ لكلّ حزب تولّى السلطة منذ الثورة الفرنسيّة حتّى عودة البوربون، وأحكم نظام الجاسوسيّة بشكل لم يسبق له مثيل، فكشف عن مؤامرة "كادودال" عام ١٨٠٤، واستعاد منزلته لدى نابوليون بونابرت. ويُعدّ فوشيه أحيانًا مؤسّسًا للنظم البوليسيّة الحديثة لإنشائه نظامًا صارمًا فعّالاً للشرطة السياسيّة والجنائيّة[١].

وقد اعتبر باحثون أنّ "جوزيف فوشيه"، وزير شرطة نابوليون بونابرت، هو أوّل من أدار جهاز مخابرات شامل وواسع ومنتشر، وهو الذي أصبح نموذجًا لأجهزة المخابرات بعد ذلك. ويوصف فوشيه بأنّه "مؤسّس صناعة المخابرات بمفاهيمها

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط٢، دار الجيل (بيروت،٢٠٠١) ٣: ١٧٩٩.

الحديثة"، فقد كان بارعًا وماكرًا، وكان يحسن العمل في الظلّ، وكان خبيرًا في تحليل وتقدير المعلومات التي يأتيه بها أفراد شبكته التجسّسية الواسعة... كان يتجسّس على نابليون نفسه... وكان يفضّل السلطة الخفيّة الحقيقيّة الدائمة على مظاهر السلطة الخارجيّة حتى يستطيع أن يلعب الدور البارز في الدولة والقابض على زمام الأمور فيها، وكان تبريره لأعماله يستند على أنّ "كلّ حكومة تحتاج إلى شرطة يقظة خاضعة لرؤوساء حازمين أصحاب رؤية واضحة ونافذة كضمانة رئيسيّة لسلامتها".

ولشدّة ما يتمتّع به من مكر، فقد وُصف بأنّه "من كثرة تعمّقه بالخداع والتضليل والمراوغة فقد ينشر مذكرات مزورة عن حياته بعد موته"...

وُلد جوزيف فوشيه عام ١٧٥٩ بجوار ميناء نانت على المحيط الأطلسيّ، وسرعان ما اتّضح أنّ الشابّ النحيل البنية لن يتحمّل حياة البحر، ولذلك عهد بتربيته إلى جماعة دينيّة معنيّة بالتعليم بالدرجة الأولى، فالتحق بمدرسة دينيّة لتلك الجماعة المعروفة باسم "الخطباء"، وتلقّى أصول التنظيم العقليّ وضبط النفس التي أصبحت خصائص مهمة في حياته، بالإضافة إلى شعوره الداخلي العميق بالحذر والشكّ... على أنّ فوشيه لم ينتسب إلى هذه الجماعة الدينيّة ولم ينذر نفسه لها ولو أنّه ظلّ معها يدرس العلوم والرياضيّات في "أراس"، كما لم يلتزم بتنظيم أو حزب سياسي.

في "أراس"، تعرّف إلى "كولو" الذي أصبح جنرالاً في ما بعد، وإلى المحامي الناشئ "ماكسيميليان روبسبيير"، أحد قادة الثورة الفرنسيّة في ما بعد أيضًا، حتّى أنّه أعاره مبلغًا من المال كفاه لرحلته إلى باريس بعد أن صادق شقيقته لمدّة قصيرة. غير أنّ المغامرة لم تسفر عن شيء... وبعد اندلاع الثورة الفرنسيّة بوقت قصير، عاد فوشيه إلى بلدته.

كانت جماعة "الخطباء" مؤيّدة للإصلاح، ولكنّ فوشيه استطاع بعد الثورة الفرنسيّة بسنتين، أن يضمن انتخابه رئيسًا لجمعيّة "أصدقاء الدستور" المحليّة. ثمّ نجح بنشاطه واعتداله وهو ليس بالخطيب المفوّه، أن يقنع مواطنيه في نانت المؤيّدين للملكيّة بأن ينتخبوه عضوًا في "المجلس الوطنيّ"، أي "البرلمان" في ذلك التاريخ، في باريس، حيث التقى هناك "بون جان كواكند" التي أصبحت زوجته لاحقًا. وظلّ مخلصًا لها مدى حياته، ولو أنّها لم تكن تلك المرأة الجميلة اللبقة.

كان فوشيه ليبيراليًّا بشكل عام، لكنّه لم يلتزم بتنظيم أو حزب، إلاّ أنّه مال إلى التعاون مع إحدى الفئات السياسيّة في تلك الحقبة، وهي "الجيرونديّون"، أو الجناح المعتدل منهم بكلمة أدقّ. وراح يعمل بنشاط وجهد من وراء الستار في مختلف اللجان، ويقوم ببعض المهمّات الخاصّة، غير أنّ هذه السريّة لم تكن لتدوم إلى ما لا نهاية في زمن كان الاستقطاب والعنف الثوريّ والتعصّب يتزايد ويشتدّ...

وفي أحداث الثورة الفرنسيّة، عندما تمسّك "روبسبيير" بالإصرار على الاستفتاء العام بشأن مصير الملك لويس السادس عشر، الذي كانت تحتجزه الثورة، وكانت الآراء بشأن مصيره متضاربة، جاء صوت فوشيه بتأييد إعدام الملك ليشكّل صوت الترجيح الذي أوجد الأكثرية المطلوبة... وقد أُطلق عليه منذ ذلك التاريخ حتى مماته لقب "قاتل الملك". ولعلّ فوشيه كان يفضّل التصويت للإبقاء على حياة الملك، ولكنّه لاحظ الحماس الراديكالي المتزايد فأيّد إعدام الملك.

بعد نجاته من المصير الذي انتهى إليه الجيرونديّون الذين صفّتهم إحدى تطوّرات الثورة الرهيبة، أدرك فوشيه أنّ صديقه السابق روبسبيير ينظر إلى تقلّباته بحذر وريبة. وحين أرسله المجلس الوطنيّ إلى نانت لتنظيم الميليشيا لضرب الانتفاضة الملكيّة في منطقة "الفانديه"، سُرّ فوشيه بهذه المناسبة التي أتاحت له الفرار من

الإرهاب... وفي هذه الآونة، كان هذا المدرّس الذي تربّى على أيدي جماعة "الخطباء" الدينيّة قد أصبح متحمّسًا واشتراكيًّا ثوريًّا. وفي "تيفير" و"ترويس"، صادر الأملاك الخاصّة واستولى على الذهب والفضّة في الكنائس لدعم الوضع المالي للحكومة في باريس، وللفت انتباه ذوي السلطة إليه... وبمبادرة منه، حثّ رجال الدين على الزواج أو تبنّي الأبناء، وأنكر في الوقت ذاته وجود حياة أخرى معلنًا "أنّ الموت نوم أبديّ"...

في فرنسا الثورة، كان مثل هذا الحماس يستحقّ المكافأة... ولمّا ثارت ليون، كما فعلت مدن أخرى كثيرة، على سلطة حكومة باريس، كان لا بدّ من يد حديديّة لإخضاع الثورة. وبعد استسلام المدينة التي سُمّيت بالمدينة المحرّرة، أُرسل فوشيه و"كولودبربوا"، من قبل المجلس الوطني، لتدمير المدينة، وتلقينها درسًا لا يُنتسى، وجعلها مثالاً لبقيّة المدن، وإعدام جميع المواطنين الذين اشتركوا في الانتفاضة... وفي بضعة أسابيع لقي على الأقلّ ١,٦٠٠ شخص من معارضي الثورة حتفهم على يدي فوشيه ودفنوا في مدفن جماعيّ، أو أُلقوا في نهر الرون...

في السادس من شباط ـ فبراير ١٧٩٤، أصدر فوشيه أمرًا بوقف عمليّات الإعدام الجماعيّة بالرصاص. ولكنّ ذلك لم يعن وقف الإرهاب. فقد لقي عدد من الناس حتفهم بعد ذلك على المقصلة.

أدرك فوشيه أنّ عمليّات الإعدام لم تعد تحقّق الهدف المطلوب، إذ خلّفت جوًّا من الاتّهام والعداء قضى على المذنب والبريء معًا. وكان لهذا الدرس أثره العميق على سيرته في وقت لاحق. فقد أصبح يرى أنّه من الأفضل من جميع النواحي أن يُعدم زعيم أو اثنان ثمّ يُترك أتباعهما يتأمّلون مصائرهم... وممّا له مغزاه أنّ آخر اثنين أمر فوشيه بإعدامهما في ليون هما الجلاّد ومساعده... ولكنّ المجلس الوطنيّ لم يقتنع بذلك، بل طلب عودة فوشيه إلى باريس لتفسير "اعتداله".

كانت التهمة الخطيرة الموجّهة إليه هي إلحاده الصارم، لأنّ إلحاده يخالف إلحاد قادة الثورة في باريس. فقد أعلن روبسبيير عندئذ إلحاده الخاصّ القائم على مبدأ الكائن الأسمى، مشيرًا بذلك إلى عصمته، ثمّ دعا فوشيه لشرح موقفه أمام لجنة السلامة العامّة الرهيبة، وهي دعوة تعادل الحكم بالإعدام...

لقد وجد فوشيه نفسه في وضع حرج للغاية. وبصفته مندوبًا من المجلس الوطنيّ، طلب أن يرفع تقريره أمام المجلس وليس أمام الهيئة التي اختارها روبسبيير... ولم يكن فوشيه يبقى أكثر من ليلة واحدة أو ليلتين في بيت واحد تجنّبًا لاعتقاله، ثمّ عمل على زعزعة مركز منافسه الخطير ببثّ روح الشجاعة والوحدة بين الأعضاء، حتّى أنّه انتُخب رئيسًا لنادي اليعاقبة، ممّا أغاظ روبسبيير أشدّ الغيظ. والواقع أنّ الكثيرين من أنصار هذا الرجل المعصوم كانوا قد أخذوا يُبدون استياء متزايدًا من عجرفته واستبداده. حتّى أنّ المقاعد الفارغة في المجلس كانت دليلاً بليغًا على هذه الأشياء عوض عن ضعف بلاغة فوشيه الخطابيّة. وجاءت نهاية روبسبيير سريعة وأكيدة. فقد فشل في إقناع أعضاء المؤتمر بسلامة اتّهاماته، فهتفوا بسقوطه، ثمّ اعتُقل وأُعدم. وبذلك انتهى عهد الإرهاب. لكنّ فوشي نفسه، وهو الإرهابيّ السابق، الذي واجه خطر النفي والموت في مستعمرات "غيانا"، أصرّ على إلقاء اللوم على الآخرين، بمن فيهم زميله "كولو"، وأنكر أن يكون مسؤولاً عن أعمال الإرهاب، فاستطاع أن ينجو من الموت، لكنّه كان قد فقد كلّشيؤ: منصبه، وثروته، وسمعته... إلاّ حياته وزوجته الوفيّة...

قليلة هي المعلومات عن تحرّكات فوشيه بين ١٧٩٣ و١٧٩٧. ولكنّه وجد نفسه، على ما يبدو، مضطرًّا لأن يحيا حياة بائسة في غرفة زريّة... والظاهر أنّه تورّط في هذه الحقبة بأعمال مصرفيّة مشبوهة وبالتهريب قبل أن يعمل جاسوسًا في خدمة

"باراس"، أحد رجال الإدارة الخمسة الذين كانوا يكمون فرنسا آنذاك. كما أنّه بدأ عمله ذاك في المناطق النائية ثمّ عاد إلى باريس لمساعدة باراس في القضاء على ثورة "بابيف" التي توخّت المحافظة على طهر الثورة ونقاوتها، ليعمل بعد ذلك في الإعداد لانقلاب استهدف هيئة المديرين بالذات. وكان باراس يودّ أن يكافئ هذا الرجل الذي خدمه اعترافًا بجميله. لكنّ فوشيه، كما يقول بنفسه، ثابر على رفض المكافآت الصغيرة التي كانت تُعرض عليه، ويقول في ذلك:

"كنت مصممًا على القبول بالمهمّات الكبيرة فقط، المهمّات التي تدفعني على طريق الأعمال السياسيّة الكبرى... تحلّيت بالصبر... صبرت طويلاً... ولم يذهب صبري سدى".

في وقت لاحق، عيّن فوشيه سفيرًا لدى جمهوريّة سفوح الألب التي أنشأها نابوليون شمال إيطاليا، ثمّ لدى هولندا. وفي المنصبين حقّقت سياسته الليبيراليّة المستتيرة نجاحًا ملحوظًا، ما ترك انطباعًا جيّدًا على باراس الذي كان يواجه وضعًا قلقًا في الوطن، فاستدعاه إلى باريس وعيّنه مديرًا للشرطة.

عندما عيّن فوشيه مديرًا للشرطة عام ١٧٩٧، استطاع تأمين تمويل شبكة الجواسيس الآخذة في الاتساع من فرض الضرائب على القمار والبغاء... وقد لعب دورًا مهمًّا في المشاركة في الانقلاب الذي أوصل نابليون إلى السلطة، حيث أغلق جميع المداخل والمخارج إلى باريس ومنها، واحتجز المجلسَين التشريعيَّين بحجّة الأمن... ونظّم جيشًا من المخبرين كانوا ينقلون إليه أنباء تطوّرات الوضع لحظة بلحظة... وهكذا أصبح في وضع يمكّنه، كوزير للشرطة، من أن يرحّب بالانقلاب البونابرتيّ إذا نجح، أو ينقضّ عليه بكلّ قوّة إذا فشل... فقد كان "يراهن على كلّ

الجياد" حتّى يعيش وسط كلّ المتغيّرات من الأحداث... وبهذا أصبح الشخصيّة الأولى في الظلّ التي تمتلك قوّة وسلطة وذكاء ولا تُنافس.

هكذا قام تحالف مصلحيّ ورخيص، ولكنّه لم ينته إلاّ بانتهاء سلطة نابوليون السياسيّة بعد خمسة عشر عامًا... كان في أحد طرفيه ذلك الرجل نابوليون الذي وسم نفسه بالعبقريّة وانطلق إلى الأعمال والمغامرات البطوليّة والمزاجيّة والعاطفيّة... وكان في طرفه الآخر فوشيه، رجل الشرطة والأمن الذي لا يستسلم للعاطفة، بل يجمع بجدّ ونشاط معلومات عن جميع الناس والأمور، بتحفّظ وحذر، ولو أنّه وسيّده راغب كلّ الرغبة في ممارسة السلطة. ولولا كفاءة فوشيه، ومعرفته الدائمة لجميع الأحداث في فرنسا، لكان من المشكوك به أن يستطيع نابوليون التغيّب تلك المدّة الطويلة لشنّ حروبه في الخارج. والواقع أنّ وجود فوشيه، على رغم العداء الشخصيّ بينهما، كان عاملاً حيويًّا في تنفيذ سياسات نابوليون في الداخل والخارج على السواء. ولو أنّ القنصل الأوّل... ثمّ الأمبراطور بعد ذلك، اكتفى بالاعتماد على وزير شرطته للحصول على المعلومات السريّة، لكان بالإمكان، على ما يُظنّ، تجنّب الكثير من الأخطاء اللاحقة... ولكنّ فوشيه وجد نفسه في صراع مع مجموعات أخرى كثيرة من الجواسيس، منها من يعمل لنابوليون مباشرة، ومنها من يعمل لتاليران وللوسيان بونابرت، بالإضافة إلى جواسيس آخرين للعسكريّين وللوزراء. ثمّ إنّ الكثيرين من هؤلاء الجواسيس والمخبرين كانوا يعملون في خدمة أكثر من سيّد واحد... كما أنّ الكثيرين من الموظّفين الكبار كانوا يؤمّنون مداخيل إضافيّة لهم بإفشاء بعض المعلومات... وقد اعترف فوشيه نفسه أنّه كان يدفع إلى "ديروك"، السكرتير الشخصي لنابوليون، مبلغ ٢٥ ألف فرنك شهريًّا للتجسّس له على سيّده... ولقاء مبلغ آخر محترم، كان طبّاخ لويس الثامن عشر في إنكلترا يعمل لحساب وزير الشرطة

الفرنسيّ... مثل هذه الشبكة الواسعة من أجهزة المخابرات المتنافسة كانت مصدر أربعة تقارير مستقلّة ومتناقضة أحيانًا، أو غير دقيقة أحيانًا أخرى، يتلقّاها نابوليون، صباح كلّ يوم...

كثيرة هي الأخبار والروايات التي تشبه الأساطير عن هذا الرجل الذي يدعى جوزيف فوشيه، ومن أنّ نابوليون قد شكا مرّة إلى أخيه بمرارة، وهو في نوبة غضب شديد، من وزير الشرطة الذي كان يستطيع أن يكون حاضرًا في كلّ مكان، بقوله:

"اليوم، يدسّ أنفه في سريري، وفي اليوم التالي يتجسّس على أوراقي الخاصّة"... والواقع أنّ التهمتين صحيحتان.

جوزيف فوشيه، دوق أوترانتو، وزير الشرطة... كان يعلم عن شؤون نابوليون الماليّة ما لا يعرفه الأمبراطور نفسه...

في إحدى المناسبات، وجّه نابوليون خطأ بعض التأنيب إلى فوشيه، على ما اعتبره تقصيرًا منه في التيقّظ والرقابة، ولكنّ قائد شرطة نابوليون سرعان ما بادر إلى عرض وصف مفصّل للزيارات الليليّة التي كان يقوم بها "رجل قويّ، بدين الجسم، لمغنّية الأوبرا الإيطاليّة الشهيرة، "غراسيني" الحسناء... وقال لنابوليون: "لم يكن ذلك الرجل الصغير غيرك أنت...أمّا تلك المغنّية المتقلّبة الأطوار فكانت غير مخلصة لك... كانت تفضّل عازف الكمان رود عليك"...

لقد كان فوشيه موهوبًا في حياته، وقد أخذ على نفسه أن يكون ضروريًّا لأيّ حكومة، ولا مجال لها للاستغناء عنه. وقد وصفه نابوليون بأنّه "ولا ريب أبرع الجميع وأكثرهم مكرًا".

كالكثيرين من الرجال الذين يملكون السلطة والنفوذ، في زمن المتغـيّرات العميقـة، كان فوشيه يؤثر أن يعمل في الظلّ بدلاً من وضح النهار. كان بحّاثة خبـيرًا ينقّب فـي أكداس المعلومات التـي يأتيـه بهـا أفـراد شـبكته التجسّسيّة الواسـعة، ويرفـض مظـاهر السلطة الخارجيّة في سبيل السلطة الحقيقيّة الدائمة.

بينما كان معاصروه يسعون لجمع أمجاد القنصليّة والأمبراطوريّة وامتيازاتها، كان همّ فوشيه الوحيد أن يجمع المعلومات التفصيليّة التي تمكّنه من لعب الدور البـارز فـي الدولة.

صحيح أنّه لم يكن غير مكترث بالألقاب والثروة، ولكنّ ذلك كان عرضيًّا إذا قيـس بالرضى الذي كان يناله من السيطرة على حياة الملايين من البشر.

كان تبريره لأعماله بسـيطًا: "كلّ حكومـة تتطلّـب شـرطة يقظـة خاضعـة لرؤسـاء حازمين، أصحاب رؤية واضحـة ونـافذة كضمانـة رئيسـيّة لسـلامتها". هكـذا كتـب فـي مذكّراته التي يُقال فيها إنّه، وهو الرجل الـذي نعـرف، لـم يكتبهـا... وقـد قـال الشـاعر "هايني" بسخرية في هذا الصـدد: "إنّ فوشيه بلـغ بـه الخـداع والتضليـل إلـى حدّ نشـر مذكّرات مزوّرة بعد موته" كما سـبقت الإشـارة إلـى ذلـك. غيـر أنّ ملاحظـة "تـاليران" الجارحة جاءت أكثر دقّة إذ قال:

"إنّ مدير الشرطة رجل يهتمّ بشؤونه، ويعمل على الاهتمام بشؤون الآخرين"[1]...

---

١ ـ صـالح محمـود عـابدين، المخـابرات والأمـن والجاسوسـيّة، مكتبـة مدبولـي (القـاهرة،٢٠٠٣) ص٦٦ ـ ٦٧؛ الخوري ميخائيل، فوشيه أبو المخابرات الحديثة، مجلّة "الجيل"، المجلّد السابع، العدد الأول، شهر كانون الثـاني ـ يناير ١٩٨٦، ص٩٤ ـ ١٠٧؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقـافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٦ ـ ٢٤.

المديريَّة العامَّة للأمن الخَارجيّ DGSE

منذ عام ١٩٨١ أصبح جهاز الاستخبارات السريّة الفرنسيّة يعرف بإسم "المديريّة العامّة للأمن الخارجيّ DGSE"، ويطلق عليه لقب "حوض السباحة"... وفي أعقاب فوز الإشتراكيّين في الإنتخابات العامّة الفرنسيّة في عام ١٩٨١، أدخل "بيار ماريون" عدّة تحسينات على الجهاز حتّى أصبح له استقلال بالتصرّف بمخصّصاته التي يقرّرها مديره العام ورئيس مجلس الوزراء، بينما تحتاج الاعتمادات الإضافيّة إلى موافقة رئيس الوزراء.

لا تربط جهاز المخابرات الفرنسيّ صلة وثيقة بالحياة الحزبيّة الفرنسيّة، وإنّ القضايا المتعلّقة بالاستخبارات هي، من حيث تعريفها، غير سياسيّة، لأنّها ليست متّصلة بسياسة اليسار ولا بسياسية اليمين، بل هي على مستوى أسمى بكثير من ذلك إذ إنّها متصلة بمصلحة الأمّة الفرنسيّة... ومن الصعب على الحزب الحاكم في فرنسا أن يستطيع التصرّف في مثل هذه القضايا من دون أي عقاب بمعزل عن رقابة مجلس النواب أو أيّ سلطة أخرى.

ينفرد الفرنسيّون بعدم تأثّرهم بالإخفاق الذي تتسبّب به عمليّات المخابرات، بحيث لم يشكّل هذا الإخفاق يومًا عاملاً من العوامل التي تسببت في سقوط أي حكومة فرنسيّة، مثل ما حدث في الولايات المتحدة الأميركيّة بسبب فضيحة "ووترغيت" مثلاً التي دمّرت الرئيس الأميركيّ "ريتشارد نيكسون" وأطاحت به. ومن اللافت أنّ الرئيس الفرنسي "فرنسوا ميتران" قد عيّن أحد المدنيّين على رأس جهاز المخابرات الفرنسية.

لقد تعرّض جهاز الاستخبارات الفرنسيّ للعديد من الإرتباكات من جراء عمليّات الخطف والاغتيال والاختراق من قبل العملاء السوفيات، وكذلك من قبل عصابات "كورسيكا" الضالعة في تهريب المخدرات. وينسب البعض إلى أجهزة الاستخبارات الفرنسيّة قيامها بالعديد من النشاطات الرديئة والعمليّات القذرة في أثناء احتلال فرنسا للجزائر. كما ينسبون إليها عمليّة اختطاف الزعيم الجزائري "أحمد بن بيلاّ" عام ١٩٥٥، والمعارض المغربي "المهدي بن بركة" سنة ١٩٦٥، كما يتحدثون عن تورّط بعض عناصر المخابرات في تجارة الهيروين، وفي اغتيال مرافق الممثّل المشهور "آلن ديلون"، وفي نسف سفينة "راينبو واربور". وقد تعرّض جهاز المخابرات الفرنسية لحملات تطهير شهدت مرارًا طرد بعض الضبّاط من الخدمة.

من إنجازات المخابرات الفرنسيّة عبر دائرتها المعروفة باسم "مجموعة المراقبة اللاسلكية ـ الكهربائية" الكشف عن آخر استراتيجية اعتمدتها الـ KGB، وذلك من خلال متطوّع في الاستخبارات الفرنسيّة من جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، إسمه "فارويل"، وقد تمثّلت تلك الاستراتيجيّة بشراء غير شرعيّ، أو بسرقة التقنيّة الغربيّة. وتمكّن الجهاز الفرنسيّ من عرض أكثر من أربعة آلاف وثيقة حول هذا الموضوع، ممّا اعتُبر أنّه تجسّس صناعيّ على نطاق واسع. وقد تم كشف العميل فارويل في موسكو وأعدم رميًا بالرصاص.

ومن إنجازات المخابرات الفرنسيّة أيضًا كشفها عمالة اختصاصيّ التحاليل النيتروكيميائيّة "باترك غاربي" للسوفيات، وكان غاربي يعمل في مؤسسة حكوميّة في باريس تدرس أحدث أساليب مكامن الغاز الطبيعي الجوفيّة، وهو موضوع كان يلقى اهتمامًا بالغًا من قبل الكرملين. وقد ألقي القبض على غاربي في آذار ـ مارس ١٩٨٣

وحكم عليه بالسجن خمسة أعوام. ومن ناحية أخرى تم طرد ٤٧ سوفياتيًا من فرنسا بتهمة التجسس.

إعتبرت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA هذه "الصحوة" من قبل المخابرات الفرنسيّة بمثابة "مهارة فرنسيّة لم يكثر الفرنسيّون من ممارستها في السابق"... كذلك اعتبرت قدرة الفرنسيّين على حفظ الأسرار "ممارسة لم تكن أيضًا لديهم في السابق". ويقول باحثون إنّه يجب الإعتراف بأنّ "هذه المنظّمة الصغيرة التي تضمّ أقلّ من ألفي مدنيّ وعسكريّ، قد تمكّنت من تحقيق نتائج تُسجّل لها، وذلك من خلال قدرتها على التكهّن بموعد "حرب الغفران" في الشرق الأوسط عام عام ١٩٧٣" والتكهّن بدقّة بموعد الهجوم السوفياتيّ على أفغانستان عام ١٩٧٩... كما أنّها تمكّنت من تلميع صورتها كثيرًا بمساعدتها المملكة العربيّة السعوديّة على الصمود وعلى مجابهة الهجوم على المسجد في مكة المكرّمة في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٩، من خلال ما قدّمته من عون فوريّ بنقلها جوًّا معدّات لوجستيّة متقدّمة جدًّا إلى مكان الحدث مع الخبراء في طرق استعمالها.

نجحت المخابرات الفرنسيّة أيضًا في التخلّص ممّا يسمّى "الخدمات العلميّة" التي اعطتها سمعة سيئة إلى حين، حيث تحمّل عدد من كبار المسؤولين فيها مسؤوليّة التورّط في هذه الأعمال... إلاّ أنّ دورها في بعض دول أفريقيا ما زال يتضمّن الكثير من العمليّات السريّة... حيث ما زالت تلعب دورًا في إحداث الانقلابات العسكريّة وتغيير النظم السياسيّة والدخول في الصراعات الأفريقيّة... وحيث لا يزال لها علاقات وثيقة مع أجهزة المخابرات المحليّة، وكذلك مع بعض الأنظمة الديكتاتوريّة، حيث يتمّ تبادل الخبرات، ومدّ تلك الأنظمة بالسلاح والتدريب والمعدات المتقدّمة... ويعتبر باحثون أنّ الإشادة التي حصلت عليها المخابرات الفرنسيّة من المخابرات

الأميركية "لا تتعدى أنّها مغازلة من أجل التعاون لفرض النفوذ الأميركيّ على أفريقيا وبلدان العالم العربيّ التي كانت في السابق تحت الاحتلال الفرنسيّ، لما لدى الفرنسيّين من معلومات دقيقة وغنيّة عن تفاصيل حياة تلك الشعوب"...

إلاّ أنّه من المفيد الإهتمام بما قدّم من تفسير حول أنّ دور المخابرات الفرنسيّة هو دور حياديّ غير متعلّق بالعمل السياسيّ أو بالأحزاب السياسيّة الفرنسيّة، إنّما هو مرتبط بمصالح الأمّة الفرنسيّة العليا... كما وأنّ اهتمام الرأي العام الفرنسيّ لا ينعكس سلبًا على الحكومة الفرنسيّة إذا ما ارتكبت أجهزة المخابرات أخطاء أو اخفاقات كما يحدث في دول أخرى حيث من شأن أخطاء المخابرات أن تؤدي إلى استقالة رئيس الدولة أو إقالة الحكومة أو طرد وزراء منها[١]...

---

١ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٣٨ ـ ١٤٠.

نشوء المخابرات الفرنسيَّة الحديثة وتطوّرها

بعد وقوع فرنسا جزئيًا تحت الاحتلال الألماني عام ١٩٤٠، وقيام حكومة الهدنة برئاسة الماريشال بيتان، في مدينة فيشي، وانتقال الجنرال ديغول إلى بريطانيا ليشكّل فيها حكومة فرنسيّة حرّة يوافق عليها ونستون تسرشل، كان لا بدّ للفرنسيّين الأحرار من إعادة تشكيل جهاز المخابرات، ومن نوع جديد هذه المرّة.

إستدعى ديغول إليه في لندن واحدًا من الضبّاط الشباب، يدعى النقيب "ديوفران"، وكلّفه تشكيل هذا الجهاز الجديد الخاصّ الذي كان مغايرًا في مهمّاته عن بقيّة أجهزة الاستخبارات المعروفة، فقد كان عليه القيام بالأعباء التالية:

التجسّس على الجيوش الألمانيّة في فرنسا الحرّة وتجميع المعلومات عن الجيوش البريطانيّة.

تحقيق التنسيق بين معلومات قوّات فرنسا الحرّة ومعلومات الجيوش البريطانيّة.

التعاون السرّي مع بعض عناصر مخابرات الماريشال بيتان في فيشي.

التعاون مع بعض عناصر مخابرات فيشي على تأمين الاتّصال بين حكومة الفرنسيّين الأحرار في لندن والشعب الفرنسي الرازح تحت الاحتلال.

تأمين تشكيل عناصر مقاومة ومدّها بالسلاح والذخيرة وتعاونها مع المدنيّين إلى الحدّ الأقصى.

هذا الجهاز الاستخباري سمّي آنذاك "المكتب الوطني للاستعلام والعمل". وما أن تسلّم النقيب ديوفران الأمر بتنفيذ المهمّة حتّى سمّى نفسه على الفور "باسي"، وهو إسم مستعار، وكان بذلك قد فعل مثل أغلب رؤساء المخابرات في أوروبّا.

إعترف باسي في مقالة نشرتها له صحيفة "لو موند" الباريسيّة عام ١٩٦٦ أنّه لم يكن يفهم شيئًا عن شؤون المخابرات عندما وصله التكليف من ديغول. ولكنّه دقّ باب الاستخبارات البريطانيّة وطلب من ضابط الاتّصال البريطاني المختصّ أن يعلّمه البديهيّات، فكانت انطلاقته الجديدة في العمل.

من تفاصيل المرحلة الأولى لعمل هذا الجهاز أنّه في أوائل خريف ١٩٤٠، جاء "فرانك نلسون"، المسؤول البريطاني عن تنظيم العمليّات شبه العسكريّة في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الألمانيّ، وهو فرع منفصل تمامًا عن الاستخبارات البريطانيّة، ليطلب من باسي أن ينشئ داخل المكتب الوطني للاستعلام والعمل شعبة تنفيذ العمليّات التخريبيّة التي تستهدف مقاومة القوّات الألمانيّة.

أعطى الجنرال ديغول الموافقة لباسي، كما أعطاه الأمر في آن واحد لمحاولة إعادة تكتيل جميع عناصر المقاومة التي يمكنها إعادة تنظيم نفسها بسرعة في أراضي فرنسا. وعلى هذا الأساس، تمكّن جهاز باسي من نسف عدد وفير من الأهداف العسكريّة في فرنسا المحتلّة.

ومع مرور الوقت، تغيّر اسم الجهاز لدى القوّات الفرنسيّة الحرّة إلى "المكتب المركزي للاستعلام والعمل"، وحقّق الاتّصالات اللازمة مع حركات المقاومة الهامّة التي تكوّنت في المنطقة المحتلّة من فرنسا وفي المنطقة غير المحتلّة منها. وقد كلّف "ماكس مولان" تنسيق العمل في ما بينها، وذلك على الصعيد السياسي، بإنشاء "مجلس

وطني للمقاومة"، وعلى الصعيد العسكري بإعادة تجميع عناصر هذه الحركات التي تجد في نفسها استعدادًا لتشكيل جيش سرّي.

حتّى تترتّب مهمّات العمل، أنشأ باسي في قلب المكتب المركزي للاستعلام والعمل، وبمعزل عن جهاز الاستخبارات، شعبتين:

شعبة مكلّفة تشكيل عملاء "العمل" وتنظيم الاتّصال في ما بينهم عند تنفيذ المهمّات وكذلك تنفيذ مهمّات الطيران السرّي والهبوط بالمظلّات.

وشعبة لتجميع الوثائق العسكريّة مكلّفة الحصول على المعلومات، وبالتالي وضع مخطّطات الهجوم على أهداف الألمان في عمليّات شبه عسكريّة.

هذه الشعبة كلّفت كذلك وضع مخطّطات تدمير الخطوط الحديديّة والأنفاق وطرقات التموين العسكريّة وتضليل الألمان وإثارة اهتماماتهم في أماكن بعيدة عن أماكن النزول الحقيقيّة للحلفاء فوق أرض فرنسا.

بالإضافة إلى هاتين الشعبتين، كانت هناك شعبة غير عسكريّة منحصرة اهتماماتها بالشؤون السياسيّة. هذه الشعبة التي لم تكن "عمليّة"، كانت تجمع المعلومات غير العسكريّة التي يحصل عليها عملاء الجهاز وعملاء شعبة "العمل" وترفعها إلى "مفوّضيّة الداخليّة" للحكومة الفرنسيّة الموقّتة في لندن التي يرأسها الجنرال ديغول.

على صعيد آخر، كانت هذه الشعبة تحضّر، وفقًا لتعليمات وزير الداخليّة في الحكومة الموقّتة، تعليمات ذات طابع سياسيّ توجّه إلى الفرنسيّين المقيمين تحت نظام الاحتلال الألمانيّ. هذه التعليمات كانت ترسل بالرموز أو بأيّ مضمونة أخرى إلى العملا فيء فرنسا المحتلّة.

وهكذا فإنّ "المكتب المركزيّ للاستعلام والعمل" أصبح بالنسبة إلى الفرنسيّين الأحرار في لندن إحدى الأدوات الفعليّة الأساسيّة ليس في قيادة الحرب فحسب، بل كذلك في تنفيذ العمل السياسيّ بحسب ما يقرّره الجنرال ديغول.

بالإضافة إلى ذلك كلّه، كان لا بدّ من التحسّب. فمنذ العام ١٩٤١، بدأ جهاز المخابرات الديغولي يشعر بأنّه بات عليه توقّع محاولات ألمانيّة للتغلغل في صفوفه، سواء أكان ذلك في فرنسا أم في لندن. في هذه الأثناء وصل إلى لندن مسؤول سابق من مكتب مكافحة التجسّس في حكومة فيشي يدعى "روجيه ويبو"، بعدما خشي أن يفتضح أمره في أرض فرنسا لكونه أنشأ جهازًا واسعًا لاستقصاء المعلومات للحكومة الحرّة في لندن، ولو أنّه موظّف في حكومة فيشي. على الأثر كلّف ويبو رئاسة شعبة مكافحة التجسّس في المكتب المركزي للاستعلام والعمل.

كان يقضي دور ويبو في تلك الأثناء بترتيب كلّ المعلومات الواصلة إليه والمتعلّقة بالأشخاص وبمواعيد انضمامهم إلى المكتب المركزيّ للاستعلام والعمل، مهما كان أصلهم وفصلهم. هذه المعلومات لم تكن خاضعة للرقابة إلاّ إذا ظهرت عناصر الخطر البالغ على سلامة أجهزة الاستخبارات وحركات المقاومة.

كذلك كُلّفت شعبة مكافحة التجسّس استجواب المتطوّعين الذين كانوا ينضمّون إلى قوّات فرنسا الحرّة. وهي، من خلال هذه المهمّة، كشفت عملاء كثيرين للألمان، من الفرنسيّين، كانوا يحاولون التغلغل في داخل هذه القوّات وداخل المكتب المركزيّ للإعلام والعمل.

في هذه الأثناء، كان "جهاز الاستخبارات" لدى حكومة الماريشال بيتان في مدينة فيشي، المعادي جدًّا للاحتلال الألماني، يتابع مهمّاته في مكافحة التجسّس. وقد توصّل

في بعض الحالات وخلال ظروف الهدنة، إلى توقيف الفرنسيّين من عملاء الألمان وتنفيذ إعدامهم.

وفي الجزائر أيضًا أثبت جهاز المخابرات التابع لحكومة فيشي فعاليّة بالغة ضدّ لجان الهدنة الألمانيّة والإيطاليّة، وكذلك بعد نزول الحلفاء في الجزائر في ٨ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٢ بفضل التعاون البالغ من جانب مخابرات حكومة فيشي. وبعد تسليم الجنرال "جيرو" السلطة، تولّى "القائد الأعلى المدني والعسكري" ضمّ أجهزة استخبارات فيشي إلى سلطته. هذه الأجهزة كان يرأسها الجنرال "رونان"، فيما كان جهاز مخابرات فرنسا الحرّة برئاسة الكولونيل "رفيه"، وجهاز مكافحة التجسّس وجهاز الأمن العسكري برئاسة المقدّم "بايول". وفي الوقت نفسه قام في الجزائر جهازان جديدان: الأول "جهاز العمل"، والثاني "جهاز الرقابة التقنيّة"، برئاسة مدني هو "البيريك دوميتر".

عندما جاء الجنرال ديغول إلى الجزائر، بعد مفوضات عسيرة، للتشارك مع الجنرال جيرو في رئاسة لجنة التحرير الوطنيّة، جرت مباحثات من أجل دمج أجهزة المخابرات المتعدّدة في الجزائر ولندن. هذه كانت على تنافس في ما بينها إلى حدّ العداء، كما كانت تخصّص جزءًا من نشاطاتها لمهمّات إستخباراتيّة واحدة. وبصفة خاصّة كانت نظرة الواحدة منها مختلفة عن نظرة الأخرى.

كان الجنرال جيرو يعتبر المسألة عسكريّة صرفة، حتّى قال فيه أحد العارفين آنذاك: "إنّه لم يكن قادرًا على الإقرار بأنّ هناك فارقًا بين وحدات جيش سرّي في المناطق المحتلّة وفوجًا من القنّاصة المراكشيّين يأخذ أوامره من القيادة العليا". وبالإضافة إلى ذلك كان من الطبيعيّ أن تقوم بين المخابرات الفرنسيّة والمخابرات الأميركيّة علاقات عمل قويّة.

كان للجنرال ديغول رأي آخر مغاير تمامًا في تلك الحقبة.

وبعد أخذ وردّ، تشكّلت لجنة تنسيق برئاسة الجنرال "كوشيه" من السلاح الجوّي، لكنّها فشلت في تحقيق المطلوب منها. وأخيرًا تمّ الاتّفاق عام ١٩٤٣ على تشكيل "المديريّة العامّة للخدمات السريّة" وتسليمها إلى "رجل من جماعة لندن" هو "جاك سوستيل". لكنّ هذا أصبح فورًا "الخروف الأسود" بالنسبة إلى الجنرال جيرو الذي كان يتّهمه بالدرجة الأولى بأنّه "مدني".

أنذاك، وبعدما وصل خبر انزعاج جيرو إلى ديغول في لندن، أرسل هذا إلى زميله في الجزائر برقيّة يقول له فيها: إذا كان لا يرضيك لأنّه مدني فسأرضيك بأن أشتري له بذلة جنرال وألبسه إيّاها.

ورغم ذلم فإنّ جيرو حرّم على ضبّاطه التعامل مع "سوستيل" الذي ما أن أقام مكتبه في قصر "بروس" حتّى وجد أنّ خطّه هو تحت مراقبة ضبّاط جيرو.

وعندما جرى تحييد الجنرال جيرو وفرض الإقامة الجبريّة عليه، بعدما أصيب بجرح في محاولة لاغتياله قال إنّها من تدبير سوستيل وجماعته، جرى توحيد أجهزة المخابرات دون عناء يذكر، وعلى مستويات كبار الموظّفين وصغارهم، ولو مع حصول بعض الاستثناءات.

وبعد تحرير فرنسا تحولت المديريّة العامّة للخدمات السريّة إلى "المديريّة العامّة للدراسات والأبحاث"، وأصبح الكولونيل ديوفران (باسي) رئيسًا لها.

منذ تسلّم "باسي" مسؤوليّته الجديدة، سارع بعد عام ١٩٤٥ إلى إحياء النشاط الفرنسي للعودة إلى التمركز في الهند الصينيّة، وبدأ بتحويل مهمّات المخابرات من

عالم الحرب إلى عالم السلم، بمعنى أنّه ألغى الفروع التي كانت لها علاقة بالأعمال التخريبيّة العسكريّة أو التنظيم السياسي والإداري للمقاومة.

لكن باسي استقال من منصبه عام ١٩٤٦، بعدما ترك ديغول دفّة الحكم، وجاءت الحكومة الجديدة بعده تُبدي امتعاضها من ولاء باسي الشخصي لديغول. وبالإضافة إلى ذلك، قامت الصيحة في تلك الحقبة من قيام دولة ضمن دولة، بسبب فضيحة ماليّة تتعلّق بالعملات الصعبة... وحلّ مكان باسي نائب إشتراكيّ سابق هو "هنري ريبر"، ووضع إلى جانبه مساعدًا تقنيًّا هو الكولونيل "فوركو"، الذي لم تتلبّسه "تهمة" الديغوليّة مثلما تلبّست غيره من الضبّاط في تلك الحقبة، آنذاك أيضًا تحوّلت المديريّة العامّة للدراسات والأبحاث إلى "مديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة".

في هذه المديريّة كان يعشّش حتّى الآن موظّفون من مشارب ومهمّات متعدّدة، أي من جماعة فرنسا الحرّة والمقاومة السريّة وقدماء مخابرات ما قبل الحرب. بدأ الآن التطعيم بعناصر من الاشتراكيّين وبدأت المديريّة تتحوّل إلى جهاز حكوميّ واسع يقع مركزه في بولفار "سوشيه". هذا الجهاز الموسّع استُبقيت فيه الشبكات القديمة للمخابرات بمن فيها من أشخاص وجدوا أن لا مهمّات واضحة أمامهم فراحوا يتصرّفون حسبما تديرهم أهواؤهم.

وسط هذا الجوّ من الفوضى بين الموظّفين وفوضى الأموال السريّة المنفقة على المؤسّسة، حاول ريبر وضع شيء من التنظيم فيما كانت مؤسّسته تخوض صراعًا عنيفًا على الصلاحيّات مع "مديريّة مراقبة الأراضي" التابعة لوزارة الداخليّة والتي تأسّست في خريف سنة ١٩٤٤ بعد تحرير فرنسا.

من جهة أخرى، ومع توسّع مشكلة الحرب في الهند الصينيّة، أطلّ على الوجود جهاز جديد منافس هو "المكتب التقني للاتّصال والتنسيق"، تابع لوزارة ما وراء

البحار، كان في طليعة ما كشف النقاب عنه حصول شخص فيتنامي على نسخة من تقرير الجنرال "ريفيير" عن الهند الصينيّة، وهي النسخة التي كانت وراء "فضيحة الجنرالات".

وسط كلّ هذه الخلافات والتناقضات، صدر مرسوم جمهوريّ في ١٨ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٥ قضى بتكليف المفتّش العام في موقع مرسيليا والمدير السابق للأمن العام "بيار بوريكسو"، وهو ذو ميول إشتراكيّة، مهمّة التنسيق وإعادة التنظيم. وفي الوقت نفسه أصبح بوريسكو المدير العام لمديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة التجسّس. وقد بقي بوريسكو سنوات طويلة في هذا المنصب، وتميّزت فترة عمله بأنّها كانت على الأقلّ سالمة نسبيًّا من الفضائح. وقد كانت فترة الحرب الباردة وحرب الهند الصينيّة وحرب الجزائر والعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، وهذه كلّها أوجدت أعمالاً كثيرة لرجال المديريّة، تميّز فيها عمل الكولونيل فوركو بسريّته الفائقة.

لكنّ خدمات بوريسكو أنهيت وعيّن مكانه في أيلول ـ سبتمبر ١٩٥٧ الجنرال "غروسان" مديرًا عامًّا لمديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة بعدما كان الأمين العسكري العام في رئاسة الجمهوريّة.

العلاقات بين غروسان والأجهزة المتعدّدة للمخابرات التي أنشئت في الجزائر لدى القوّات المسلّحة وبعض الوزارات، كانت علاقات حسّاسة جدًّا. ولم تبقَ المديريّة العامّة التي نقلت مركزها الرئيسي إلى بولفار "موتييه"، بمنأى عن الخلافات الشخصيّة والحزبيّة التي تفجّرت ضمنها. فالعناصر المتناحرة ضمن المديريّة أضيفت إليها عناصر متناحرة جديدة استقدمت من ضمن القوّات المحاربة سابقًا في الهند الصينيّة والقوّات المحاربة في حينه بالجزائر.

كان الجنرال غروسان حريصًا على ألاّ يغرق في تكليف الأشخاص المتناحرين بالقضايا التي لها علاقة بالسياسة الفرنسيّة الداخليّة. لكنّه لم ينجح تمامًا في هذا المخطّط لأنّ العناصر القديمة الآتية من أجهزة الاستخبارات العسكريّة كانت قادرة مع ذلك على تمثيل دورها بحسب أمزجتها.

ولمّا كانت مديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة هي بحسب القانون للعمل خارج فرنسا، لم تكن لها أيّ مسؤوليّة تمارسها مباشرة في الدفاع عن النظام القائم أو في أيّ شيء له علاقة بالأوضاع الداخليّة في فرنسا. لهذه الأسباب كان من المفترض ألاّ تتدخّل المديريّة من حيث المبدأ فوق أراضي "محافظات الجزائر"، باستثناء بعض مهمّات "المباغتة" ضدّ جبهة التحرير الوطنيّة الجزائريّة، وعندما وقعت محاولة الانقلاب في نيسان ـ إبريل ١٩٦١ وبدأت "منظّمة الجيش السرّي" عملها، بقيت المديريّة على موقفها ولو من ناحية المبدأ.

إعتبارًا من عام ١٩٦١، كلّف الجنرال "جاكييه" بإعادة النظام إلى المديريّة بعدما تعاظمت الخلافات الشخصيّة في داخلها إلى حدّ الفضيحة.

عكف الجنرال جاكييه على تركيز نظام قاس جدًّا كما ساعد بطريقة مباشرة على إعادة التنظيم العسكري للمديريّة بشكل أوجد بعض المتاعب بالنسبة لمعالجة شؤون الجزائر في ذلك الحين.

لم تكن إعادة النظام ممكنة بتلك السهولة المرجوّة في عهد الجنرال جاكييه، إذ مرّت في تلك الحقبة ظروف غير طبيعيّة على الأوضاع الفرنسيّة الداخليّة والخارجيّة ليس أقلّها استقلال الجزائر وانطلاق عمل "منظّمة الجيش السرّي" وغيرها من المنظّمات الفرنسيّة التي وضعت بين أهدافها الرئيسيّة تصفية بعض الفرنسيّين أنفسهم وتصفية القضيّة الجزائريّة في غير طريق الاستقلال.

وبصرف النظر عن مشاكل هذه المديريّة وما يتبعها من أجهزة على الصعيد السياسيّ البحت، نشأت في فرنسا مشاكل من نوع آخر، كانت هناك خلايا سريّة ضمن المديريّة يتصرّف أفرادها على نحو لم يكن متّبعًا في دولة أوروبيّة وغربيّة كبرى. هؤلاء الأفراد عاثوا فسادًا وإفسادًا إذ دأبوا على استغلال مراكزهم وراحوا يقبضون الأموال الكثيرة ثمنًا لحمايتهم بيوت الدعارة والحانات ودور القمار غير المرخّص لها. وقد وصلت الفوضى في أوائل الستّينات إلى حدّ أنّه إذا ما أُوقف شخص ما بتهمة حيازة سلاح، كان يجري إخلاء سبيله بعد قليل ولمجرّد وصول مكالمة هاتفيّة من موظّف نافذ في المديريّة تقول إنّ الموقوف يقوم بمهمّات وطنيّة سريّة.

بالطبع ثبت في ما بعد أنّ تلك المهمّات لم تكن لها علاقة بالعمل الوطنيّ بل بالمصالح الشخصيّة والحزبيّة والانتخابيّة. هكذا أثبتت الشكاوى والتقارير التي رفعت إلى رئاسة الحكومة.

وإذ كان يتّضح يومًا بعد يوم أنّ الأمور لا يجوز لها أن تستمرّ على هذا الحال، كان على الدولة "الديغوليّة" أن تستعدّ للتحرّك في سبيل إعادة المسائل والمسؤوليّات والتجاوزات إلى حجمها الطبيعي. فمنذ حزيران ـ يونيو ١٩٦٥، بدأ مجلس الوزراء الفرنسي اتّخاذ التدابير الجذريّة اللازمة وأوّلها وضع مديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة تحت الإشراف المباشر الإضافي من جانب وزارة الدفاع.

هذه البداية الجديدة للإصلاح، جرت في أواخر عهد رئاسة الجنرال جاكييه، لكن الجنرال لم يكن على ما يبدو، ذلك الشخص المنشود لإنجاز العمل المطلوب بعدما استنفد طاقاته في عمليّات الإصلاح التي سمّيت "إعادة التنظيم" في بداية عهده.

طبعًا، جاءت فضيحة اختطاف الزعيم المغربي المعارض بن بركة وتصفيته فوق الأراضي الفرنسيّة مع ما كشفت عنه من مشاكل وأزمات على الصعيدين الداخلي والخارجي سببًا للتعجيل في إنجاز الإصلاح.

قرار حزيران - يونيو ١٩٦٥ لم يؤدّ إلى إلحاق المديريّة بوزارة الدفاع فحسب، بل كذلك إلى وضعها تحت السلطة المباشرة من جانب الوزير.

على هذا الأساس، قرّر مجلس الوزراء في ٢٠ كانون الثاني - يناير ١٩٦٦ إنجاز إصلاح المديريّة، كما عيّن مديرًا جديدًا لها هو الجنرال "جيبو" الذي كان حتّى حينه ملحقًا بوزارة الدفاع ومتخصّصًا بشؤون ما وراء البحار. آنذاك، قال الناطق الرسمي بلسان الحكومة إنّ الهدف من إلحاق المديريّة بوزارة الدفاع هو وضعها ضمن التنظيم، كما اعترف بأنّ قضيّة بن بركة كانت وراء اتّخاذ هذا القرار ولو أنّ جاكييه حاول في المديريّة تطبيق النظام العسكري. ولكن، في الفترة التي جرى فيها الاستغناء عن خدمات جاكييه، كان الجنرال يعاني مع المسؤولين على أعلى المستويات مشكلة التنظيم في المديريّة ومشكلة النظام الشامل في الدولة.

قيل في ذلك التاريخ، إنّ الاستخبارات الفرنسيّة ككلّ ليست شواذًا عن وضع فرنسا ككلّ: إدارة حكوميّة متحيّزة متحزّبة، وشعب منقسم إلى فئات كثيرة ذات ولاءات متعدّدة، وقضيّة إجتماعيّة وماليّة ذات مرافق متعدّدة... وقيل آنذاك أيضًا إنّ الإصلاح في مكان واحد لا يمكن أن ينضبط ما لم يتمّ الإصلاح في أمكنة كثيرة، لأنّ هذه وتلك مترابطة بعضها مع بعض ترابط الأجزاء في هيكل الإدارة العامّة للدولة.

هذا الكلام يهدف إلى تناول موضوع بداية "إعادة التنظيم" في عهد جاكييه أوّلاً، وما رافق ذلك من قرار حاسم اتّخذه الرئيس ديغول بسحب المسؤوليّة المباشرة لرئيس

الحكومة على مديريّة الوثائق السريّة ومكافحة الجاسوسـيّة لأنّـه، كمـا يُعرف عنـه فـي مجلس الوزراء، أراد نقل المؤسّسة إلى التنظيم الوظيفيّ في الدولة.

رئيس الحكومة "ميشـال دوبريـه" كلّف جاكييـه بتنظيم المديريّـة بعدمـا تشرشـحت خلال حرب الجزائر. لذلك عكف جاكييه، خاصّة بعد مجيء بومبيدو رئيسًا للحكومـة على إعادة تجديد الكادرات وعلى إدخال الحيويّة والحركة إليهـا. وعلـى هذا الأسـاس، ألغي "فوج الانقضاض الحادي عشر" الذي كان مكلّفًا دعم "شـعبة العمـل"، المؤلّفـة مـن بعض أفراد الكوماندوس المدرّبين على المهمّات السريّة.

كذلـك شكّل الجنرال جاكييـه شـعبة أمـن خاصّـة ملحقـة بمكتبـه مهمّتهـا مراقبـة الأشخاص، كما شكّل من إدارة الشـعبة الماليّـة وحـدة تكـون مهمّتهـا هـي أيضًـا جمـع المعلومات وكافحة الجاسوسيّة.

إعتُبرت التدابير الجديدة المتّخذة بأنّها ستشدّد على هذا الاتّجاه، لذلك عندمـا صـدر القرار بتعيين الجنرال جيبو، اعتبرت الخطوة تعبيرًا عن الأمـل بـالعودة إلـى المبـادئ العسكريّة الصرفة في العمل، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ إلحاق المؤسّسة بـوزارة الدفـاع سمح لها بالتدخّل مباشرة أكثر فأكثر لإنجاز العمل المطلوب منها وبأفضل ممّا لو كانت خاضعة لرئيس الحكومة، فضلاً عن أنّ ذلك فتح الباب أمام الوزارة للدخول في عمليّـة تجديد دائمة للموظّفين الألفين الذين بينهم ألف عسكري على الأقلّ.

كذلـك أملـت الحكومـة مـن تدبيرهـا الأخير هـذا، إعـادة تقييـم أهـداف المؤسّسـة بسـهولة. فبعدمـا كـانت المؤسّسـة طـوال سـنوات الحـرب البـاردة مركـزة نشـاطتها الأولـى علـى دول المعسكر الشرقي، انتقلت، حتّـى منـذ عهـد جاكييـه فـي أوائـل الستّينات، إلـى الاهتمـام الإضـافيّ الزائـد بـدول العـالم الثـالث، مـع العلـم أنّهـا أهملت الإهتمـام بـالدول الحليفـة لفرنسا، إمّـا عـن عجـز وإمّـا عـن قلّـة اكـتراث،

مع أنّها دأبت على التعاون مع أجهزة المخابرات وعلى التعرّض لبعض محاولات التغلغل فيها.

وفي التنظيم الجديد للجنرال جيبو، جرت تقوية قطاع الإهتمام بالدول الحليفة والتعاون مع المخابرات.

هذا التنظيم الجديد لمديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة أثار بعض الاعتراض، فالشعَب المكلّفة جمع المعلومات ومكافحة التجسّس تقبّلت بصعوبة وعلى مضض الحريّة النسبيّة وأثارت اعتراضات جزئيّة حول مدى تأثير ذلك على سلامة الدولة.

في التنظيم الجديد كان على المؤسّسة أن تعود إلى الهدف الاستخباريّ الأوّل في مفهوم العسكريّين، وهو جمع المعلومات الدفاعيّة ذات العلاقة المباشرة بالأوضاع العسكريّة والاستراتيجيّة لدى الخصم، بالإضافة إلى المعلومات على القدرات الاقتصاديّة ذات التأثير المباشر عن الدفاع. هذا الاتّجاه العسكري الصرف طرح التساؤل عن مجال الاستمرار في العمل الاستخباري الفعّال في الحقل السياسي والاقتصادي العام، والواقع أنّ هذا الحقل كان ولا يزال أساسيًّا من وجهة استخباريّة عامّة، وكذلك بصفة خاصّة، لأنّ قانون المؤسّسة يفرض "البحث في الدول الخارجيّة عن جميع المعلومات والوثائق الآيلة إلى إعلام الحكومة بجميع وزاراتها وأجهزتها"...

قبل التنظيم الجديد كانت المديريّة تزوّد وزارات الدولة بالمعلومات السياسيّة ذات العلاقة بتطوّر الأنظمة السياسيّة المتعلقة، بدورها، بتطوّر الأنظمة الحاكمة في الدول الشيوعيّة وفي الدول العربيّة والأفريقيّة. وفي التنظيم الجديد، نشأ الاتّجاه نحو ترك هذه المعلومات لتقارير البعثات الدبلوماسيّة التي قد تكون أقلّ شأنًا من نوعيّة تقارير الخلايا الرسميّة للمديريّة في الخارج، وبصفة خاصّة في

الدول الأفريقيّة حيث المعلومات الاستخباريّة السياسيّة والاقتصاديّة أهمّ بكثير من المعلومات العسكريّة.

في التنظيم الجديد كذلك أعيد النظر في عدد وفير من التقارير القديمة، كتغيير المسؤولين المرابطين في الخلايا المركّزة في الدول الخارجيّة منذ زمن بعيد. في هذا الجال ذُكر مثلاً أنّ العميل المرابط في نيويورك كان قد انقضى عليه في تلك الأثناء أكثر من عشر سنوات، وأنّ العميل المرابط في المغرب كان قد انقضى عليه هناك أكثر من خمس عشرة سنة. هذا الاتّجاه تغيّر لأنّ الخطّة الجديدة قضت بالتبديل السريع نسبيًّا للعملاء في الخارج والإكثار من توجيههم نحو التخصّص بالمناطق أو القارّات حسبما تقتضي الحاجة.

عند هذه النقطة، أثيرت، لمناسبة التنظيم الجديد كذلك، مسألة تجميع المعلومات الاستخباريّة في الخارج المنوطة بالمديريّة وما إذا كان ذلك يسمح لها أولاً بجمع المخابرات داخل فرنسا، على اعتبار أنّ فيها أجانب كثيرين يمكن جمع المعلومات الاستخباريّة منهم عن بلدانهم. وعند إثارة هذه النقطة، كثرت الخلافات بين الأجهزة المتعدّدة التابعة للوزارات ذات الصلاحيّة. وفيما المسؤولون بين أخذ وردّ حول ما هو أصلح، كانت الفوضى الإداريّة بين هذه الأجهزة تزداد انتشارًا فيما كان بعض الأفراد يستغلّون الوضع المتقلقل لفتح دكاكينهم على حسابهم على النحو الذي سبقت الإشارة العابرة إليه.

لكنّ الإشارة بشكل غير عابر ستكون الآن إلى بعض من الفضائح الشهيرة التي حدثت في فرنسا، إمّا بتدبير من بعض رجالات المخابرات، وإمّا بمشاركتهم وإمّا بتحريض منهم.

من تلك الفضائح، "فضيحة الجنرالات".

في أيّار ـ مايو ١٩٤٩، وفيما كان المسيو كوي رئيسًا للحكومة الفرنسيّة، ازداد تحوّل حرب الهند الصينيّة إلى كارثة. عند ذلك، وفي سبيل إعادة تحسين الوضع، كلّفت الحكومة الجنرال "ريفيير" إجراء تحقيق عن الوضع في الهند الصينيّة بالذات.

في هذه المهمّة، اختار ريفيير مساعدًا له الكولونيل "فوركو" المدير الفنّي لمديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة. أحد أصدقاء الجنرال، وهو "روجيه بيريه"، تبيّن في ما بعد أنّه كان يحقّق في الموضوع نفسه لحساب المديريّة نفسها، وفي الوقت نفسه، إذ كان الجنرال والكولونيل في الهند الصينيّة.

عاد الجنرال إلى باريس وكتب تقريرًا قاسيًا جدًّا حول عدم فعاليّة السياسة الفرنسيّة وفساد نظام الأمبراطور "باو داي" في فيتنام، واقترح تخلّي القوّات الفرنسيّة عن المواقع المتقدّمة على الجبهة وتمركزها في مناطق دلتا نهر ميكونغ. وفي ٢٦ آب ـ أغسطس ١٩٤٩، علم وزير "فرنسا لما وراء البحار" "بول كوست فلوريه"، الذي تنال منه تقارير الجنرال بيريه بطريقة غير مباشرة، أنّ إذاعة قوّات "الفيتنمة" تبثّ الخلاصة السياسيّة لتقرير رئيس الأركان الجنرال ريفيير.

في ١٨ أيلول ـ سبتمبر وقعت مشادّة ربّما كانت مقصودة أو عفويّة في مؤخّرة سيّارة أوتوبيس على مقربة من محطّة ليون للقطارات في باريس، بين فيتنامي وجندي فرنسي عائد من الهند الصينيّة. هذه المشادّة أدّت إلى كشف نسخة عن تقرير الجنرال ريفيير في حقيبة الرجل الفيتنامي الذي يدعى "داو داي" والذي كان من أنصار "هو شي منه".

في غضون أربعة أيّام تمكّنت الشرطة ومديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة من الإمساك بخطوط القضيّة ومن معرفة كيفيّة وصول تقرير الجنرال ريفيير إلى يد "الفيتنمة" مرورًا بالجنرال "ماست" و"روجيه بيريه".

ما أن علم رئيس الحكومة وبعض الوزراء بتفاصيل الفضيحة حتّى حاولوا جهدهم إخفاء معالمها قبل نشر تفاصيلها على الملأ. أنذاك، كان الحلف الأطلسي لا يزال في بدايته وكان الفرنسيّون يحرصون على عدم فتح الباب أمام الحلفاء الأميركيّين للتدخّل في الشؤون الخاصّة للقوّات الفرنسيّة.

على هذا الأساس، راح وزير الدفاع الوطني المسيو "رامادييه" يقول إنّ التقرير ليس له طابع التقرير السرّي العسكري، وإنّ نشره لا يؤدّي بالتالي إلى الإساءة إلى السلامة الوطنيّة.

في ٢٣ أيلول ـ سبتمبر صدرت التعليمات بأنّ المسألة يمكن اعتبارها منتهية. ولذلك أفرج عن الفيتناميّين المعتقلين رغم اعتبارهم من أنصار "الفيتنمة". وفي ٢٧ أيلول ـ سبتمبر، وجّه وزير فرنسا لما وراء البحار "بول كوست فلوريه" مذكّرة إلى رئيس الحكومة مستنكرًا إنهاء القضيّة على هذا الشكل، ومتّهمًا الجنرال ريفيير بتسريب المعلومات. وبعد مرور يومين على ذلك انطلق الكلام عن وجود فضيحة أخرى...

في ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر، هرب إلى البرازيل "روجيه بيريه" بعدما كان معتقلاً فترة من الزمن، فيما أُحيل الجنرال ريفيير إلى التقاعد سرًّا بتاريخ ٧ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٩.

في أواخر كانون الأوّل ـ ديسمبر انفجرت الأزمة على نطاق واسع. وفي ٢٣ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٩، نشرت مجلّة "تايم" الأميركيّة معلومات نقلها إليها أحد مراسليها في باريس "جاك لاغير" أشارت إلى قلق واشنطن من تفاصيل الفضيحة وإلى أنّها تتّهم بها رئيس الأركان الجنرال ريفيير الذي نُحّي من منصبه.

منذ الأيّام الأولى لشهر كانون الثاني - يناير ١٩٥٠، انطلقت الصحف الديغوليّة في نشر أخبار الفضيحة، وانقضى العام كلّه وهذه الصحف تتحدّث بها. فكان نشر أخبارها يتّخذ طابع تصفية الحسابات بين مديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة التابعة لرئاسة الحكومة مباشرة ومديريّة مراقبة الأراضي التي يديرها المسيو "فيبو" والتابعة مباشرة لوزارة الداخليّة.

في ٢٧ كانون الثاني - يناير ١٩٥٠، وجّه جورج بيدو استجوابًا إلى الجمعيّة الوطنيّة عن الفضيحة، فتصادم حول ذلك مع النوّاب الشيوعيّين. لكنّ ذلك انتهى بتشكيل لجنة تحقيق نيابيّة لحسم الخلاف حول الفضيحة.

كشف تحقيق اللجنة النيابيّة أنّ الثقة كانت قائمة من جانب الجنرال ريفيير وإنّما الجنرال ماست استغلّها لأنّه كان مهتمًّا بتعيينه قائدًا عامًّا في سايغون. كما كشف التحقيق التأثير الذي كان يمارسه روجيه بيريه. وتبيّن كذلك أنّ بيريه كان عميلاً سابقًا للمديريّة، لكنّه تقرّب كثيرًا من الجنرال ريفيير من غير أن يلاحظ ذلك الكولونيل فوركو الذي يفترض فيه أن يعلم بأنّ الرجل لم يعد تابعًا للمديريّة. وقد اعتبر مراقبون كثيرون بيريه خصمًا للعهد الذي كان قائمًا وأنّه كان محرّضًا على قيام الفضيحة. وتبيّن بما يشبه الجزم أنّ الفضيحة كشفت قصصًا وعادات فريدة، منها سعي رئيس الحكومة "كوي" إلى طمس المشكلة من وراء ظهر وزير العدل ووزير الهند الصينيّة، كما كشفت الخلافات الحادّة بين أجهزة الشرطة، وبصفة خاصّة بين أجهزة المخابرات الفرنسيّة المتعدّدة التي كانت منهمكة بمقاومة بعضها البعض أكثر من انهماكها بجمع المعلومات.

عام ١٩٦٢، نال الجنرال ريفيير إعادة الاعتبار إذ صدر مرسوم يعلن عدم شرعيّة القرار الذي أنهى خدماته. أمّا الجنرال ماست فقد انصرف إلى الأعمال

الخاصّة بعد استقالته من الجيش، فيما استعفى كلّ من الكولونيل فوركو من مديريّة الوثائق الخارجيّة ومكافحة الجاسوسيّة، وروجيه فيبو من مديريّة الأراضي بعد عودة الجنرال ديغول إلى الحكم عام ١٩٥٨، واستقرّ روجيه بيريه في بوليفيا.

***

الحرب الفرنسيّة في الهند الصينيّة التي استمرّت من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٤، تبدو وكأنّها غير كاملة التفاصيل إذ لم يذكر فيها ما جرى من فضائح تتناول السوق السوداء لـ"القرش الفيتنامي".

طريقة قيام هذه السوق السوداء كانت بسيطة.

في ٢٥ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٥، أصدرت الحكومة الموقّتة للجنرال ديغول مرسومًا بتحديد سعر القرش الفيتنامي بـ ١٧ فرنكًا فرنسيًّا قديمًا. في الواقع كانت قيمة القرش الفيتنامي بين ٧ و٨ فرنكات فرنسيّة في السوق الحرّة...

إذن، كان بالإمكان شراء مليون قرش فيتنامي بثمانية ملايين فرنك فرنسي، وبالتالي تحويل المبلغ بالقرش الفيتنامي إلى فرنسا حيث تصبح قيمته الفعليّة بالسعر الرسمي ١٧ مليون فرنك فرنسي...

والأبعد من ذلك، فقد كان شراء القرش الفيتنامي بالدولار أو الذهب تجارة أوسع بكثير. ولكن، ومع أنّ القرش الفيتنامي مرتبط بالفرنك الفرنسي، فقد أنشئ مكتب للقطع في سايغون.

كلّ المشكلة بالنسبة إلى مهرّبي الأموال كانت منحصرة في الحصول من مكتب القطع هذا على إذن بتحويل القرش من فيتنام إلى فرنسا. والأبعد من هذا، كانت هنالك

وسائل عبر هونغ كونغ وسويسرا تسمح بإجراء عمليّة التحويل المالي في اتّجاهين وبشكل يضمن ربحًا مئة بالمئة في غضون ثلاثة أسابيع فقط.

هذه العمليّات غير المشروعة تسهّلت بانتشار الفساد والفوضى في الهند الصينيّة حيث كانت الحرب تستهلك مليارات الفرنكات الفرنسيّة القديمة، وحيث كان العهد القائم يشتري بالمال الوفير صداقاته ومحالفاته...

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ مهرّبي الأموال كانوا يبذلون جميع الوسائل لإغراء جميع المسؤولين الرسميّين على جميع المستويات في عمليّات التهريب لتوريطهم وجعلهم غير قادرين على التحرّك ضدّهم.

وبالطبع، تضمّنت هذه الوسائل تكثيف الفضائح فوق الأشخاص، وكذلك تصفية الحسابات بطريقة دمويّة.

عندما انتشرت فضيحة الجنرالات، بدأت الأخبار تنتشر عن فضائح القرش الفيتنامي التي تشمل شركات فرنسيّة وفيتناميّة كبيرة وشخصيّات وأحزابًا سياسيّة، كذلك انتشرت الأخبار عن أنّ الدولة الفرنسيّة كانت تسمح باستمرار هذه السوق السوداء من أجل تحقيق التوازن في موازنتها...

كان "جاك ديسبيس" أوّل من نشر أخبار هذه الفضائح، وقد تعرّض لملاحقة القضاء إستنادًا إلى التخمين بأنّ وراء الاتّهامات المتكاثرة عملاء سريّين كثيرين في أجهزة استخبارات تتخالف وتتخاصم. وفي طليعة الضالعين "ماتيو فرانشيني"، وهو صاحب فندقَي "ماجستيك" و"كونتينانتال" في سايغون، وكبير المساهمين في الكازينو هناك، وصاحب كازينو أخر في فرنسا، ومدير رشوات وارتباطات لرجال أجهزة استخبارات متعدّدة.

الإثارة الناتجة عن هذه الفضيحة حملت الجمعيّة الوطنيّة في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٥٣ على تشكيل لجنة تحقيق برئاسة نائب إشتراكي. وقد أثبت التحقيق أشياء كثيرة جرت لفلفتها لأنّ أفرادًا كثيرين في الأجهزة المتعدّدة للاستخبارات الفرنسيّة كانوا ضالعين في استغلال النفوذ وفي تصفية الخصوم، وبشكل حتّم على الدولة عدم اللجوء إلى القضاء سترًا للمضاعفات السياسيّة والإداريّة. آنذاك، اضطرّت الحكومة إلى إجراء عمليّة تطهير صامتة وطويلة النفس.

في ١٨ حزيران - يونيو ١٩٥٤، أصبح "بيار منديس فرانس" رئيسًا للحكومة، وابتدأ بالتحضير لمفاوضات السلام مع الهند الصينيّة المزمع إجراؤها في جنيف.

وفي أوائل تمّوز - يوليو، علم منديس فرانس من وزير الشؤون المراكشيّة والتونسيّة "كريستيان فوشيه" أنّ الحزب الشيوعي الفرنسي وضع يده على تقرير مفصّل جدًّا عن الجلسة التي عقدتها في ٢٨ حزيران - يونيو لجنة الدفاع الوطني. بهذا الخبر، بدأ في فرنسا ما سمّي آنذاك "فضيحة التهريبات".

التهريبات جرت بصفة خاصّة أيّام الحكومة السابقة التي ترأسها "جوزيف لانييل"، التي كان فيها "رينيه بليفان" وزيرًا للدفاع، و"ليون مارتينو ديبلا" وزيرًا للداخليّة. وقد بدأ التحقيق في التهريبات سرًّا منذ أيّام الحكومة السابقة، وكلّف به مدير شرطة باريس "جان بايلو". ومع ذلك فإنّ التهريبات الأولى، وكذلك التحقيقات السريّة الجارية لم يتمّ إطلاع منديس فرانس وإطلاع وزير داخليّته "فرنسوا ميتران" عليها عند تسلّم المسؤوليّات من الحكومة السابقة.

بعد العمليّات التي وصلت إلى فوشيه، أعيد التحقيق، ولكن على مستويات عالية جدًّا ومن غير أن يدري به ميتران.

في أيلول ـ سبتمبر، عُلم أنّ الشخص الذي أعلم فوشيه بالتهريبات كان مفوّض الشرطة "جان ديديس" الذي يدير شعبة المخابرات التي تلاحق أخبار الحزب الشيوعي، كما بدا أنّ "بايلو" لم يكن غافلاً عن أنّ ديديس وضع يده على الوثائق، لأنّ المفوّض في الشرطة ديديس يخامره الشكّ في أنّ ميتران بالذات هو الذي يهرّب الوثائق إلى الشيوعيّين.

على هذا الأساس، استمرّت المسألة على صعيدين قضائي وسياسي، فالقضاء العسكري تحرّك باعتبار أنّ الموضوع هو موضوع أسرار تمسّ الدفاع الوطني، واستدعي إلى التحقيق المفوّض ديديس وكذلك الصحافي "أندريه بارانيس". ثمّ توصّل إلى معرفة شخصَي الموظّفَين اللذين تولّيا محضر جلسات لجنة الدفاع وأوقفهما.

الشخصان كانا "رينيه توربان" المساعد المباشر للأمين العام الدائم لوزارة الدفاع "جان ماتس"، و"روجيه لابروس" رئيس شعبة حماية المدنيّين في الوزارة نفسها، والإثنان يساريّان، وأفادا أنّ ما قاما به كان مساهمة منهما في خدمة السلام...

عام ١٩٥٦، حُكم على لابروس بالسجن أربع سنوات، وعلى توربان بالسجن ستّ سنوات، فيما برّئت ساحة كلّ من بارنيس وماتس.

أمّا الجوّ السياسي للفضيحة فهو جزء من حقبة نهاية حرب الهند الصينيّة.

كان الهدف من تهريب الوثائق إثبات أنّ منديس فرانس وميتران يخونان فرنسا، وأنّ ميتران سبق له أن خانها في عهد لانييل، فضلاً عن أنّ هذه الخطّة كانت ترمي إلى تغميس حكومة منديس فرانس في الوحل أمام الحلفاء الأطلسيّين ولا سيّما الأميركيّين، وفي زمن كان منديس فرانس غاطسًا في المهمّة الصعبة المتعلّقة بمفاوضات إعادة تسليح ألمانيا الغربيّة.

في النهاية، تبيّن أنّ الشخص الرئيسي في الفضيحة، الصحافي بارانيس، الذي كان عميلاً لأحد أجهزة المخابرات، وفي آن واحد عميلاً للشيوعيّين، فيما تبيّن أنّ الاتّهامات وجّهت إلى مانس بأنّه بدوره عميل شيوعيّ، وهو مَن هو في وزارة دفاع دولة أطلسيّة، والأهمّ من ذلك كلّه، تبيّن مدى انغماس أجهزة المخابرات الفرنسيّة المتعدّدة في سياسات المصالح الخاصّة المتعارضة[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات تحرك العالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ص١١٣ ـ ١٢٩.

المخابرات الفرنسيّة في عهد دومارانش

ذكرت ألسنة السوء أنّ الكونت "ألكسندر دومارانش"، فشل في امتحان تلامذة الضبّاط في سنة ١٩٣٩، "بسبب الإملاء"...

وفي سنة ١٩٤٩، التحق دومارانش بوالدته في طنجة مرورًا بإسبانيا، وعُيّن ضابطًا ملحقًا بالقوّات الفرنسيّة نتيجة صداقة المارشال "جوان" لوالده، ومعرفته التامّة باللغة الفرنسيّة.

وفي سنة ١٩٤٥، أصبح ليوتنان في الخيّالة، لكنّ الغموض بدأ يسود حياته كضابط، ولا أحد يعرف كيف وصل إلى رتبة كولونيل ومتى... ولكنّ الجميع يعرف علاقاته بالكولونيل "فايول" الذي كان يرأس المخابرات الفرنسيّة ـ "جهاز التوثيق الخارجيّ ومحاربة التجسّس"، حيث كتب الجنرال "جورج مارشال"، وهو سكرتير دولة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، يقول عن دومارانش:

"أعرفه جيّدًا، إنّه رجل نادر يعرف تمامًا القضايا الدوليّة"...

هذا هو الشخص الذي عيّنه الرئيس "جورج بومبيدو" بناء على توصية "بيار ميسمير"، ليعيد النظام إلى جهاز المخابرات المحطّم من جرّاء صراع السلطة وقضيّة بن بركة وانغماس البعض في تجارة المخدّرات وبعض الخيانات...

بدت المهمّة التي أوكلت إلى دومارانش مستحيلة، لكنّه استطاع أن يبدّل كلّ شيء في المخابرات الفرنسيّة. فغيّر رؤساء الأقسام، وحدّث الأنظمة وطرق المعاملة،

وبغضّ النظر عن أيّ تسلسليّة، اعتمد الكولونيل دومَارَانش على مستشاره النفساني الطبيب "بيكو" الذي يمارس الطبّ نادرًا.

ويقول باحثون إنّه فيما توالى على رئاسة المخابرات الأميركيّة خمسة رؤساء، وقد شلّتها فضيحة "ووترغيت"، استطاعت المخابرات الفرنسيّة أن تقوم بأعمال ظاهرة. فقد أوعزت إلى فرقة مدرّعة فرنسيّة بالقيام بعدّة حوادث على الحدود الليبيّة، كان هدفها القضاء على حكم العقيد معمّر القذّافي بمساندة ودعم الرئيس المصري محمّد أنور السادات، في حينه... والسبب الرئيسيّ لهذه العمليّة هو أنّ المخابرات الإسرائيليّة أخبرت "الريّس" السادات أنّ الرئيس الليبيّ يخطّط لاغتياله... لكنّ العمليّة فشلت بسبب بطء تحرّك الجيش المصريّ المفترض فيه مساعدة الفرقة الفرنسيّة المعتدية... ثمّ ردّة الفعل السوفياتيّة الفوريّة التي نظّمت خلال ساعات قليلة من بدء التحرّك الفرنسيّ جسرًا جويًّا بين القرم في الاتّحاد السوفياتيّ وبنغازي في ليبيا، وذلك لدعم القوّات الليبيّة أثناء ردّها للهجوم الفرنسيّ - المصريّ.

لقد جعل حبّ الكونت دومَارَانش للسفر رئيس المخابرات الفرنسيّة يتنقّل في العالم بأسره بسريّة تامّة، وكان يغضب عندما يظهر أمامه وزير داخليّة البلد الذي يزوره... ويتنقّل دائمًا برفقة زوجته التي يطلق عليها بعض مرافقيه من عناصر المخابرات الفرنسيّة الشبّان لحراسة مجوهراتها إسم "كاستافيو"... وكان من عادة مدير المخابرات الفرنسيّة أن يدسّ في حقيبة زوجته بعض المستندات السريّة أثناء السفر، وتقع المصيبة الكبرى عندما تُفقد الحقيبة... وقد حصل ذلك ذات مرّة ولكن لحسن الحظّ في بلد صديق، فأعيدت الحقيبة مع باقة ورد...

في باريس، العاصمة الفرنسيّة، لم يكن يظهر رئيس المخابرات الفرنسيّة الكونت دومَارَانش أبدًا... لأنّه يلعب دورًا مهمًّا في السياسة الفرنسيّة، وهو مسؤول أمام

رئيس الجمهوريّة فقط، ويقوم بصورة منتظمة باستدعاء الوزراء والسفراء الفرنسيّين وعددًا من مديري المصانع وبعض الصحافيّين ويطلعهم على الأخطار التي تهدّد مصالح فرنسا، ولا يبخل على الصحافيّين بالمعلومات التي يحصل عليها من مصادره في واشنطن وبكين ولندن وبون وبروكسيل وبيروت ودمشق والرباط والرياض أيضًا...

وكان الكونت دومَارَانش يهوى إهداء كتاب صينيّ صدر سنة ٥٠٠ قبل المسيح إسمه "فنّ الحرب"، للكاتب الصيني "صن تزو"، ومن هذا الكتاب يفخر دومَارَانش بقراءة هذه العبارة وتوضيحها لمن يهديهم الكتاب:

"إذا كان الأمير خبيرًا والجنرال ذكيًّا فهما يضلّلان العدوّ، وإذا كانت إنجازاتهما تفوق المعتاد فإنّ ذلك عائد للإعلام المسبق: الاستخبارات"...

ووُصف دومَارَانش من قبل الجنرال الخبير "فرنون والترز" الملحق العسكريّ الأميركيّ السابق في باريس، والذي أصبح مترجمًا لخمسة رؤساء أميركيّن، والرقم (٢) في المخابرات الأميركيّة، بأنّه "عجيب". أمّا الوزير "بيرنان" الفرنسيّ السابق فيقول عن دومَارَانش : "إنّه مجنون... لقد جسر على استدعاء السفير السوفياتيّ في باريس "ستيفان تشيرفونينكو" بدون إعلام وزارة الخارجيّة إلى ثكنة "مورتييه" يرافقه رئيس فرع المخابرات في السفارة لكي يطالبه بالتزام حدوده... والأغرب من ذلك أنّ السفير السوفياتيّ لم يحتجّ أبدًا رغم أنّ ذلك كان سيثير فضيحة دبلوماسيّة"...

يبدو أنّ الوزير بيرنان نسي أنّ السفير السوفياتيّ هو صديق شخصي لرئيس جهاز المخابرات السوفياتيّ KGB "يوري أندروبوف" وعرّاب ربيع براغ وهنغاريا، لذلك فهو يفهم تمامًا مغزى حديث غير دبلوماسيّ من رئيس مخابرات غير

دبلوماسيّ... خاصّة إذا قرأ رئيس المخابرات للسفير عبارة أخرى من الكتاب الصيني في الحرب وهي:

"هناك خمسة أنواع من العملاء السريّين للاستعمال، عملاء محليّون مزدوجون، وداخليّون، وطيّارون، ويمكن تصفيتهم، عندما يكون هؤلاء العملاء جميعًا في أعمالهم وعندما لا يعرف أحد طريقتهم، يدعون الشلاّل الإلهيّ ويشكّلون ثروة للحاكم"[1].

---

١ - الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣: ٦٩ - ٧٢.

هيربيرت يا ردلي والشيفرة الألمانيّة المستعملة في فرنسا

هذا الشاب البالغ من العمر ٢٢ عامًا، عامل التلغراف السابق في هيئة السكة الحديدية، الذي وصل إلى بناية فيكتوريّة ضخمة مظلمة في جادة بنسلفانيا في واشنطن العاصمة سنة ١٩١٢ لتولي مهام وظيفته الجديدة ككاتب رموز شيفرة في وزارة الخارجية الأميركية، عرف في الحال إن افتراضه القائل إن هذه الوظيفة الجديدة تستتبع بالضرورة عنصر الإثارة كان افتراضًا خاطئًا.

كان هذا المكان كأنه ضريح، ذلك أنه في ظل سبات واشنطن في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى، فإن وزارة الخارجية ووزارة الحرب والبحرية الموجودتين في "البناية الضريح" نفسها كانتا تتميزان بكل عناصر الدراما والإثارة في نظر هؤلاء الذين من عادتهم الميل إلى الهدوء والتأمل.

كان "هيربرت ياردلي" قد وصل من ولاية إنديانا، مفترضًا القول إن مركز السلطة الأميركية لا بد أن يعج بالخداع والنشاط. وبدلاً من ذلك، فإن وزارة الخارجية الأميركية عكست حالة مزاجية عامة عند الأميركيين، ولم تكن تملك أيّ فكرة عمّا كان يجري في الحقيقة في بقية أنحاء العالم، كما لم تكن تبدي أيّ اهتمام على وجه الخصوص.

إنهمك ياردلي في الروتين الممل لوظيفته، وأمضى الساعات التي لا قيمة لها... وكان هناك منها الكثير، في ممارسة هوايته في دراسة رموز الشيفرة. وكان يذهب إلى مكتبة الكونغرس، في كل لحظة فراغ، من أجل قراءة كل ما يعثر عليه حول

الموضوع. ومع بداية عام ١٩١٤، أصبح كاتب رموز الشيفرة الذي يتقاضى ٩٠٠ دولار في العام واحدًا من أبرع الخبراء الأميركيين في كتابة رموز الشيفرة. ولم يكن هذا عملاً فذًا على وجه الخصوص، ذلك أن كتابة رموز الشيفرة الأميركية كانت متخلّفة حوالي ٣٠ عامًا بالمقارنة مع أوروبا.

كان ياردلي كلما درس موضوع رموز الشيفرة الأميركية المستخدمة في ذلك الوقت، كلّما أصبح مقتنعًا أكثر بسهولتها وإمكانية استخدامها على نحو مفيد في مجال الإتصالات الرمزية الحديثة. وبمواجهته صدًا من رؤسائه لدى إعرابه عن تذمره تجاه رموز الشيفرة، قرر ياردلي الإصرار على المضي قدمًا في أمر اعتبره ملحًا: خلال فترة امتدت إلى بضعة شهور، تمكن ياردلي من حل كل رموز الشيفرة الأميركية الموجودة، وكتب تقريرًا تحت عنوان "شرح تفسيري حول حل رموز الشيفرة الدبلوماسية الأميركية". وانتهى ياردلي إلى استنتاج مؤداه أن الدول الأوروبية، المعروفة بقدرتها على كتابة رموز شيفرة من الدرجة الأولى، تملك بلا شك القدرة على قراءة رموز الشيفرة الأميركية البسيطة بكل سهولة...

وقام ياردلي، على نحو غير مهذب، بعرض هذا التقرير على رئيسه، الذي صادف أن كان الرجل الذي وضع رموز الشيفرة في بادئ الأمر... ومن أجل تعزيز فكرته، ذهب ياردلي إلى مكتب هذا الرجل، وفتح خزانته الحديدية، التي كان رقمها التوافقي، كما اكتشف ياردلي، قائمًا على أساس رقم تليفون خطيبة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون.

إنتقلت كلمة ياردلي حول أعماله الفذة إلى المؤسسة العسكرية الأميركية الصغيرة. وفي العام ١٩١٧، حينما دخلت أميركا الحرب، قام الكولونيل "رالف فان ديمان"، رئيس إدارة الاستخبارات العسكرية في الجيش، بتجنيده وقتئذٍ. وفي أعقاب محادثة

استغرقت ١٥ دقيقة مع ياردلي، انتهى فان ديمان إلى استنتاج مؤداه أنه الرجل الذي يمكن أن يجعل الولايات المتحدة في مقدمة الدول في موضوع كتابة رموز الشيفرة. وجرى تكوين وحدة استخبارات عسكرية جديدة، أطلق عليها إسم MI-8، من أجل ياردلي، الذي حصل على تفويض عسكري بتجنيد وتدريب مجموعة من أفضل العقول، ثم إرسالهم إلى فرنسا.

بعد ذلك، بدأ ياردلي واحدة من أشد الأعمال إثارة في تاريخ الاستخبارات الأميركية، وأشدها مأساوية أيضًا.

بالنظر إلى كونه رجلاً نشيطًا جدًا، فإن ياردلي، خلال فترة زمنية قصيرة، تمكن من تكوين مجموعة من كتّاب رموز الشيفرة المدربين في منظمة وضع خطوطها العريضة وفقًا لنموذج "الغرفة المظلمة" الفرنسية الشهيرة في زمن الحرب، وكانت واحدة من ألمع منظمات كتابة رموز الشيفرة في العالم. ومع حلول ١٩١٨، أضاف ياردلي سجلاً رائعًا من خلال القيام بجهود أسفرت عن حل رموز الشيفرة الألمانية المستخدمة في الاتصال مع الجواسيس في فرنسا، وبالنتيجة، أمكن إلقاء القبض على كل جاسوس ألماني جرى إرساله إلى فرنسا.

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، تقرر الاستغناء عن خدمات MI-8 ضمن موجة تقليص الخدمات اللاحقة على الحرب، غير أن ياردلي وأعمال مجموعته البطولية كانت معروفة جيدًا عند المستويات العليا من الحكومة، حتى أن ترتيبات لم يسبق لها مثيل جرى إعدادها: MI-8 يمكن أن تستمر في العمل تحت غطاء شركة تجارية مدنية صانعة للرموز، وتتلقى الأموال على نحو سري من وزارة الخارجية الأميركية. وبالنظر إلى حقيقة بناء مقرها في مدينة نيويورك بالحجر الأسود، فإن ياردلي أطلق،

على نحو غير رسمي، على مجموعته "الغرفة المظلمة": تقديرًا للمنظمة الفرنسية التي علّمت الأميركيين الشيء الكثير.

بدأ ياردلي في تقليب نهر من أوراق صفراء جاء فيها: "نحن نتعلم من مصدر كان يعتبر موثوقًا به في الماضي.."، واستمر مع نص الرسائل الفعلية وفق منهج "الغرفة المظلمة" في حل رموز الشيفرة. وأصبحت رموز شيفرة عدد كبير من الدول صفحة معروفة أمام ياردلي، وفي أواخر ١٩١٩، وبناء على أوامر من وزارة الخارجية، لجأت "الغرفة المظلمة" إلى تركيز جهودها على رموز شيفرة اليابان، التي كانت تعتبر عدوًا محتملاً للولايات المتحدة. ومن واقع صعوبة اللغة اليابانية وتعقيدات رموزها، فإن الغرفة المظلمة استغرقت حوالي عامين في حل رموز الشيفرة، ووفق ما جاء على لسان ياردلي في وقت لاحق، فإن الحل جاء إليه ذات ليلة في حلم.

على أيّ حال، فإن الحل جاء في الوقت المناسب: القيام بدور في واحدة من أشد الظواهر الدبلوماسية إثارة في الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية، وهي ظاهرة جعلت ياردلي بطلاً ومنبوذًا معًا.

في ١٩٢١، بدأ مؤتمر واشنطن للحد من القطع البحرية، بهدف تخفيض الأساطيل البحرية في العالم عن طريق نظام النسبة والتناسب: كل دولة يمكن أن يسمح لها بعدد معين من القطع البحرية الرئيسية يتناسب مع حجم الأساطيل البحرية الأخرى. والافتراض من وراء ذلك هو أن الدول البحرية مثل الولايات المتحدة يمكن أن تحتاج إلى أساطيل أكبر لحماية مصالحها بالمقارنة مع الدول الأصغر. وكانت اليابان مشاركة في هذا المؤتمر، ولكنها كانت عاقدة العزم على الحصول على نسبة قريبة جدًا من نسبة الأسطول الأميركي.

كان المفاوضون اليابانيون قد تلقوا تعليمات بالتمسك في موقفهم عند نسبة ١٠/ ٧ (٧٠٠،٠٠٠ طن سفينة حربية يابانية مقابل ١،٠٠٠،٠٠٠ طن سفينة حربية أميركية)، ولكنهم تلقوا أيضًا تعليمات أخرى بالتوصل إلى حل وسط عند نسبة ١٠/ ٦ لو اتخذ الأميركيون موقفًا متصلبًا في الرأي. وهذا بالضبط ما سعى المفاوضون الأميركيون إلى التمسك به في موقفهم، وذلك على ضوء المعلومات الاستخباراتية التي قدمها ياردلي من رسائل الشيفرة المتبادلة بين المفاوضين اليابانيين ورؤسائهم في طوكيو، التي أفادت أن الأميركيين يتمسكون بموقفهم بشدة. وفي نهاية الأمر، أذعن اليابانيون، وبرهنت النتائج عن كونها مذهلة. وبعد حوالي ١٥ عامًا، قام اليابانيون بإلغاء المعاهدة من جانب واحد، ولكن في ذلك الوقت سبق السيف العذل، وفي الفترة القصيرة السابقة على عملية بيرل هاربور. لم تستطع اليابان التعويض عن الوقت الضائع وبناء قوة بحرية قادرة على تحدي التفوق البحري الأميركي.

سنة ١٩٢٩، عرف وزير الخارجية الأميركي الجديد، المحافظ هنري ستيمسون، مصدر الأوراق الصفراء التي كشفت بالضبط عمّا يدور في فكر الدبلوماسيين في الدول الأخرى. وفي ظل شعوره بالصدمة، قرر سيتمسون إغلاق الغرفة المظلمة من خلال كلمات فلسفية ظلت تنتابه خلال بقية حياته: "يا أيها السادة، لا تقرأوا رسائل بعضكم بعضًا".

وخلال فترة وجوده بدون عمل، عاني ياردلي من ضربة أخرى، حينما ضاعت النقود التي استثمرها في سوق الأوراق المالية بسبب الانهيار العام في الأوضاع الاقتصادية. ومن خلال محاولة للإنفاق على عائلته، كتب ياردلي كتابًا شعبيًا جدًا تحت عنوان: "الغرفة المظلمة الأميركية" وأثار هذا الكتاب غضب الحكومة الأميركية، وحينما حاول ياردلي كتابة كتاب آخر تحت عنوان: "الأسرار الدبلوماسية اليابانية"،

ذهب النائب العام الحكومي إلى المحكمة، وحصل على حكم كان بمثابة نقطة تحول وقام على تأييد حق الحكومة في قراءة كتابات عملاء الاستخبارات قبل نشرها. وكانت الحكومة الأميركية شعرت بغضب شديد من جراء كتاب "الغرفة المظلمة الأميركية"، ولا عجب في ذلك: هذا الكتاب كشف النقاب عن السر الأعظم عند الاستخبارات الأميركية، وهو كشف جعل كل الدول التي قرأ ياردلي شيفراتها تلجأ إلى ضبط نظامها في كتابة رموز الشيفرة بإحكام (ومن بين هذه الدول كانت اليابان، حيث كان كتاب ياردلي من أكثر الكتب رواجًا. وفي ظل شعورها بالصدمة حينما عرفت مدى سهولة قراءة رموزها للشيفرة، قررت الحكومة اليابانية إصلاح نظامها لرموز الشيفرة، وفي نهاية الأمر صنعت ماكينة شيفرة معقدة أطلق عليها الأميركيون الاسم الرمزي "بيربيل". وهذه الماكينة جعلت خبراء رموز الشيفرة في الجيش الأميركي يبذلون جهودًا عملاقة من أجل حل رموز الماكينة، ونتيجة لذلك، تمكن الأميركيون من قراءة كل الرسائل الدبلوماسية اليابانية رفيعة المستوى قبل وخلال الحرب العالمية الثانية).

إعترف ياردلي بأنه لم يعد يبدي اهتمامًا تجاه كل هذا الجدل، مفضلاً استغلال طاقاته في عمل تجاري. ولكن أيًا كانت مواهبه في حل رموز الشيفرة، فلم يكن ياردلي رجل أعمال ناجحًا. وكل مشروع حاول البدء به، كان مصيره الفشل، بما فيه ذلك الفشل الدراماتيكي الذي تضمن اختراعه حبرًا سريًا غير قابل للاكتشاف، وعلى الأخص في وقت اتضح فيه أن سوق هذا الحبر كان غامضًا.

سنة ١٩٣٨، حينما كان في حاجة ماسة إلى النقود، اضطر ياردلي إلى العودة إلى ذلك المجال الذي جعله يكتسب شهرة كبيرة، ووافق على قبول وظيفة للعمل لحساب الزعيم الصيني شيانغ كاي ـ تشك في حل رموز الشيفرة العسكرية اليابانية. وهذا التعيين في تلك الوظيفة آثار غضب اليابانيين، الذين بدأوا في اعتبار ياردلي خصمًا

رهيبًا. وبعد عملية بيرل هاربور، عرض ياردلي خدماته على واشنطن، ولكن الحكومة الأميركية، التي كانت غاضبة منه بسبب كتابه في ذلك الوقت... لم توافق على عرضه. وحاول الكنديون، من واقع اهتمامهم الخاص بهم في تطوير جهودهم في حل رموز الشيفرة، استخدام ياردلي، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن المحاولة تحت ضغوط قوية من الحكومة الأميركية.

وفي ظل شعوره بالمرارة، اضطر ياردلي خلال الحرب إلى قبول وظيفة متواضعة في مكتب إدراة الأسعار. وبعد الحرب، اختفى في عالم الغموض، وكتب كتابًا عن عمله في الصين، ثم كتب كتابًا آخر، وفي هذه المرة كان عبارة عن دراسة حول لعبة البوكر، وما زال هذا الكتاب في مرتبة أعظم الأعمال التي كتبت حول هذا الموضوع. وبالنظر إلى كونه سكيرًا كبيرًا، فإن عادة الشرب بدأت في التأثير على صحة ياردلي، ومات سنة ١٩٥٨. واتجه الرأي العام الأميركي إلى نسيانه، ولكن الحكومة الأميركية لم تفعل ذلك، وذلك على الرغم من أن حقدها الطويل أصبح فاترًا في المدة الأخيرة إلى حد ما.

وهكذا، فإن الملازم السابق هيربرت ياردلي، الرئيس السابق لوحدة الاستخبارات MI-8 التابعة لدائرة اللاستخبارات العسكرية في الجيش الأميركي، الرجل الذي أحدث ثورة على نحو مخلص في نظام الشيفرة الأميركية، وأوجد القاعدة الأساسية للانتصارات العظيمة التي حققتها الولايات المتحدة في حل رموز الشيفرة في الحرب العالمية الثانية، جرى دفنه في مقبرة أرلينغتون الوطنية مع كل أوسمة الشرف العسكرية[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة،١٩٩٩) ص١٨٧ ـ ١٩٢.

فَضيحَة جان دَايد التي هزَّت فَرنسَا

كم كان الزعيم الفيتنامي "هو شي منه" على حقّ عندما كان يقول: "لا شيء أثمن من الحريّة والاستقلال".

من هنا شكّلت معركة "ديان بيان فو" سنة ١٩٥٤ في فيتنام "قمّة الانتصار" الفيتنامي مقابل "قمّة الهزائم" الفرنسيّة في الهند الصينيّة. فقد سُحقت فيها القوّات الفرنسيّة بمرارة، كما سُحقت فيها هيبة فرنسا وسمعتها الدوليّة في تلك الأيّام. ولم يكن ذلك ليتمّ لولا العنصر المخابراتي التجسّسي الفاعل والمؤثّر في الحدث على مختلف المستويات والأصعدة.

تلك الواقعة التي عُرفت بـ"فضيحة جان دايد".

فما هي تفاصيل تلك الفضيحة التي هزّت فرنسا وأفقدتها أهمّ ممتلكاتها في ما وراء البحار، المعروفة بـ"الهند الصينيّة"؟

لم يكن التعليق الذي شاع تردّده على أثر انتشار فضيحة "دايد" بأنّ "دمار فرنسا يأتي دائمًا من داخلها"، تعليقًا مرتجلاً، بل كان يستند إلى حوادث تاريخيّة سابقة... وهل كان تمكّن النازيّون لسنوات مضت من اجتياح فرنسا عن غير هذا الطريق؟... لقد قضى الفرنسيّون على أثرها أربعة أعوام لا يمكن أن تُنسى أبدًا... أربع سنوات شعر خلالها الكثير من الفرنسيّين بقيمة الحريّة وما يسبّبه فقدانها من الألم المرير...

من البديهيّ أن تكون نتائج أعمال "دايد" قد تسبّبت بمأساة فادحة، ولكنّها كانت على درجة كافية من الخطورة... ذلك أنّ هذه المؤامرة قد كلّفت فرنسا فقدانها لإحدى

ممتلكاتها الرئيسيّة والتي كانت تتمسّك بها إلى أقصى حدّ، وإنّ مسؤوليّة هذه الخسارة تقع على عاتق "أعداء الوطن من الداخل" الذين وقّعوا وثيقة الحكم على الهند الصينيّة... ولقد تمّ ذلك عندما علم العلماء الشيوعيّون في باريس أنّ أميركا قد قرّرت موقفها القاضي بألاّ تبعث الوحدات المقاتلة وأن تضع حدًّا لمساعدتها وذلك بالاكتفاء بإرسال إمدادات الأسلحة والفنيّين فقط... وقد تسرّبت هذه المعلومات من وزارة الدفاع الفرنسيّة ونتج عن ذلك تلك الضربة القاضية ومكان الانقضاض الرهيب الذي أطاح بالقلعة الحصينة، ديان بيان فو.

خلال ذلك كلّه، وعندما انتشرت تلك الفضيحة، وبعد أن انفجرت أزمتها، لم يرتكب أولئك الذين يلعبون دورهم على المسرح أيّ خطأ حتّى اهتزّت فرنسا، وافتضح أمر "دايد"... عندئذ امتدّت أصابع الاتّهام لتشير إلى كبار شخصيّات الدولة، وفي مقدّمتهم تلك الشخصيّة التي برزت خلال هذه الحوادث: "جان دايد"، أحد كبار ضبّاط الشرطة الذي كان يبدو أنّه على اطّلاع على المناورات السياسيّة التي أحاطت بعقدة "الهند الصينيّة"، أكثر من المسؤولين المباشرين الذين أنيط بهم أمر الدفاع عن شرف الأمبراطوريّة الفرنسيّة... وكان أدهى باقي تلك الفضيحة هو ذلك الدور الذي لعبه دايد والذي تمكّن بواسطته من إدخال الجواسيس إلى قلب اجتماعات "مجلس الدفاع" في مهمّة كشف الجواسيس الشيوعيّين، على الرغم من أنّه كان يعرف بوجودهم في هذا المجلس، فهل كان بالإمكان أن يشاهد الإنسان على مسرح الأوبرا تمثيليّات أدقّ وأجمل من هذه؟

كان جان دايد قد جاوز الأربعين من عمره عندما أنيط به أمر مراقبة الشيوعيّين الأجانب، وذلك منذ بداية حدوث أزمة الهند الصينيّة. وقد كان أبوه من قبله أيضًا ضابطًا في الشرطة حتّى عندما انتسب هو إلى هذا النظام، وقد تمكّن دايد من تكوين

فكرة جيّدة عنه طوال مدّة خدمته، بدءًا من بدايته كشرطيّ عاديّ قبل الحرب العالميّة الثانية، وحتّى ارتقى بسرعة في سلّم الرتب والمناصب إذ لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين حتّى أصبح مفتّشًا في الاستخبارات العامّة.

عُيّن دايد بعد أن تمّ تحرير فرنسا في منصب رئيس للفرع الخاصّ للاستخبارات العامّة، وقد كان اختصاص المكتب الخامس مكافحة الجاسوسيّة، وهو الذي كان يهتمّ بالعملاء الشيوعيّين الأجانب. وبما أنّ دايد كان من أنصار شارل ديغول، ومن الذين عملوا على تحرير باريس، فقد تمّ انتخابه لإشغال منصب هامّ في اتّحاد شرطة باريس.

كان يتمّ طبع تقارير دايد السريّة عن التجسّس على الشيوعيّين على عدّة نسخ، وكانت تلك التقارير توزّع إلى المسؤولين في الشرطة، والجيش، والقادة المدنيّين، وكانت التقارير على درجة من الأهميّة تفوق الوصف، وقد أذهلت المعلومات الواردة فيها عن تنظيم شبكات الشيوعيّين رئيس الشرطة "بايلو"، فجعل من دايد مساعده الأيمن، وذلك بهدف إعطائه الفرصة في سبيل الحصول على المزيد من المعلومات عن نشاط هذه الجماعة التي اتّخذت من باريس مركزًا لها.

عندما استلم "لاينيل" رئاسة مجلس الوزراء، ظهر أوّل تقرير يدرس دراسة عميقة تنظيمات الشيوعيّين وأعمالهم في العاصمة الفرنسيّة، وفي هذا التقرير كشف دايد النقاب لأوّل مرّة عن أنّ الشيوعيّين تمكّنوا عن طريق جواسيسهم من الحصول على المعلومات المتعلّقة بالدفاع عن الهند الصينيّة.

حدث بعد ذلك أن تقدّم الجنرال "هنري أوجيني نافار" إلى مجلس الدفاع الوطني في باريس بمشروع للدفاع عن الهند الصينيّة، ولم يمض على هذا الاجتماع إلاّ أيّام قليلة حتّى ظهرت بوادر تسرّب المعلومات عن هذا المؤتمر السرّي، ولم يكتف

الشيوعيّون بإظهار علمهم بخفايا هذا الاجتماع ومشاريع فرنسا في هذا الإقليم المضطرب، ذلك أنّ جريدة "الأوبسرفاتور" الأسبوعيّة قد قامت بنشر محضر اجتماع هذا المؤتمر السرّي للغاية، ونوّهت إلى المقرّرات التي تمّ اتّخاذها، فكيف تسرّبت هذه المعلومات؟... لا أحد يدري كيف تمّ ذلك... وقد أنيط بدايد أمر التحقيق في هذا الموضوع.

كانت الظواهر تشير إلى أنّ بعض أعضاء مجلس الدفاع على علاقة جيّدة بالشيوعيّين، وقد ثارت الشكوك حول "المكتب الثاني" للجيش وكلّ أفراد الاستعلامات العسكريّة، ولكنّ الفاعل الحقيقيّ بقي بعيدًا عن الشبهات...

عقد مجلس الدفاع اجتماعه بتاريخ الرابع عشر من شهر أيّار ـ مايو ١٩٥٤، وكان هذا الاجتماع على مستوى عال، فاستعرض تدابير الأمن المتعلّقة بالمواطنين الفرنسيّين والمبعوثين في الهند الصينيّة، وقد أمكن وضع عناصر مكافحة التجسّس العاملين لمصلحة دايد في قلب الاجتماعات، وقد بقي هذا الأمر يحوطه الغموض... ولكنّه لم تنقضِ سوى أيّام قليلة على عقد اجتماع هذا المؤتمر حتّى اتّضح بأنّ الشيوعيّين كانوا على اطّلاع بما يجري في ذلك المؤتمر. وقد نوّهت مجلّة "إكسبرس" الأسبوعيّة إلى ما دار فيه...

تقابل دايد مع مدير الشرطة بايلو الذي أراد أن يعرف كيف أمكن تسريب هذه المعلومات مرّة ثانية، على الرغم من اتّخاذ كافّة الترتيبات بوضع عناصر مكافحة الجاسوسيّة في قلب الاجتماع.

بعد هذه المقابلة بثلاثة أيّام، تقدّم "مطارد الجواسيس" دايد بمخطّط للعمل بموجبه، وقد قام مدير الشرطة بدراسة هذا المخطّط، وكذلك فعل وزير الداخليّة المشرف على منظّمات الأمن الوطنيّ. وقد اقترح دايد في مخطّطه إدخال المواطن "أندريه بارنيس"

إلى قلب القيادة الشيوعيّة واللجنة المركزيّة، ذلك لأنَ بارنيس كان شيوعيًا لسنوات خلت، ثمّ انسحب بصورة سريّة من الـ"كومينفورم"، وذلك لاختلافه مع قادة الحزب الذين كانوا يجعلون ارتباط الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ يومذاك، إرتباطًا حيويًّا ومباشرًا مع موسكو.

تمكّن بارنيس خلال عدد من الإسابيع من سرقة نسخ عن كلّ الوثائق الهامّة الموجودة في القيادة الشيوعيّة، وقام ببيعها إلى دايد، ولكنّه لم يكشف النقاب إطلاقًا عن أيّ تقارير من تلك التي حصل عليها الشيوعيّون، والمتعلّقة باجتماعات مجلس الدفاع. بعدئذ سقطت حكومة لاينيل وحلّت محلّها حكومة "بيير مانديس فرانس"، وتبعًا لتغيّر الحكومة، حصلت تغييرات في أساليب وأجهزة الحكومة، وصدر قرار بتعيين "أندريه دي بوا" مكان مدير الشرطة السابق بايلو. وقد قرّر دي بوا أنّه لا ضرورة لوجود فرع لمكافحة الشيوعيّة في جهازه، فعمل على إلغائه، ذلك لأنّه كان يؤمن باتّباع أساليب أخرى لمحاربة الشيوعيّين، فقام بتعيين العناصر الموثوقة من أعوانه. وكان دايد شخصيّة من بين هؤلاء الذين شملتهم حركة التنقّلات والتغييرات، فصدر القرار بتسميته مفتّشًا لميناء باريس، وكان مقرّه خارج باريس في "جنيفيه". وقد ذُهل دايد لهذا الإبعاد إلى الضواحي، وهو يرى كافّة الجهود التي بذلها في مكافحة الجاسوسيّة تذهب هدرً، ولذا صمّم على الاحتفاظ بعلاقاته السابقة مع استمرار الاتّصال مع طبقة العمّال من الحزب الشيوعيّ، وكذلك مع أفضل مخبريه. ونتج عن ذلك أن أنيط أمر مراقبة الشيوعيّين بالعسكريّين.

إستنفرت شعبة الاستخبارات في الجيش وبدأت مهمّتها. وبالرايخ العاشر من أيلول - سبتمبر عقد اجتماع ثالث لمجلس الدفاع، وكان منهج الاجتماع يهدف بصورة رئيسيّة إلى معالجة ودراسة استراتيجيّة معاهدة شمال الأطلنطي، وإعادة تسليح ألمانيا في

المستقبل. وقد أمكن سرقة أسرار هذا الاجتماع مرّة أخرى، وقام دايد بعد هذا الاجتماع بعدّة أيّام بزيارة "كريستيان فوشيه" وزير الحكومة الفرنسيّة لما وراء البحار، ووضع بين يديه ملخّصًا عن المحضر السرّي للاجتماع. وقد ذُهل الوزير عندما رأى هذا الملخّص وهو من بين من حضروا الاجتماع بنفسه. وقد حصل دايد على هذا التقرير من بارنيس، مخبره الخاصّ الذي قام كالمعتاد بعد سرقة المحضر ببيعه إلى دايد. وقد صرّح الوزير في ذروة ذهوله بقوله: "إنّ هذا الملخّص ينطبق في الواقع مع محضر الاجتماع". وتساءل عن سبب زيارة دايد له بدلاً من وضع هذه المعلومات تحت تصرّف رجال الشرطة مباشرة، ولكنّ الجواب على هذا التساؤل أتاه سريعًا عندما قال له دايد:

"يا معالي الوزير فوشيه، لقد أتيت لزيارتكم ومعي تحذير: لقد صدر أمر إلى الشيوعيّين الفرنسيّين بجمع كافّة المعلومات الممكنة والمتعلّقة بمخطّطنا في المستقبل للدفاع عن الهند الصينيّة".

على الرغم من الصراحة التي برهن بها دايد عن إخلاصه وصدقه في عمله، فإنّ منظّمات استخبارات الجيش، لم تنظر بعين الارتياح إلى تقاريره المختصّة فقط بالشيوعيّين، لا سيّما وأنّه لم تعد له أيّ صفة رسميّة، وأنّ عمله هذا يعود إلى دوافع شخصيّة بحتة، ولذا فإنّه ليس من المستغرب إذا ما ثبت بأنّ المسؤولين لم يطمئنّوا إلى أهدافه من عمله كما سيرى ذلك في ما بعد.

في ١٨ أيلول – سبتمبر، تمّ اعتقال دايد بواسطة ضبّاط المخابرات، دون أيّ إنذار، في اللحظة التي كان يغادر فيها مكاتب وزارة الهند الصينيّة، وقد أبدى دايد في بادئ الأمر مقاومة عنيفة ولكنّه اضطرّ أخيرًا إلى مرافقة ضبّاط الاستخبارات.

عُثر مع دايد بعد تفتيشه على وثيقة لم يكن له الحقّ بامتلاكها، وهي تتضمّن ملخّصًا عن محضر اجتماع مجلس الدفاع... هي الوثيقة نفسها التي أبرزها أمام الوزير فوشيه.

بعد استجواب دايد إستجوابًا دقيقًا استمرّ خلال المساء وفي قسم من الليل، تمّ إخلاء سبيله.

لقد صرّح دايد بأنّه حصل على هذه الوثيقة من بارنيس، ونتج عن استجوابه اعتقال عضوين من أعضاء مجلس الدفاع الوطنيّ هما "جان توربان"، و"روجيه لابروس"، كما عُزل دايد من الوظائف والمهام التي كان يشغلها. وعلى الرغم من ترك الحريّة له، فإنّ استجوابه استمرّ متقطّعًا في كلّ يوم تقريبًا، فيما تمكّن بارنيس من الفرار، ولكنّ رجال الشرطة تمكّنوا من اعتقاله ثانية بعد بحث واسع النطاق حيث عُثر عليه في أحد الأكواخ في "بور جنيرو".

خيّل لرجال الشرطة بأنّ هؤلاء الأطنّاء الأربعة هم رؤوس شبكة واحدة: إذ يقوم توربان بإعطاء المعلومات إلى لابروس، الذي يقوم بنقلها إلى بارنيس، فيقوم هذا ببيعها إلى دايد... وقد خُيّل لهم، لأوّل وهلة، أنّ الدافع لدايد في نشاطه واتّصالاته هو إخلاصه الكبير لأمن فرنسا، ولكنّ تصريحات بارنيس خلّفت الشكوك بصورة قويّة... فهل هناك معنى آخر لتفسير نشاطه واهتمامه بأمور الهند الصينيّة؟

قال بارنيس بعد اعتقاله:

"إنّني لست الوحيد الذي قام بإعطاء المعلومات للشيوعيّين وللشرطة، فهناك آخرون قد زاولوا هذا العمل من قبلي. وكانت تقاريري باستمرار تصل إلى الشرطة وإلى الشيوعيّين بعد تقارير الآخرين، وكان الهدف منها تأكيد ما يقوله الآخرون"...

لكنّ أقوال بارنيس لم تقنع أحدًا. أمّا عندما استجوبوه حول علاقته بدايد، فقد صرّح مؤكّدًا على أنّ الشيوعيّين كانوا يعرفون تمامًا أنّ المعلومات التي يقومون بنقلها إليه ستباع إلى دايد... بل إنّ الواقع يؤكّد على أنّ الشيوعيّين أنفسهم كانوا يقومون بتحضير التقارير التي ستسلّم إلى دايد، وذلك بهدف إثارة جوّ من التضليل في باريس. ونتيجة لذلك فقد كان من الصعب معرفة الحقيقة في قلب هذه الدوّامة من الاتّهامات والاتّهامات المعاكسة والإشاعات... بل إنّ هناك ما هو أدهى من ذلك، فقد أصبح الشكّ يحيط بالموضوع بأجمعه.

أمّا دايد، فقد بدأ يستعيد شخصيّته ليس فقط كمفتّش للشرطة، بل كشخص قام بدوره وهو يغادر غرفة المسرح بعد أن أدّى واجبه على أكمل وجه. وأخيرًا أصبح من الممكن أن يسود الاقتناع بأنّه قد أسيء فهم الدور الذي قام به دايد، ولكنّ التعليل لذلك أنّه حتّى لو أسيء فهمه، فهو وحده المسؤول عن ذلك!

كان دايد دائمًا يصرّح بإفاداته بأنّه ضابط شريف من ضبّاط الشرطة، يقوم بواجبه بضمير حيّ، وأنّه لم توجّه إليه أيّ تهمة ولم يقدّم للمحاكمة طوال خدمته، وهذا ما لا يجب نسيانه، كما أنّه من الممكن أن يكون دايد ضحيّة للعميل الشيوعيّ المزدوج: بارنيس، الذي زاول معه العمل زمنًا، من المؤكّد أنّه كان زمنًا طويلاً نسبيًّا. كما أنّه من المحتمل أيضًا أن يكون دايد قد فعل ما فعله سالكًا الطريقَ الوعر بهدف إثارة فضيحة لإعطاء سلاح إلى هؤلاء الذين يعملون لقلب حكومة "مانديس فرانس"، كما فكّر الأخرون بأنّ دايد لم يكن إلاّ "ضابط شرطة عاديّ"، أرادت الحكومة استخدامه والتضحية به لتظهر أمام حلفائها البريطانيّين والأميركيّين بأنّ فرنسا قد عزمت على إجراء تصفية عامّة لكلّ تسرّب شيوعيّ في أجهزة الدولة.

ولكن مهما يكن الأمر، فإنّ التاريخ سيسجّل واقعًا مؤكّدًا وحقيقيًّا، ذلك هو أنّ الهند الصينيّة قد بيعت للشيوعيين، وأنّ عقد هذه الصفقة قد ارتكب في باريس، وقامت بذلك الأوساط السياسيّة العليا، كما اشتركت أميركا في ذلك حيث تردّدت قبل أن تعلن أخيرًا أنّها لا تقرّ أيّ لون من ألوان المعونة العسكريّة للهند الصينيّة ... ولم يكن بإمكان الفرنسيّين إيجاد تبرير لهذه القرارات الأميركيّة، فحاولوا تفسير ذلك باقتفاء آثار الجواسيس الذين عملوا تخريبًا في بلادهم.

حدث أيضًا أن أوقف آخرون، بعد أن وجّه مانديس فرانس اتّهاماته إلى وزير الدفاع الوطنيّ في حكومته بالإهمال الخطير. أمّا الباحثون العسكريّون فقد أدركوا أنّ هدف الشيوعيّين من سرقة ونشر محاضر الاجتماعات وآثار الفضيحة نفسها هو الإسراع في إنهاء حرب الهند الصينيّة.

كذلك أوقف "جاك دو كلور"، سكرتير الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، واستُجوب ثمّ أُخلي سبيله... ولكن بعد أن أدان الحكومة الفرنسيّة إدانة قويّة عندما صرّح:

"ليس من حقّ فرنسا أن تعارض نضال الهند الصينيّة للتحرّر من نير الرأسماليّة الفرنسيّة".

أمّا النائب المعتدل "فريديريك ده بونت"، فقال:

"لقد كانت حرب الهند الصينيّة دائمًا برهانًا لاتّحاد فرنسا وتضامنها تجاه الشيوعيّة العالميّة، ولكن منذ وصل الشيوعيّون الصينيّون إلى حدود تونكين، أصبحت الهند الصينيّة حدًّا فاصلاً للحضارة الغربيّة، ودخلت الهند الصينيّة بأكملها في منطقة الحرب الباردة".

دفعت الولايات المتّحدة الأميركيّة مبلغ ثلاثة مليارات دولار بهدف إنقاذ الهند الصينيّة، ولكن على الرغم من المساعدات الأميركيّة التي بلغت ٨٥٪ من مجموع ما

كلّفته هذه الحرب، فإنّ فرنسا وجدت نفسها مجبرة على توقيع ذلك الاتّفاق في جنيف، الذي أمسكت بموجبه بعنق الهند الصينيّة إلى حذف الزعيم الجديد "هو شي منه"، وبذلك تمّ وضع حدّ للحرب القذرة التي لم تكن أبدًا محبّبة إلى نفوس الفرنسيّين.

كان هو شي منه قد تمكّن بفضل مساعدة روسيا له من تنظيم شبكة للجاسوسيّة في قلب الأوساط الدبلوماسيّة الفرنسيّة، وبذلك تمكّن من معرفة مشاريع مجلس الدفاع الفرنسيّ، بعد كلّ اجتماع يتمّ عقده بمدّة لا تزيد عن الثمانية وأربعين ساعة. وقد رفضت دول الغرب، لمدّة طويلة، الاعتراف الجدّي بهو شي منه لأنّها كانت تعتبره شخصًا عاديًّا لا قيمة استثنائيّة له، وكعميل من عملاء الشيوعيّة يتقاضى راتبًا من موسكو، ولكنّ فرنسا اضطرّت أخيرًا لأن تعترف به كزعيم قويّ.

لقد حسب هو شي منه حسابه منذ البداية، فقدّر ضرورة وأهميّة إنشاء منظّمة للتجسّس تعمل في قلب باريس، حيث كانت العقليّة الاستعماريّة الفرنسيّة ترسم خيوطها فيها.

قامت المخابرات الروسيّة فأمّنت له الاتّصالات الأولى مع الأوساط المطّلعة، ثمّ تركت له بعد ذلك حريّة العمل ليزاولها حسبما يشاء.

وُلد هو شي منه عام ١٨٩٢ في إقليم "تغيه" المضطرب، وكان لا يزال في مطلع شبابه عندما ركب متن إحدى سفن الشحن ميمّمًا شطر أوروبّا، وزار إنكلترا ثمّ أقام طويلاً في فرنسا، وكان كأغلب الثائرين في عصره مضطرًّا للتستّر خلف عشرات الأسماء المكتسبة، ولقد اكتسب اسمه هذا بذيوع صيته كأوّل رئيس شيوعيّ لـ"جمهوريّة فيتنام الديموقراطيّة". وعرفته الإضبارات لدى الشرطة في باريس خلال عدّة سنوات باسم "تغيه آي كوك"، أو "مواطن تغيه".

سنة ١٩١٩، عندما لم يكن لهو شي منه من العمر أكثر من سبع وعشرين عامًا، حضر إلى مؤتمر السلم في فرساي ليطالب بأن يُترك للهند الصينيّة حقّ تقرير مصيرها وذلك تطبيقًا للمبدأ الذي كان قد نادى به "وودرو ولسن" في بيانه الشهير ذي الأربعة عشر بندًا، كما تمّ تقديم طلبات مماثلة من قبل ممثّلين للبلاد الأخرى كالهند وكوريا والبلاد العربيّة. ولكنّ هذا المؤتمر، للأسف، كان برهانًا عن تجاهل مطلب العالم المتوثّب والمتيقّظ، وقد أصبح واضحًا بعد هذا المؤتمر أنّ فرنسا ليست وحدها من بين الشعوب التي تنظر إلى المستقبل نظرة تجاوز مداها أبعد من أرنبة الأنف...

بقي هو شي منه بعد فشل مؤتمر فرساي في باريس، وعمل فيها كمصوّر ليكسب ما يفي باحتياجات عيشه، أمّا نشاطه السياسيّ فكان بمثابة هواية له، وكان يحرّر بعض المواضيع ويعمل على نشرها في صحيفة "الشعب" الاشتراكيّة، كما كان يحضر الاجتماعات السياسيّة ويساهم في أعمال الحركات الاشتراكيّة، وقادته نزعته الراديكاليّة وتصريحاته الحماسيّة إلى السجن في أكثر من مرّة ولكن لم تثنه عن عزمه، حيث صرّح ذات يوم بقوله:

"إنّ الزمن الذي قضيته في السجن كان طويلاً، وإنّ أغلب السجون متشابه، ولكن سيأتي اليوم الذي تصبح فيه الهند الصينيّة سجنًا يضمّ هؤلاء الذين يستعمرونها".

تعرّف هو شي منه أثناء إقامته في باريس إلى زعماء البلاد الأخرى التي كانت فرنسا مستعمرة لها، كأفريقيا الشماليّة الفرنسيّة ومدغشقر، وكان يستخدم القاعدة الشيوعيّة منطلقًا للدفاع في سبيل الحصول على الاستقلال، وقد قام بوضع كتاب لمصلحة الحزب عنوانه "مراحل الاستعمار الفرنسيّ"، وأمكن تهريب عدّة نسخ من هذا الكتاب إلى الهند الصينيّة، وإلى مستعمرات فرنسيّة أخرى بحيث أصبح هذا الكتاب بمثابة إنجيل للحركات الوطنيّة.

في عام ١٩٢٥، كان هو شي منه أوّل فيتنامي يدخل إلى موسكو بدعوة رسميّة لحضور مؤتمر الـ"كومنترن"، ومكث هناك لمدّة عام كامل، اتّبع خلاله دورة تدريبيّة في "أكاديميّة ستالين"، ثمّ عاد إلى باريس وعمل على إنشاء وإصدار جريدة "لو باتريا" التي أصبحت الصحيفة الناطقة باسم الدولة الخاضعة لاتّحاد الدول الاشتراكيّة والتي يسيطر عليها الاستعمار. وقد عملت فرنسا بالإضافة إلى دول أخرى على منع هذه الصحيفة من دخول المستعمرات الخاضعة لها، ولكنّ هذا الإجراء جعل الطلب يزداد عليها والبحث يكثر عنها، كما استمرّ العمل على تهريبها إلى داخل المستعمرات.

مرّت سنوات، تمّ بعدها انتخاب هو شي منه كممثّل عالميّ للفلاّحين الاشتراكيّين، وذلك بهدف نشر الأفكار الاشتراكيّة بين الشعوب وتفجير الوعي في كلّ أفريقيا وآسيا، وكان يؤمن بأنّ كسب الصين إلى جانب المعسكر الاشتراكيّ أمر ضروريّ، كما أنّ مستقبل فيتنام يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنجاح الشيوعيّة في الصين. وقد عبّر عن رأيه هذا في إحدى مقالاته حيث قال:

"لا يمكن للهند الصينيّة أن تبقى كتلة من الجليد وهي تقع بين الهند والصين الملتهبتين"...

في ١٩٢٥ أيضًا، كان هو شي منه قد مرّ في الصين حيث اجتمع بعدد من المثقّفين من "تونكين" وآخرين من "أنام"، وغيرهم من الهند والصين، وكان يزاول عمله كمترجم في السفارة الروسيّة في "كانتون" تحت قيادة رئيسة منظّمة الجاسوسيّة الروسيّة في الصين "بورودين"، وقد عمل هو شي منه حسب مخطّط موسكو السياسيّ الذي قضى بالعمل من أجل الاستقلال الوطنيّ كمرحلة أولى، ومن ثمّ تحت تأثير هذه الموجة الثوريّة الوطنيّة يمكن للحركة الشيوعيّة أن تكتسب السلطة بالتدريج وتعمل

على توجيه هذه الشعوب البسيطة، أي أنّ قيام الثورة الوطنيّة هو مرحلة أوليّة يليها بعد ذلك مباشرة قيام الثورة الاجتماعيّة.

إذن، فقد شهدت "كانتون" تشكيل نواة الثورة التي ستعمل على قلب السلطة الفرنسيّة في الهند الصينيّة، وانقضى بعد ذلك ثلاثون عامًا حتّى تمّ تحقيق هذا الأمر. ففي عام ١٩٣١ لم يكن تعداد الحزب الشيوعيّ في الهند الصينيّة ليزيد عن ١,٥٠٠ عضو، ولكن كان من بينهم عدد كبير من الأقحاح، وعند انتهاء الحرب العالميّة الثانية أصبحت قوّة المدّ الثوري قادرة على شنّ حرب ضروس ضدّ فرنسا.

يتحدّث الشيوعيّون في الهند الصينيّة عن هو شي منه كرجل له صفات لينين الثوريّة، وكفاءة نابوليون العسكريّة، بينما لا ترى فيه فرنسا إلاّ رجلاً حمل إلى بلاده لونًا حديثًا من ألوان الاستعمار الأحمر...

تتالت الأحداث بسرعة مذهلة بعد أن تمكّن الجواسيس من إرسال التقارير عن مقرّرات مجلس الدفاع في باريس إلى هو شي منه، وتجاهلت فرنسا التي كانت في يوم من الأيّام أمّة ثورة مشاعر ورغبات سكّان مستعمراتها، فحملت لواء مقاومة الثورة عوضًا عن مدّ يد التعاون إليهم، وقد دفعت ثمنًا لذلك سيلاً من دماء أبنائها[1]...

١ ـ سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥) ص٥٧ ـ ٧٠؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص٩٥ ـ ١١١.

دَورُ المُخَابَرات في اغتِيَال المهدي بِن بَركة

لعلّ من أبشع جرائم العصر، التي هزّت الضمير العالميّ، وظلّت أنباؤها تحتلّ عناوين الصفحات الأولى لكبريات صحف العالم، جريمة اختطاف الزعيم المغربيّ "المهدي بن بركة" من شارع "سان جرمان" في باريس، ظهر يوم الجمعة في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٥، بتدبير من الجنرال "محمّد أوفقير" وزير داخليّة المغرب، والكولونيل "أحمد الدليمي" مساعده، بالتعاون مع المخابرات الفرنسيّة والأميركيّة والصهيونيّة والمغربيّة، حيث نُقل إلى مكان ما في إحدى ضواحي باريس، وخُنق وقُطّع إربًا إربًا...

وُلد المهدي بن بركة في الرباط سنة ١٩٢٠، وكان طوال مدّة دراسته من أنبغ الطلاّب في جميع الموادّ، وخصوصًا في مادّة الرياضيّات. وعلى أثر حوادث المطالبة بالاستقلال سنة ١٩٤٤، اعتُقل المهدي بن بركة لأوّل مرّة من جانب السلطات الفرنسيّة.

يرجع نشاط المهدي بن بركة في الحياة السياسيّة إلى الوقت الذي انضمّ فيه إلى العمّال الوطنيّين سنة ١٩٤٣. وشارك في تأسيس جمعيّة الرباط الوطنيّة الثقافيّة، التي منعتها السلطات الفرنسيّة سنة ١٩٤٤. إضافة إلى أنّه كان على رأس من حرّروا وثيقة ١١ كانون الثاني ـ يناير ١٩٤٤، والتي تطالب باستقلال المغرب.

بعد خروجه من السجن، تحمّل مسؤوليّة الكتابة الإداريّة للجنة التنفيذيّة لحزب الاستقلال، ومن ثمّ أصبح عضوًا في اللجنة التنفيذيّة.

في ٢٨ شباط ـ فبراير ١٩٥١، اعتُقل المهدي بن بركة مرّة أخرى، ونُفي إلى الجنوب المغربيّ حيث بقي منفيًا حتّى تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٤. وبعد إطلاق سراحه لعب المهدي دورًا بارزًا في نشاط الطبقة العاملة المغربيّة. وهذا الدور هو الذي أسفر عن تأسيس المنظّمة العمّاليّة المغربيّة "الإتّحاد المغربيّ للشغل" في ٢٠ آب أغسطس ١٩٥٥. وفي الشهر نفسه، وأثناء مفاوضات "إيكس ليبان" التي نظّمتها الحكومة الفرنسيّة، تلك المفاوضات التي أسفرت عن استقلال المغرب، شارك المهدي بن بركة في الوفد الذي شكّله حزب الاستقلال لهذه المفاوضات بالإضافة إلى عبد الرحيم بو عيد، ومحمّد البزيدي، وعمر بن عبد الجليل، ومحمّد بو ستّة.

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٦، انتُخب المهدي بن بركة رئيسًا للمجلس الوطنيّ الاستشاريّ، وظلّ رئيسًا له حتّى حلّ المجلس سنة ١٩٥٩.

في سنة ١٩٥٦، تولّى المهدي بن بركة الإشراف على مجلّة الاستقلال الأسبوعيّة، التي تصدر باللغة الفرنسيّة، حيث عُرفت هذه المجلّة بأنّها الصوت الثوريّ للجناح التقدّمي داخل حزب الاستقلال.

وفي سنة ١٩٥٨، بعث المهدي برقيّة إلى المؤتمر الأفريقيّ الآسيويّ بالرغم من معارضة قيادة حزب الاستقلال، عبّرت عن الاختيارات التي يطمح إليها الجناح اليساريّ داخل الحزب.

في ٢٥ كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٥، استطاع الجناح اليساريّ بمشاركة المهدي بن بركة الفعّالة تأسيس "الاتّحاد الوطنيّ للقوى الشعبيّة"، كما كانت طاقاته موضع تقدير عالميّ من قبل الطلائع الثوريّة في العالم الثالث، لذلك فقد اختارته هيئات منظّمة تضامن شعوب القارّات الثلاث ومقرّها "هافانا" ليكون سكرتيرًا لها. ومن المؤسف أنّ

أيدي الغدر امتدّت لتنتزع روحه الثائرة، قبل أن يُتاح له احتلال هذا المنصب العالميّ المرموق الذي رشّح له.

بعد المؤامرة الأولى ضدّ "الاتّحاد الوطنيّ للقوى الشعبيّة" والمقاومة وجيش التحرير واعتقال المناضل محمّد البصريّ وعبد الرحمن اليوسفي، اضطرّ المهدي بن بركة للبقاء خارج المغرب، وأصبح الناطق الرسميّ للحزب في المحافل الدوليّة، وأخذ يوثّق الصلات بين الحزب والحركات الثوريّة في العالم.

في خريف سنة ١٩٦٣، حُكم عليه بالإعدام من قبل السلطات المغربيّة. وفي ١٤ آذار ـ مارس ١٩٦٤، حُكم عليه بالإعدام مرّة ثانية، ما اضطرّه للبقاء خارج وطنه، حتّى كانت عمليّة الاختطاف التي قام بها عدد كبير من عناصر وقياديّي المخابرات المغربيّة والفرنسيّة والأميركيّة والصهيونيّة، نظرًا لأهميّة المناضل المهديّ بن بركة وخطره على الاستعمار والإمبرياليّة ككلّ.

كان الكولونيل المغربي أحمد الدليمي أحد كبار المتّهمين الرئيسيّين في عمليّة الاختطاف. التحق بسلك الشرطة المغربيّة في آب ـ أغسطس ١٩٥٥ بعد أن تخرّج من مدرسة جنود المظلاّت. وقد كُلّف الدليمي بأن يكون المسؤول عن تنظيم التعاون مع المجموعة الأميركيّة من أجل إنشاء جهاز خاصّ للأجانب... ويقوم هذا الجهاز بتدريب الكوادر اللازمة لعمليّات التسلّل إلى السفارة الأميركيّة بالرباط، ومعرفة التنظيمات النقابيّة والسياسيّة والدبلوماسيّة في الشرق العربيّ. وعلاقة الدليمي بالمخابرات الأميركيّة تبدأ بعلاقته الشخصيّة مع المستر "بدوني" الذي كان يعمل لصالح المخابرات الأميركيّة في المغرب، ويتكلّم اللغة العربيّة واللهجة المغربيّة المحكيّة، ويعرف المغرب شبرًا شبرًا. وكان يتلقّى تعليماته من المستر "هار" الذي يعمل بالسفارة الأميركيّة في الرباط،

وعرف عنه أنّه حلقة وصل بين فرع الوكالة في المغرب والمركز الرئيسيّ لها في الولايات المتّحدة.

زُوّد أحمد الدليمي من المخابرات الأميركيّة بأشهر خبير أميركيّ في التسجيلات السريّة وأدوات الجاسوسيّة وهو المستر "ويتس". وفي مجال تخطيطاته لعمليّة اختطاف المهدي بن بركة، فإنّه قدم إلى باريس قبل ثمانية أشهر برفقة المدعو "العربي الشتوكي" الذي يشغل مركزًا مهمًّا في الاستخبارات المغربيّة، وذلك لتحضير عمليّة الاختطاف. وقد اجتمع مع بعض أصدقائه الفرنسيّين حيث نزل في فندق الإليزيه في الغرفة رقم ٥٥، واتّصل بالمتّهم "فيليب لومارشان" بباريس، وهو نائب في البرلمان الفرنسي عن دائرة ليون.

وصل أحمد الدليمي إلى باريس في ٣٠ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٥، أي بعد يوم واحد من اختطاف المهديّ، حيث استقبله المتّهم "أنطوان لوبيز"، في مطار أورلي. واستأجر له سيّارة يقودها سائق جزائري أوصلته إلى فيلاّ يُحتجز فيها المهدي بن بركة.

الواقع أنّ أحمد الدليمي عريق في الإجرام، وخاصّة مع عناصر جيش التحرير المغربيّ الذي كان يخوض الكفاح ضدّ الاستعمار الإسبانيّ في الصحراء المغربيّة المحتلّة. كما قام بتعذيب المناضلين الاتّحاديّين شخصيًّا، وعلى رأسهم الشهيد "عمر دهكون" سنة ١٩٧٣.

إلى جانب الكولونيل الدليمي وأوفقير، هناك "الغالي الماحي" الذي ينتحل صفة طالب مغربيّ في باريس مسجّل في قسم التجارة بالجامعة الفرنسيّة، وكان يقوم بدور الوسيط بين الدليمي وأنطوان لوبيز. وكذلك السيّد "الحسيني"، عميل الاستخبارات المغربيّة، ومساعد الكولونيل الدليمي، وهو ممرّض مكلّف بالتخدير في الفرق الخاصّة

التابعة للشرطة المغربيّة. وقد رافقه الدليمي منذ وصوله من جنيف إلى فيلاّ "فونتاي لي فيكونت". كما لعب العربي الشتوكي دورًا رئيسيًا في إعداد خطّة الخطف والاغتيال مع الكولونيل الدليمي، وباعتراف المتّهم الغالي الماحي في مطار أورلي يوم ٣٠ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٥ بعد عمليّة اختطاف المهدي لاستقبال الجنرال أوفقير والكولونيل الدليمي.

إضافة إلى كلّ هؤلاء، فقد كان هناك "عشاشي عبد الحق"، و"الصقلّي سعيد" الذي كان يتولّى مهمّة تمويل العملاء المشاركين في العمليّة، وهو صديق الجنرال أوفقير. وكذلك مساعد الجنرال محمّد أوفقير، وزير الداخليّة، للعمليّات السريّة "إيلي ترجمان"، وهو يهوديّ مغربيّ يحمل الجنسيّتين المغربيّة والإسرائيليّة. وهو الذي فاتح المتّهم "فيليب لو مارشان" و"جورج فيغون" و"أنطوان لوبيز" في موضوع الاختطاف. والصهيوني إيلي ترجمان يعمل ضمن سكرتاريا الحكومة ومكلّف بالعلاقات الخارجيّة مع باقي العملاء للمخابرات الجاسوسيّة للولايات المتّحدة الأميركيّة والإسرائيليّة ويدير هذا المكتب.

أمّا في ما يتعلّق بالمشتركين الآخرين الذين يحملون جنسيّات أجنبيّة فمنهم: "أنطوان لوبيز" وهو فرنسيّ الجنسيّة من مواليد ١٩١٣، وهو المتّهم الأول في هذه الجريمة، وهو عميل المخابرات الفرنسيّة، وقد سبق له أن شغل منصب مدير مطار طنجة المغربيّ. وهو الذي أعطى الإشارة للمخابرات الفرنسيّة بالتنسيق مع المخابرات المغربيّة، بحكم هذا المنصب، لكي تُختطف طائرة الزعماء الجزائريّين وهم في طريقهم إلى تونس أثناء حرب الاستقلال الجزائريّة، وكان من بينهم "أحمد بن بلاّ". وفي سنة ١٩٦١، رُقّي إلى منصب كبير في شركة الخطوط الجويّة الفرنسيّة في مطار أورلي بباريس. وبحكم منصبه في المطار أصبح لوبيز وكيلاً للعديد من وزراء

المغرب يقدّم لهم التسهيلات والخدمات. كما تأكّد أمام قاضي التحقيق أنّه يعتبر نفسه مرؤوسًا في هذه القضيّة لجهات عليا. علمًا بأنّ البوليس الفرنسيّ استطاع تحديد مكان الهاتف الذي استعمله يوم ٢٩ تشرين الأوّل ـ أكتوبر للاتّصال بالجنرال أوفقير في المغرب ليعلمه بنجاح عمليّة اختطاف المهدي بن بركة. وقد أطلقت الصحافة الفرنسيّة على أنطوان لوبيز لقب "المتّهم المراوغ". وصدر عفو عنه في أواخر عام ١٩٧١.

إلى جانب لوبيز، كان هناك المدعو "جورج بوشيس"، الذي كُلّف، كما يقول، بعمليّة الاختطاف من قبل رجل الأمن المغربيّ العربي الشتوكي.

إضافة إلى المتّهم "جورج فيغون" الذي قُتل في ١٧ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٥، على أيدي صحافيّ ألمانيّ غربيّ له علاقة بالاستخبارات الأميركيّة، في الوقت الذي أشيع فيه أنّه انتحر.

وكذلك الكولونيل "فانفيل"، ويدعى "مارسيل لوروا"، وهو رئيس مفرزة مكافحة الجاسوسيّة ورئيس أنطوان لوبيز المباشر. أعفي من منصبه في ١٨ كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٦، بعد افتضاح دور أجهزة الأمن في تدبير عمليّة الاختطاف، خصوصًا أنّه كان يعلم بأنّ الغرض من جرّ المهدي بن بركة إلى باريس هو التصفية الجسديّة.

كما أقيل الجنرال "جاكييه" أيضًا، وهو رئيس إدارة مكافحة الجاسوسيّة "سيدكو".

وتضيق الصفحات عن ذكر جميع الأسماء المجرمة في هذه القضيّة. ويبقى للصحافيّ "فيليب برنييه" الدور الكبير فيها، حيث كان رئيسًا للتحرير في مجلّة "إنترا" التي يملكها الجناح اليساري في الحزب الديغولي. وقد استُخدم كطعم لإحضار بن بركة إلى باريس. وكان قد اتّصل هاتفيًّا بالمهدي في ٢٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٥

عندما كان بن بركة في جنيف ٢٢ شارع دوفيفي. والصحافيّ برنييه صديق للمتّهم جورج فيغون، وهو مختصّ في شؤون المغرب حيث كان يتردّد على المهدي بن بركة منذ عدّة سنوات، وله علاقات مع رئيس الاستخبارات المغربيّة. وقد تمّ الاتّصال به عبر العربيّ الشتوكي بعد أن عرض عليه مبلغاً كبيرًا من المال لإحضار المهدي إلى باريس.

ويرجّح البعض أنّ قرارًا إسرائيليًّا نفّذه جهاز المخابرات الإسرائيليّة ـ الموساد بالتعاون مع جهات فرنسيّة رسميّة وغير رسميّة، كان وراء عمليّة اغتيال الزعيم المغربيّ.

فصحيفة "بول" العبريّة الصادرة في تلّ أبيب بتاريخ ١١ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٦، صدّرت صفحتها الأولى بعنوان مثير: "إسرائيليّون في مقتل بن بركة". وهذه ترجمة لأبرز ما تضمّنه المقال:

"إنّ شخصيّة كبيرة أقنعت بن بركة بأن يستقلّ الطائرة إلى باريس حيث قُتل. هذه الشخصيّة هي رجل أعمال سويسري، معروف جدًّا، عرض أن يموّل فيلمًا حول العالم الثالث، إنطلاقًا من سيناريو يكتبه المهدي بن بركة نفسه... رجل الأعمال هذا يتعاطى تجارة الأفلام السينمائيّة... وبما أنّ القضيّة ما تزال لغزًا فإنّنا نودّ أن نحتفظ باسمه... وكلّ ما يمكن أن يُقال عنه أنّه يهوديّ، ويُخشى عندما تنفجر القضيّة أن تتّخذ طابعًا عنصريًّا...

"وكما يقول فيليب فرنييه، أحد المشاركين في إخراج الفيلم، في شهادته التي أدلى بها أمام المحكمة، إنّ المهدي بن بركة عرف أنّ جهات إسرائيليّة أو أموالاً إسرائيليّة سوف تساعد على إنتاج الفيلم، ولمّا عرف تراجع عن الفكرة... إذ لم يكن واردًا أن يتعامل مع الإسرائيليّين."

والواقع أنّ "جورج فراجو"، كان هو ذاته مموّل ومخرج الفيلم السينمائيّ المزعوم "باستا"، الذي يصوّر نضال شعوب العالم الثالث بمناسبة انعقاد مؤتمر القارّات في هافانا في كانون الثاني - يناير ١٩٦٦.

هذا وقد انضمّ إلى عمليّة الاختطاف "لويس سوشون"، رئيس مفرزة مكافحة المخدّرات بناء على طلب المتّهم أنطوان لوبيز، وقد اعترف سوشون بذلك أمام المحكمة.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى تصريح الوزير الفرنسيّ السابق "بيار جولي" الذي قال في شهادة له أمام المحكمة: "إذا كانت المخابرات الإسرائيليّة أو الأميركيّة أو غيرهما تريد إخفاء بن بركة، فلا بدّ لها من أن تستعين بالمخابرات الفرنسيّة".

لقد دخل المهدي بن بركة التاريخ من بابه الواسع، مسجّلاً أنصع الصفحات في حياته الزاخرة بالنبوغ والعطاء والتفوّق. وليس مستغربًا أن يلاقي ما لاقاه على أيدي أعداء الإنسانيّة، وهو القائل:

"من واجب المناضل إمّا أن يكون واقفًا على قمّة جبل، إمّا ممدّدًا على تبن زنزانة مظلمة"[1]...

---

١ - الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٨٥) ١: ١٦٣ - ١٦٨؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص١١٢ - ١١٩.

التغلغل المخابراتي السوفياتي في فرنسا

بالرغم من العدد الضئيل من عملاء دائرة منظمة أمن الدولة السوفياتية KGB، الذين اكتشفوا في فرنسا، فإنّ، التغلغل السوفياتي في أراضيها كان في نفس مستوى النجاح الذي وصل إليه في انجلترا.

في عام ١٩٦٦، رُكِّزَ المركز الرئاسي التابع لحلف الـ NATO، في باريس، في قلب مركز الـ KGB.

وكان أحد الجواسيس السوفيات الذين تغلغلوا في قلب منظمة الأطلنطيق ويدعى جورج باك عضوًا منتدبًا في مدينة الجزائر في عام ١٩٤٤.

وكان جورج باك رئيسًا للمجلس ومستشارًا لعدة وزراء في الجمهورية الرابعة، وقد باشر تخصصه في مسائل الدفاع حوالي ١٩٥٨ حتى استطاع خلال السنوات الأربع التي تلت، التوصل إلى وثائق هامة وسرية، تهمّ الدفاع، وأركان الحرب العامة في القوات المسلحة ومعهد الدراسات العليا في وزارة الدفاع الوطنية، والمركز الرئاسي في الـ NATO.

وكان يلتقي كل خمسة عشر يومًا بضابطي الارتباط اللذين يعمل تحت إشرافهما: نيقولاي ليسينكو ثم فاسيلي فلاسوف في غابة "ميدون" وفي أماكن أخرى في المنطقة الباريسية ليسلمهما الوثائق الدقيقة. جدير بالذكر أنه وجدت بين تلك الوثائق وثيقة لمشروع NATO الكامل للدفاع في أوروبا الغربية.

ولم يُضع الضابطان أدنى فرصة للتأكيد لعميلهما على أن العمل الذي يؤديه إنما يؤثر تأثيرًا مباشرًا على السياسة السوفياتية.

وكان باك مغرورًا لدرجة جعلته يؤمن بأهميته، حتى أنه ادعى في ما بعد أنه كان له شرف التنبؤ بأن أزمة برلين سنة ١٩٦١، التي أدت إلى تشييد الجدار سوف تنتهي سِلْميًا.

"كانت الطرق الرئيسة مغلقة، والاتصالات الجويّة مهددة، وكان خروتشيف يتفحص طريقة التحضير الحربي للحلفاء. وفي تلك المرحلة، كان لي مقابلة مع مستشار السفارة، الذي كان في الواقع ضابط الارتباط في KGB، والذي كنت ألتقي به بين فترة وأخرى. وأخبرني أن حكومته مصممة على إنجاح سياستها. وأجبته بأن نفس التصميم موجود لدى الجهة الحليفة... ثم سألني إذا كان بإمكاني أن أحصل له على برهان خطي لكل ما قلته. وهنا فقط، ناولته الوثائق المتعلقة بالدفاع في برلين الغربية... وبعد انقضاء خمسة عشر يومًا، أعلمني أن تراجع خروتشيف يعود إلى المعلومات التي توصلت إليها. وقد تم ذلك العمل لأجل المحافظة على السلام"... وقد ادعى برؤية رسالة شخصية من خروتشيف.

وبالرغم من اقتناعه بالدور المميز الذي لعبه في هذه القضية، فإن باك لم يتبين عندما توصل إلى الوثائق السرية المتعلقة بالـ NATO، أن دائرة أمن KGB كانت قد ألحقت جاسوسًا جديدًا في خدمتها، في المركز الرئاسي نفسه، وكان ذلك الجاسوس، هوغ هامبلتون؛ وهو رجل اقتصاد كندي، كانت المخابرات السوفياتية بدأت تهتم به منذ عام ١٩٥١. وبدأت نشاطاته تتكثّف بين سنوات ١٩٧٥ و ١٩٦١.

جدير بالإشارة أن هامبلتون حصل على وثائق عديدة منذ الاتحاد الأطلنطيكي - بدءًا من المخططات والخرائط الحربية وانتهاءًا بالاحتياطات الاقتصادية - وسلمها إلى

ألكسي فيدوروفيتش تريشين، بحيث أنشأ المسؤول في المركز الذي كان يتولى الإدارة في باريس من عام ١٩٥٤ حتى ١٩٥٩، خلية خاصة لدراستها ومعالجتها، ولم يكن ذلك المسؤول سوى ميخائيل ستيبانوفيتش نسيمبال... المعروف باسم "روغوف". وظلت تلك الخلية موجودة خلال إقامة المدير اللاحق، أناتولي إيفانوفيتش لازاريف.

علاوة على ذلك، فإن سيارة نقل كبيرة ذات لون أسود، مجهزة بمختبر للتصوير الفوتوغرافي كانت تتوقف في أحيان كثيرة، على مسافة قريبة من هامبلتون وتريشين عندما كانا يلتقيان معًا، لتصوير المستندات والوثائق تصويرًا فوريًا.

واستمر هامبلتون في مهنة التجسس حوالي عشرين عامًا، وكان يسعد عندما يستمع إلى عبارات الإطراء من تريشين، الذي كان يحرص بين الفينة والفينة على مدحه والإشادة بعنفوانه وكبريائه؛ مما دفعه إلى الشعور بمشاعر الفخر والاعتزاز بنفسه، وكثيرًا ما كان تريشين يقول له بأن المعلومات التي تتضمنها الوثائق هي "من الذهب الصافي"، وأن تلك الوثائق "ثمينة للغاية"، وأن "أفراد البولتبيرو (المكتب السياسي السوفياتي) كانوا يقرأونها".

لم تسع الدنيا همبلتون جرّاء الفرحة حينما دعي لتناول العشاء، وحيدًا، مع رئيس مركز KGB، حيث تبادل معه الأحاديث عن قضايا العالم، وبالطبع فإن المدير يوري أندروبوف جعله يدرك كم أن المركز مدين له بالمعلومات والوثائق القيمة.

أما في فرنسا، فإن أنجح عملية تغلغل، خلال الحرب الباردة، قد تمت داخل وكالة الاستخبارات الخارجية، أي في مركز التوثيق الخارجي لمكافحة الجاسوسية (SDECE).

بعد تركه في عام ١٩٦١، شرح غوليستين أنّه كان تحت تصرّف الـ KGB في داخل الـ SDECE شبكة خاصة أطلق عليها اسمًا اصطلاحيًا رمزيًّا "الزفير"، وقد ساند مدير الـ PDG ساخاروفسكي، غوليستين، وحصل على الخطة الكاملة في عام ١٩٥٩ لإعادة تنظيم SDECE، التي فصلها مديرها بإتقان تام، وكان في ذلك الوقت بول غروسان.

وكان ساخاروفسكي يستلم بصورة نظامية نسخًا عن تقارير مركز التوثيق الخارجي لمكافحة الجاسوسية (SDECE).

وكانت المعلومات والتقارير التي حصل عليها غويستين صحيحة لدرجة جعلته يوحي فيها ببعض الأحداث للتوصل إلى توقيف "باك" في سنة ١٩٦٣ وإدانته.

وصرح أيضًا بأن دائرة KGB كانت على علم تام بمشاريع SDECE المتعلقة بإنشاء فرع لجمع المعلومات العلمية في الولايات المحدة؛ وبدأ ذلك الفرع يعمل في غضون صيف عام ١٩٦٢.

من ناحية ثانية فإنه لم تكن لدى غوليستين سوى معرفة خارجية بالعمليات التي تقوم بها دائرة KGB في فرنسا، كما أن معظم معلوماته كانت تبدو غير واضحة. حتى أن البراهين والدلائل التي قادت في النهاية إلى إلقاء القبض على باك، لم تؤد إلى شيء سوى تحديد عدد المشتبه بهم بسبعة أشخاص؛ وبناء على المراقبة المستمرة حول هؤلاء الأشخاص أصبح بالإمكان التعرف إلى هوية باك.

جدير بالذكر أن اتهامات غوليستين انتهت بالدخول إلى دوائر SDECE، وأصبح من المستحيل بعد ذلك، تنظيم مراقبة طويلة الأمد في ما يتعلق بباك.

وفي النهاية، أغضب التحقيق الذي جرى دوائر SDECE بعد التصريحات التي أدلى بها غوليستين (نفس الشيء حدث في الولايات المتحدة، حيث رأينا جيمس انغلتون

يشتبه به مدير الاستعلامات في الكتلة السوفياتية، دافيد مورفي ويتهمه بالخيانة، في CIA، وفي انجلترا حدث الأمر ذاته مع بيتر رايت وآخرين) الذين حولوا المدير العام في MI-5، السير روجيه هوليس، إلى الاستجواب!.

لا شك في أن الذين كانوا يرون الخونة في كل مكان، في فرنسا وفي الولايات المتحدة، كثيرًا ما كانوا يخطئون بالمشتبه بهم. فإن مصادر وثيقة الاطلاع في داخل دوائر مركز التوثيق الخارجي لمكافحة التجسس SDECE، تؤكد على أن أغلبية العاملين في شبكة "Saphir" قد جردوا من آلات دفاعهم، ووقعوا بين أيديهم، بيد أن "أضخم سمكة بينهم استطاعت أن تفلت من خيوط الشبكة". ولكن هذه العمليات جميعها لم تتعرض للمثول أمام القضاء.

غني عن القول إنه لم يتم في فرنسا اكتشاف جواسيس سوفيات على مستوى عال، ولا تصريحات ومعلومات عنيفة كما حدث في انكلترا والولايات المتحدة.

هذه الحالة لا تعكس فشلاً للتغلغل السوفياتي ولكن فشلاً فرنسيًا في الحصول على المعلومات.

هذا الفشل في حد ذاته يعود جزئيًا لغياب أجهزة "Venona" التي كانت في الأصل السبب المباشر لسقوط "الخمسة العظماء" في بريطانيا والجواسيس الذين كانوا يتجسسون على الأسلحة الذرية.

وكان من النتائج التي أفرزتها قضية باك، أن وسائل الاتصال في أجهزة "Venona" التي كانت تمتلكها فرنسا قد أعيد فحصها بدقة في منتصف سنوات الستينات في انكلترا والولايات المتحدة، ووصلت نتائجها إلى مركز مكافحة التجسس الفرنسي، في مديرية مراقبة القطر (DST).

وقد أوضحت تلك المصادر - بعد فوات الوقت - وجود مجموعة من الجواسيس السوفيات في قلب وزارة الدفاع الجوي قبل الحرب؛ وكان هؤلاء العملاء قد بدأوا بالتعامل في أعوام الثلاثينات حيث كان يشرف عليهم ويقود خطواتهم حتى هزيمة عام ١٩٤٠، المسؤول غير الشرعي في "الوكالة السوفياتية العسكرية الحربية GRU" هنري روبنسن.

تجدر الإشارة إلى أن أحد أعضاء الشبكة، العالِم أندريه لابارت (جيروم)، الذي غادر وزارة الدفاع الجوي في عام ١٩٣٨ ليصبح في ما بعد رئيس مجموعة مختبرات الأبحاث التابعة للدولة، كان أول من هُرع للانضمام إلى صفوف فرنسا الحرة في حزيران - يونيو ١٩٤٠ في لندن، ليخدم تحت أوامر الجنرال ديغول.

وأصبح لابارت خلال عدة أشهر، مدير التسلح لدى ديغول، ولكنه تخاصم مع المحيطين به، ثم استقال لكي يؤسس المجلة الشهرية التابعة للفرنسيين الأحرار والتي أسماها "فرنسا الحرة La France Libre" حيث كان يتم طبعها في لندن.

بعد تلك الحقبة أصبح مسؤولاً عن برامج إذاعة BBC الموجهة إلى فرنسا المحتلة. وفي لندن كان يمنح المعلومات السياسية والحربية لأحد المراقبين السوفيات المعروف باسم "ألبير". وفي عام ١٩٤٣، عينته حكومة الجزائر المؤقتة وزيرًا للاستعلامات.

أما جورج باك فقد عمل تحت إدارته مديرًا للعلاقات السياسية والقضايا السياسية في محطة الإذاعة. وبعد الحرب، عمل لابارت في الصحافة لأجل كسب العيش، في المجلتين الشهريتين، "كونستلاسيون"، و"العلم والحياة Science et Vie".

يدّعي بعض الخبراء الأخصائيين أن أجهزة "فينونا" قد أكدت بعض البراهين والمعلومات الصادرة في الصحف، وأن العميل السوفياتي الأكثر أهمية في قلب وزارة

الدفاع الجوية، ما قبل الحرب، لم يكن سوى بيار كوت، الذي كان وزيرًا للدفاع الجوي ست مرات، ووزيرًا للاقتصاد مرتين، في الحكومات المتعاقبة في الجمهورية الثالثة. وكان هذا الرديكالي ـ الاشتراكي الموجود خارج الحزب الشيوعي، المحامي الأكثر حماسًا وغيرة، لعقد اتحاد حربي ضيق مع الاتحاد السوفياتي.

ولعل ما يجدر التنويه به أن بعض أعضاء الصحافة قد اتهموه خلال الحرب الأهلية الإسبانية بأنه قد سلم الروس، بطريقة سرية، بعض عناصر تكنولوجيا سلاحهم، بالإضافة إلى بعض الوثائق عن الطيران.

وعند ترك كريفيتسكي في عام ١٩٣٧، فقد ذكر كوت كعميل سوفياتي، بيد أن تصريحاته أثارت في تلك المرحلة، قليلاً من الأهمية في فرنسا وفي الولايات المتحدة.

ومثل الكثيرين غيره من اليساريين في فرنسا، ضرب كوت بتوقيعه على الميثاق الألماني ـ السوفياتي، في آب ـ أغسطس ١٩٣٩، لكن هذا لم يمنعه من المطالبة جديًا باتحاد فرنكو ـ سوفياتي.

واستبعده ديغول عام ١٩٤٠، فاستقر في الولايات المتحدة حيث قام بأعمال جامعية ونشاطات دعائية لقضية الحلفاء.

قيل أيضًا بأنه أعيد توظيفه في عام ١٩٤٢ بواسطة المدير المقيم في (NKVD) كوميساريا الشعب في الداخل، و (NKGB) كوميساريا الشعب في أمن الدولة، في واشنطن، فاسيلي زوبيلين، (المعروف باسم زاروبين)، واستمر على اتصال معه ومع ضابط ارتباط آخر مدة السنتين اللتين تبعتا تلك المرحلة.

ثم سافر إلى الجزائر، في نهاية عام ١٩٤٣، ليعمل في الجمعية الاستشارية لفرنسا الحرة... ثم ذهب في شهر آذار ـ مارس عام ١٩٤٤ في مهمة إلى الاتحاد السوفياتي باسم الحكومة الموقتة.

ومما لا شك فيه، أن الإقامة لمدة ثلاثة أشهر في الاتحاد السوفياتي قد زادت من حماسه؛ فلم يتوقف عن الإشادة بستالين الذي، في رأيه، كان يحمل "هموم الإنسانية".

وهذا "الهم" في نظره، قد سمح للاتحاد السوفياتي بالخروج منتصرًا من الحرب، أكثر مما فعلت المقدرة العسكرية للجيش الأحمر.

وقد أنهى تقريره بهذه الكلمات:

"إن الحرية تنهار بلا شك تحت تأثير الرأسمالية، وتزدهر تحت حكم الاشتراكية".

علاوة على ذلك، فقد كان أحد خطباء الجمعية الوطنية، وكان يُعرف، بعد الحرب، بأنه "أحسن رفيق على طريق أوروبا". وقد لعب دورًا عظيمًا ورفيع الشأن في منظمات الجبهة السوفياتية ونال شرف الحصول على جائزة ستالين عام ١٩٥٣.

كانت الاستخبارات "فينونا" المتعلقة بلابارت كوت وغيرهما.. والمعلومات التي جمعت بعد التحقيقات التي أجريت في ما بعد عقيمة، بحيث أنها لم تؤد إلى أيّ فائدة عملية نظرًا لوصولها متأخرة جدًا، أي بعد فوات الأوان.

واعترف لابارت عندما حققت معه دائرة المراقبة المحليَّة ضد التجسس الفرنسي DST.

بالنسبة لكوت.. كانت القضية شائكة وأكثر تعقيدًا: فقد دخلت مهنته السياسية الطويلة الأمد، وتقدمه في العمر في صراع مع النسيان... لذلك تركوه يموت بسلام.

وتظل قصة التغلغل السوفياتي في فرنسا بطريقة مفصلة بحاجة إلى دراسة لأجل الكتابة عنها[١].

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٤٩٦ ـ ٥٠٢.

الإستخبارات الألمانية

هنريش هملر

كان "هنريش هملر" من أعضاء الحزب النازي الألمانيّ، وكان من أهمّ أعوان "أدولف هتلر". وفي عام ١٩٢٩ كان قائدًا لتنظيم "العاصفة" الذي تولّى مسؤوليّة الحرس الخاصّ للزعيم النازي هتلر. وعاصر هملر بداية تكوين الحزب النازيّ الذي بدأ صغيرًا محدود العدد، حيث بدأ الاعلان عن أفكار "النظريّة الآريّة" وسيادة الألمان على العالم، وفتحت أبواب الحزب لاستيعاب الآلاف من العناصر الشابّة المحبطة التي كانت تبحث عن تحقيق انتصارات معنويّة لالمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالميّة الأولى، حيث أشرف هنريش هملر على تكوين مليشيات "القمصان السوداء" المسلّحة و"قوّات العاصفة" التي قامت بالكثير من الأعمال التخريبيّة قبل وصول الحزب النازيّ للسلطة وإجبار مئات الألوف من أبناء الشعب الألماني على إعلان ولائهم لهتلر، كما استطاع تصفية المعارضين للحكم النازيّ... فقد أنشأ معسكرات الاعتقال الرهيبة التي كانت مقرًا للتعذيب حتّى الموت... بالإضافة إلى التجويع وإجراء التجارب على اجساد المعتقلين الأحياء...

قاد هملر جهاز "الغستابو"، وهو "جهاز الأمن الداخليّ" الذي من مهمّاته إبادة أي صوت معارض لسلطة الحزب النازيّ ومكافحة عملاء المخابرات الأجنبيّة المندسّة داخل الدولة الألمانيّة... وقد تجاوز "الغستابو" في وسائل التعذيب والارهاب والقسوة كافّة الأجهزة الأمنيّة في العالم، ممّا جعله جهازًا رهيبًا يثير الرعب في قلوب العناصر التي تناهض النازيّة... وقد كلّف هلمر مجموعة من العناصر النشطة من أعوانه في الحزب النازيّ بإدارة حلقات ودوائر وشعب جهاز "الغستابو"، وكان هؤلاء على درجة متطرّفة من القسوة والعنف والقدرة على التعامل وفقًا للأساليب الإرهابيّة التي وضعها هملر... لذلك أصبح جهاز "الغستابو" المنتشر في كلّ ألمانيا يسير على نفس المنهج الإرهابيّ في تنافس مستمر بمجال تطبيق أساليب العنف والقسوة.

أتاح هلمر من خلال إقامة معسكرات الاعتقال الفرص للعلماء الألمان النازيّين لإجراء تجاربهم على المعتقلين، بما في ذلك تجارب الأثر التدميريّ للمتفجّرات التي كانت تُقذف على الأسرى والمعتقلين الأحياء، لمعرفة مدى مفعولها... ويُتّهم هملر بإقامة معسكرات الاعتقال لليهود، إضافة إلى ما نُسب إليه وإلى أعوانه من إشراف على مواقد وأفران إحراق بعضهم أحياء، باعتبار أنّهم "بشر لا فائدة منهم"، ما أعطى مساحة واسعة للصهيونيّة لتقوم بحملة دعائيّة عالميّة سوداء للتعاطف مع الحركة الصهيونيّة، والإستفادة من هذه الحملة في عمليّة احتلال أرض فلسطين حيث بات المحتلّون يمارسون أساليب التعذيب والإبادة...

كانت العقيدة التي جعلت "هملر يقود جهاز "الغستابو" الرهيب لنشر الرعب والهلع والفزع في نفوس كلّ المعارضين للنازيّة، قناعته التامّة بالفكرة العنصريّة النازيّة، وتفوّق الجنس الآرّي، حتّى وُصف بالجنون لشدّة إصراره على إبادة أيّ صاحب رأي معارض لألمانيا النازيّة... كما أصبح هملر عرّابًا لأجهزة الأمن والاستخبارات الفاشيّة

فـي كافّـة أنحـاء العـالم، التـي سـارعت باسـتقطاب أصحـاب الخـبرة والتجربـة بجهــاز "الغستابو" بعد هزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥ في الحـرب العالميـة الثانيّـة. وبـالرغم مـن أنّ اليهود الاسرائيليّين يكرهون هنريش هملر، إلاّ أنّهم معجبون جدًّا بأساليبه فـي التعذيـب والإرهـاب... ويعتـبر بـاحثون أنّ جهـاز الموسـاد الصهيونـيّ يمثّـل نسـخة مـن جهــاز "الغستابو" في معاملته لعناصر المقاومة الفلسطينية وممارسـة عمليـات الخطـف والقتـل والاعتقال والتعذيب[١].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٧٠ ـ ٧٢.

الغستابو

أنشئ جهاز "الغستابو" في برلين عام ١٩٣٣ في عهد الحكم النازي الهتلريّ، وأُعطي صلاحيّات جعلت اسمه يبعث الرعب في النفوس. فقد كان آلة للموت والدمار والبطش والتعذيب، وكان كافّة الألمان، سواء كانوا من المؤيّدين للنازيّة أو المعارضين لها، يرتعبون من هذا الإسم.

كان لـ"هنريش هملر"، الذي كلّفه أدولف هتلر برئاسة جهاز "الغستابو"، مساعدون مختارون بعناية، لا يقلّون عنه قسوة وبطشًا، فقد كان الغستابو ينقضّ على المشتبه فيهم لإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال، كما كان يقوم بعمليّات القتل بالجملة، فقد كان أسلوب القمع والرعب النازيّ في مواجهة المعارضين السياسيّين يتمّ بوسائل لا يمكن أن تسمح بها قوانين أيّ دولة ديمقراطيّة.

كانت الفكرة النازيّة تنطلق من مفهوم "التفرّد القوميّ" و"التفوّق العرقيّ". وحدّد الحزب النازيّ الألمانيّ بزعامة أدولف هتلر استراتيجيّة لحكم العالم، ولا سبيل لذلك إلاّ من خلال البدء بعمليّة غزو عسكريّ للدول الأخرى... وتمّ تنفيذ هذا البرنامج الذي حقّق في بدايته نجاحات لافتة، حيث استطاعت ألمانيا أن تهزم العديد من جيوش أوروبّا وتنطلق نحو آسيا وأفريقيا... وقد وجد الحزب النازيّ صدى في كثير من الدول المستعمَرة ومن العديد من قادة الأحزاب السياسيّة الذين كانوا يحاربون

الاستعمار الأوروبي الإيطاليّ والفرنسيّ والبريطانيّ والبلجيكيّ والبرتغاليّ لبلادهم، وكانوا يعتقدون بأن النازيّة سوف تحررهم عندما تهزم جيوش تلك الدول.

في البداية، وفي داخل ألمانيا، واجه "الغستابو" أعضاء الحزب الشيوعيّ الألمانيّ بقسوة وشراسة وعنف، واعتقل منهم الكثير وأرسلهم لمعسكرات الاعتقال، كما اغتال العديد من قيادات الحزب الشيوعيّ... وتمّ إجراء تجارب علميّة على العديد من الشيوعيّين المعتقلين ممّا أدّى لوفاتهم... كما تصدّى الغستابو لكلّ ما هو غير نازيّ وأصبحت مهمّته الدفاع عن النازيّة ضد أعدائها، واكتشاف المؤامرات التي كانت تستهدف حياة هتلر، ومتابعة جواسيس دول الحلفاء واعدامهم... كذلك الأمر بالنسبة لأي من العناصر المشتبه بهم... وكان أسلوب "الغستابو" يعتمد على تنفيذ عمليّات الإعدام بدون إجراء محاكمة... وكان الجهاز يضمّ عناصر من الشباب على قناعة تامّة بالأفكار العنصريّة النازيّة، وعلى درجة عالية من التعبئة السياسيّة، يتنافسون في ما بينهم حول مدى استعمالهم لأساليب العنف والقسوة المبتكرة ضدّ كلّ من يحاول معارضة الفكرة النازيّة، وسط تشجيع ودعم معنويّ من قيادة الدولة النازيّة التي استطاعت أن تحدث واحدة من أكبر عمليّات "غسيل المخّ" في التاريخ المعاصر، بطرحها أكذوبة عرقيّة لتوحيد أكبر عدد ممكن من الشعب الألمانيّ حولها، لذا فقد كان الولاء لجهاز "الغستابو" يستند في ظاهره على القناعة التامّة بفكرة سيادة الجنس "الآرّي" على العالم.

يعتبر جهاز "الغستابو" المسؤول عن اندلاع الحرب العالميّة الثانية حيث تمّ تنفيذ خطة تعتمد على التضليل والخداع على الحدود البولندية عندما تمّ الاستعانة بعدد من السجناء المحكوم عليهم بجرائم مختلفة، وجرى حقنهم بمادّة مخدّرة، واستُبدلت ثيابهم بثياب عسكريّة بولنديّة، ووضعت في أيديهم أسلحة بولنديّة، وأُطلقت النار عليهم على

الحدود الألمانيّة ـ البولنديّة... وبدأت الآلة الإعلاميّة الألمانيّـة تنشر أخبـارًا عن غزو واعتداء عسكريّ بولنديّ على الأراضي الألمانيّة، وظهـرت تلك الجثث كشاهد علـى تلك الأحداث، فتمّت بذلـك تعبئـة الـرأي العـام الشـعبيّ لصـالح الحكومـة النازيّـة للقيام بواجبها للدفاع عن ألمانيا... ودبّر "الغستابو" حادث اعتداء بواسطة أحـد ضباطـه علـى إذاعة ألمانيّة في مدينة حدوديّة مع بولندا، حيث تـمّ إطـلاق الرصـاص واحتـلال مبنـى الإذاعة الصغـير، وإذاعـة خطـاب أعدّتـه المخـابرات الألمانيّـة يكيـل الشـتائم والسباب والإهانة الجارحة والتهديدات للحكومة الألمانيّة... كلّ ذلك بعد قتـل عـدد مـن السـجناء الذين تم تجنيدهم للمشاركة فـي هـذه العمليـة بعـد أن ارتـدوا ملابـس الجيـش البولنـدي باعتبارها عملية اعتداء صارخة ضد ألمانيا... خصوصًا وأنّ هناك كثيرًا مـن الصـور التي التقطت للسـجناء بعـد قتلهـم بواسـطة "الغسـتابو" كدليـل للإعتـداء العسـكري علـى الإذاعة... ومن ثمّ اكتسح الجيش الألمانيّ بولندا بعـد أن حصـل علـى المـبرّر العدائـيّ الوهميّ الذي دبّره بحنكة ومكر جهـاز "الغسـتابو" لإتهـام بولنـدا بأنّهـا هـي التـي بـدأت بالعدوان، حيث بدأت أحداث الحرب العالمية الثانية تتوالى.

لقد أوكل جهاز "الغستابو" عمليّات التعذيب للعديد من قياداته التي تتمتّع بالصرامـة والقسوة الشديدة، فقد كان "فون براون" المسؤول عن معسكر "دورا" للإعتقال الجماعي يستغلّ أعمال السخرة التي كان يقوم بها النزلاء ويباشر معهـم عمليّـات التعذيـب حتـى الموت من جرّاء الاجهاد والتجويع، حيث كان فـي معسـكر الاعتقـال حوالـي ٢٠ ألـف شخص، وكان "ريخكي" مراقب عمّال السخرة، يعلّق كلّ أثني عشر معتقـل فـي رافعـة بعد أن يغلق أفواههم بعصا خشبية لكتم صراخهم... وكان يأمر جنوده بضرب الـنزلاء بالهراوات حتى الموت بشكل مستمرّ لإدخال حالات الهلع والفزع والخوف الشديد فـي نفوس باقي المعتقلين... وكانت معسكرات الاعتقال تمدّ المعامل ومراكز البحوث بعـدد

كبير من النزلاء لإجراء التجارب عليهم... والتي كانت في السابق، وفق السياق العلميّ، تُجرى على الفئران وباقي الحيوانات... ذلك لقناعتهم بأنّ غير النازيّين يمكن اعتبارهم كسائر الحيوانات... لذا فقد ارتُكب كثير من الفظائع والجرائم ضدّ الإنسانيّة بإدّعاء خدمة العِلم...

فقد أجريت تجارب بشريّة على استعمال إبر طويلة لاستخراج أنسجة الكبد دون تخدير، بغرض إجراء الاختبارات، حيث مات كل من أجريت عليهم تلك التجارب... وأجريت اختبارات على أربعين شخصًا من المعتقلين لدراسة حالة الغرق في ماء البحر بإدخال الماء المالح عنوة في حلوقهم من خلال أنابيب... ووُضع ثمانون شخصًا في غرفة ضغط منخفض تحاكي ارتفاع ٧٠ ألف قدم بلا أوكسجين وقد ماتوا جميعًا حيث كانت تتمّ عملية شقّ رؤوسهم كي تفحص الأوعية الدمويّة التي انفجرت بسبب انسدادها... وقد كان أطبّاء معسكر "ماخوا" يقتلون الأسرى بإخضاعهم لاختبار التجميد وإعطائهم جرعات كبيرة من الماء المالح...

وتوسّع مهندسو الأسلحة الكيميائيّة مثل "كورت بلومه" في إجراء تجاربهم على البشر حيث أدت عمليّات تجارب غاز الأعصاب "سارين" إلى موت الكثير من الأسرى... ولم تنجُ النساء الأسيرات من فظاعة ووحشيّة الممارسات النازيّة... فكان الأطباء يزيدون من جراح الأسيرات المصابات في ساحة القتال بملئ جراحهن بجراثيم "الغرغرينا" ونشارة الخشب وغاز الخردل والزجاج، ثمّ تتمّ خياطة الجروح ليعرفوا كم من الزمن استغرقتها عمليّة الموت بسبب "الغرغرينا"... كما كانوا يستخدمون العقاقير التي تحثّ على الكلام... والصدمات الكهربائيّة، والتنويم المغناطيسي، وجراحة المخّ... وقد أُجري العديد من التجارب على أسرى الحرب في معمل الحرب الكيميائيّة والبيولوجيّة الألماني لاختبار مدى فعاليّة الأسلحة الكيميائيّة والبيولوجيّة، وراح ضحيّة

هذه التجارب عدد كبير من أسرى قوّات الحلفاء، خصوصًا في تجارب المتفجرات التي أجريت على البشر.

كان جهاز شرطة الأمن الداخليّ الألمانيّ "الغستابو" يتمتّع بحريّة العمل بلا قيود دفاعًا عن الحكم النازيّ. وكانت تجري العمليّات المباشرة للتصفية الجسديّة على كلّ من يعارض النظام الهتلريّ أو يكون موضع شكّ... وكانت معسكرات الاعتقال هي بمثابة الحكم البطيء بالموت على من لا ينفّذ فيهم القتل الفوريّ، فقد صدر مرسوم في ٩ آذار - مارس ١٩٣٣ ينصّ على تنفيذ حكم الموت بمن يعمل من أجل قلب نظام الحكم وتغيير السلطة... ولتطبيق هذا المرسوم تمّ تجميد وإلغاء كافّة الحريّات السياسيّة، والحدّ من الحريّات الشخصيّة والعامّة... فقد مُنع حقّ إبداء الرأي والإجتماع والتنظيم... ووُضعت الرقابة على المطبوعات والمراسلات والمكالمات الهاتفيّة والتنقّل، وأصبحت المساكن وأماكن العمل عرضة للاقتحام والتفتيش... وصارت تُنفّذ عقوبة مصادرة الممتلكات بشكل فوريّ... وبدأت حملات واسعة للاعتقالات والمطاردات لتصفية كافّة الخصوم السياسيّين والتفرّد تمامًا بالحكم لصالح السلطة النازيّة، وفرض على الجميع ترداد نشيد "ألمانيا فوق الجميع".

يُعتبر ما أقدم على ارتكابه جهاز "الغستابو" من جرائم أقصى ما يمكن أن يحصل وفقًا لمخالفة الشرائع والقوانين وتنفيذ الأساليب القذرة من أجل الحفاظ على النظام السياسيّ الحاكم، ودعمه من خلال التوسّع في أعمال الإعتداء على الدول الأخرى واحتلالها باستعمال القوّة المسلّحة... إلا أن تلك المساندة لم تمكّن السلطة النازيّة من البقاء في الحكم حيث انهزمت جيوشها وانهارت دولتها وبدأت أكبر عمليّة مطاردة في ذلك الوقت للذين يطلق عليهم "أركان النازيّة" من مختلف القطاعات، وكما قُسّمت ألمانيا تمّ تقسيم وتوزيع علماء وخبراء الدولة النازيّة على دول الحلفاء المنتصرين

للاستفادة من خبراتهم ودراساتهم وتجاربهم بعد أن قُدّم نموذج منهم للمحاكمة في "تورنبورغ" وسرقة واختطاف الآخرين بواسطة المخابرات الأميركيّة والسوفياتيّة والبريطانيّة وغيرها.

وبعد الحرب أنشأ الحلفاء معسكرًا للاعتقال أطلق عليه اسم معسكر "صفيحة القمامة"، كان يضمّ عناصر الغستابو وخبراء الذخيرة والفنيّين والعلماء وموادّ أبحاثهم، إلى جانب العلماء الفرنسيّين الذين كانوا يتعاونون مع النازيّين، وكان يتمّ ترحيلهم إلى أميركا بمنحهم تصاريح سفر لدخولها... كما استطاعت المخابرات الروسيّة ترحيل أكثر من ثلاثة آلاف عالم وباحث وعنصر من عناصر الغستابو إلى الاتحاد السوفياتيّ، بعد أن تمّ الاستيلاء على كافّة المعلومات السريّة والخاصّة بعملاء الغستابو في أوروبّا. وفي معسكرات الإعتقال تمكّن الناجون اليهود من معاقبة النازيّين الألمان بقتلهم بالجملة وتجويعهم والتنكيل بهم انتقامًا لمعاملتهم السابقة ليهود ألمانيا، كما وضعت قائمة لمطاردة مجرمي الحرب... وتدخّلت المخابرات الأميركية في إخفاء وتخفيف الأحكام وعدم تقديم بيانات الإدانة ضدّ الكثير منهم، وقد قامت باستيعابهم لمواصلة تجاربهم داخل أميركا.

بالرغم من الاستنكار العام لتجربة جهاز "الغستابو"، إلا أن كثيرًا من الأنظمة الفاشيّة القائمة، مثل النظام الإسرائيليّ، يعتمد الأساليب القمعية التي كانت سائدة أثناء السلطة النازية.. وقد عمل بعض الأنظمة على تطوير تلك الأساليب، وخصوصًا في الجانب المعنويّ، كمثل ترسيخ ربط الدولة العبريّة بالعقيدة اليهودية، حيث "لا بدّ من ضرورة إيجاد دولة أرض الميعاد لشعب الله المختار"... وحيث تتمّ المتاجرة والمزايدات حول ما هو مزعوم من مذابح اليهود أيّام الحكم النازيّ، وما زالت تستخدم الأساليب القمعيّة والإرهابيّة المستمدّة من أساليب "الغستابو" تجاه عناصر المقاومة

الفلسطينيّة والشعب العربيّ الفلسطينيّ حيث تُعتبر الأجهزة الاستخباريّة الإسرائيلية في قسوتها وعنفها امتدادًا لجهاز الغستابو النازيّ.

وتعتمد الأنظمة الشموليّة والأمبراطوريّة بكافّة أشكالها على نظام الحماية الأمنيّة التي وفّرها الغستابو للنظام النازيّ الألمانيّ، وتستقطب خبراء من أجهزة المخابرات العالميّة المنتمين لمدرسة "التشيكا" و"الغستابو" "والموساد" لتدريب عناصرها الأمنيّة والتفنن في تعذيب شعوبها وتخويفهم وإرهابهم وإثارة الرعب والفزع في نفوسهم إذا ما حاولوا مقاومة النظام القائم أو الدعوة لتغييره أو حتى النصح بإصلاحه... وقوائم التصفيات الجسديّة تتحدّث عن إرهاب الدول التقليديّة... وقد تنتهي صلاحيّات الأجهزة الأمنيّة الفاشية مثل الغستابو وغيرها في موطن نشأتها بإنهيار النظام الحاكم التي كانت تقوم بحمايته والدفاع عنه لأي من الأسباب، إلاّ أن تجاربها سرعان ما تُلتقط وتُستوعب لتتغذى بها أجهزة إرهابيّة وليدة لتكون امتدادًا لممارسات الإرهاب ولأدوات القهر والعنف والقسوة التي تعتمد عليها الأنظمة الاستبداديّة في بقائها رغم معارضة شعوبها وتمسّك الصفوة بزمام القوّة في عمليّة الصراع على السلطة وحيازتها والتربع على عرشها.

ويقول باحثون إن جهاز "غستابو" لم يندثر إنّما انتشر، وتمّ توزيع عناصره الإرهابيّة وتجاربه اللاإنسانية لتكون بذورًا للعديد من الأجهزة الأمنيّة للأنظمة التي تعتقد أنّ إرهاب الشعوب بأدوات العنف والقهر والاستبداد والتسلط هو الوسيلة المثلى لحكمها وضمان عدم معارضتها أو التمرّد عليها بالرغم من عدم مصداقيّة هذا الافتراض.

سقطت الدولة النازيّة التي كان يحميها "الغستابو"، ونظام شاه إيران الذي كان يدافع عنه "السافاك"، ونظام الديكتاتور نميري والذي كان يحميه جهاز أمن الدولة،

وسقط نظام "نيقولاي تشاوتشسكو" الذي كان يدافع عنه جهاز "السيكوريتات"... وسقطت أنظمة الحكم في شرق أوروبا بالرغم من أنها تملك أجهزة أمن قويّة لحمايتها، وتهاوت أنظمة أفريقيّة عديدة وأخرى في أميركا اللاتينيّة... وكثير من بلدان العالم كانت تعتمد في حكمها على أجهزة أمنية أخلصت لها وارتكبت الجرائم البشعة والإجرامية للدفاع عنها، إلا أنّ العنف والإرهاب وامتداد تجارب "الغستابو" ليس في إمكانها حلّ قضية أزمة نظام الحكم أو إعاقة الشعوب عن مسيرة التغيير والتمرّد والثورة على الظلم والاستبداد[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٤٥ ـ ١٥١.

رينهارد هيدريش: سرٌّ مُرعب

في صباح ١٤ حزيران - يونيو ١٩٣١، سافر الضابط في البحرية الألمانية بعد طرده مؤخرًا من الخدمة إلى إحدى مزارع الدواجن بالقرب من ميونخ لمقابلة صاحبها، "هينريش هيلمر". وبعد تسميته قبل عام رئيسًا للحرس الخاص للزعيم النازي أدولف هتلر، قام هيملر باستدعاء "رينهارد هيدريش" لكي يعرض عليه وظيفة.

لم يكن هيملر يملك أيّ فكرة إن كان هيدريش لديه أيّ مؤهلات للوظيفة، وهي رئيس وكالة الاستخبارات النازية الجديدة. ولكنه كان متأثرًا بهذا النازي البالغ من العمر ٢٧ عامًا، الذي برهن على الصفات الضرورية للطموح وانعدام الرحمة التي تثير إعجاب هيملر.

كان هيدريش انضم في العام ١٩٢٠ إلى فرق قوات المظلات التي شاعت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد عامين انضم إلى البحرية الألمانية. وأثناء وجوده كضابط في البحرية، قرر هيدريش الانضمام إلى الحزب النازي، حيث وجد ضالته الحقيقية. ومع حلول سنة ١٩٣١، حينما طرد من البحرية بقرار من محكمة الشرف العسكرية بسبب رفضه الزواج من ابنة رجل رفيع المنزلة بعدما جعلها حاملاً منه، أصبح هيدريش موظفًا نازيًّا متفرغًا في الحرس الخاص للزعيم النازي.

عند وصوله إلى بيت هيملر، واجه هيدريش المهمة الصعبة: إجلس واكتب خطة حول تنظيم وكالة استخبارات نازية جديدة. وأعطاه هيملر ٢٠ دقيقة للانتهاء من المهمة.

هذه المهمة وضعت هيدريش في شيء من ورطة، ذلك أنه لم يكن يملك فكرة غامضة حول كيفية تنظيم وكالة استخبارات، أو، في ما يتعلق بهذا الأمر، لم يكن يعرف أي شيء عن الاستخبارات.

ومع ذلك، فمن خلال اعتماده على ذاكرته عن روايات وأفلام الجاسوسية، كتب بسرعة ما ظن أنها وكالة استخبارات حديثة ينبغي تنظيمها. وكان هيملر، الذي لم يكن يعرف شيئًا عن الاستخبارات أيضًا، متأثرًا إلى حد بعيد، وفي الحال، قام بتعيين هيدريش رئيسًا للوكالة الجديدة، التي أطلق عليها وكالة الاستخبارات النازية SD.

مع أن هيملر كان يظن أن وكالة الاستخبارات النازية يمكن أن تعمل في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية الخارجية، فإن هيدريش اكتشف أن وكالته الجديدة لديها في الوقت الحاضر اهتمامات داخلية أكثر إلحاحًا، وعلىالأخص في ما يتعلق بتعزيز قبضة هتلر في ألمانيا. وكان هيدريش برهن عن مهاراته في هذا المجال لأول مرة سنة ١٩٣٣، حينما أسماه هيملر رئيس "قسم سياسي" جديد في بوليس ميونخ، وهو ما أصبح يعرف في وقت لاحق باسم البوليس السري النازي "الغستابو". وكان أداؤه في استئصال المعادين للنازية وإخماد جميع المنشقين جعل هيملر يفكر في أن يعهد إليه مهمة أخرى، وهي حمام الدم الذي أصبح معروفًا باسم "ليلة السكاكين الطويلة".

كان الدافع إلى حمام الدم هو صفقة سرية مشكوك في طيبة الدوافع المفضية إليها بين هتلر والعسكريين الألمان. وفي العام ١٩٣٤، وافق العسكريون على تأييد هتلر، على شرط أن يتخلص من جيشه الخاص به، أصحاب القمصان السوداء بقيادة إرنست روهم.

كان أصحاب القمصان السوداء المعروفون رسميًا باسم "قوات المباغتة"، عبارة عن مجموعة من قطاع الطرق والمجرمين الذين اكتسبوا سمعة شائنة على المستوى

العالمي بسبب اعتدائهم على اليهود في الشوارع وتخريبهم عمدًا الأعمال التجارية الخاصة باليهود. ومع أن هتلر وافق على إقامة روهم من منصبه رحل أصحاب القمصان السوداء، فإنه تردد، ذلك أن روهم، ورفيق الحرب العالمية الأولى، كان أقدم وأقرب صديق له.

وفي حزيران ـ يونيو ١٩٣٤، ومن خلال قوائم أعدها هيدريش، قامت فرق من الحرس الخاص للزعيم النازي بإلقاء القبض على جميع قادة "قوات المباغتة"، ومن بينهم روهم، الذي وضع في زنزانة في السجن وأعدم. لكن قوات الحرس الخاص للزعيم النازي كانت لديها أهداف أخرى أيضًا، ذلك أن القوائم تضمنت أيضًا أسماء خصوم هتلر في الهيكل السياسي برمته. ومع انتهاء رجال الحرس الخاص للزعيم النازي من هذه المهمة، كان هناك حوالي ٤،٠٠٠ من أعداء هتلر إما قتلوا أو أخذوا إلى مؤسسة جديدة في ألمانيا، وهي معسكر الاعتقال. وفي ظل وجود أعدائه موتى أو خلف أسلاك شائكة في "داشو" أصبح هتلر الزعيم الأوحد في ألمانيا.

وهكذا، فإن هيدريش، الرجل الذي قام بجمع الملفات وإعداد القوائم، نعم بدوره في مفخرة المذبحة. وقال هتلر عنه بإعجاب: "الرجل صاحب القلب الحديدي"، بينما اعتبره هيملر "النازي الحقيقي" وصانع الأعجوبة الذي سوف تحقق قساوته وعبقريته التنظيمية انتصار النازية في كل مكان. ولكن ما لم يكن يعرف هتلر أو هيملر هو أنه في الوقت الذي عكف فيه كل منهما على تمجيد الرئيس الشاب لوكالة الاستخبارات النازية SD بأنه التجسيد الحقيقي للقضية النازية، فإنه كان مشغولاً في إخفاء سره الأعظم.

كان هذا السر شيئًا لا يمكن تصوره...

هيدريش كان في الحقيقة نصف يهودي، ذلك أن جدته من ناحية الأم كانت يهودية، وهي حقيقة تحرك هيدريش لإخفائها. وقام هيدريش بتقطيع كل سجلات

مولدها وزواجها، حتى أنه ذهب إلى حد إحلال شاهد قبر مسيحي محل شاهد قبرها الذي كان يحمل نجمة داوود المحفورة عليه.

مهما كان هيدريش دقيقًا في إخفاء هذا السر من ماضيه، فهناك رجل واحد كان يعرف كل شيء عنه، وهي معلومة خطيرة عقد الأمل على استخدامها كضمان في مواجهة أي صراع بيروقراطي بينهما. وكان "ويلهلم كناريس"، رئيس وكالة الاسخبارات الألمانية منذ ١٩٢٩، يعرف أن هيدريش عهده إليه مهمة تكوين وكالة استخبارات نازية، وهو تطور كان من الواضح أنه قصد به عند مرحلة معينة تصنيف وكالة كناريس غير النازية ضمن فئة أعم وأشمل. وحرص كناريس على مراقبة خصمه، وتحقيقًا لهذه الغاية جعل عملاءه يقومون بجمع أسرار عن هيدريش، وعلى رأسها خليفته اليهودية... هذه الحقيقة عن حياة هيدريش اتخذت في وقت لاحق شكل مهزلة مرعبة.

قامت وكالة الاستخبارات الألمانية بعدد من الاكتشافات المثيرة الأخرى عن هيدريش. وكان من بين هذه الاكتشافات حقيقة واحدة وهي أن هيدريش أقام على نحو سري بيتًا للدعارة في برلين لتقديم الخدمات إلى الدبلوماسيين الأجانب الموجودين في المدينة. وأطلق علىهذا البيت اسم "صالون كيتي"، وكان مليئًا بالميكروفونات والكاميرات من أجل تسجيل أعمال طيش الدبلوماسيين التي يمكن أن يكون لها قيمة استخباراتية. وقامت وكالة الاستخبارات النازية بتجنيد مجموعة من العاهرات الجميلات لملء المكان، فيما تلقت كل منهن تعليمات بانتزاع الأسرار من الرجال في لحظة ذروة العاطفة...

واكتشفت وكالةالاستخبارات الألمانية أيضًا أن هيدريش نفسه كان زبونًا دائمًا في صالون كيتي، مع أن النساء كن يخشين من وصوله بسبب ميوله السادية: ولعه بتعذيب

النساء... وعرفت وكالة الاستخبارات الألمانية أنه على الرغم من أن هيدريش أمر بإغلاق كل الكاميرات والميكروفونات أثناء زياراته، ففي إحدى الليالي نسي مساعدوه أن يفعلوا ذلك، وكانت النتيجة أن واحدة من أعمال طيش هيدريش وصلت إلى وكالات الاستخبارات الألمانية...

كانت عملية صالون كيتي أول عملية قام بها هيدريش في مجال الاستخبارات الخارجية، وهي العملية الوحيدة الخاصة به. وكما تعلم هيدريش الدرس الصعب، فلم يكن باستطاعة النازيين تكوين جهاز استخبارات لجمع المعلومات الاستخباراتية الخارجية من فراغ. وكوكالة نازية تحاول تطبيق نظريات تجريدية من غير اعتبار للمصاعب العملية، فإن وكالة الاستخبارات النازية حاولت تكوين شبكات لها في مختلف أنحاء العالم عن طريق تجنيد "آريين خالصين" ورجال منضبطين سياسيًا في سفارات ألمانيا في الخارج، غير أنهم وقفوا مثل الأفيال عند طاولات حفلات العشاء.

مع هذا، فإن هيدريش ثابر على العمل بعزم وعناد، اعتقادًا، على ما يبدو، من أنه خلال قوة الجهود وحدها، يمكن أن تصبح وكالة الاستخبارات النازية شيئًا أكثر من كونها وكالة بوليس سرية...

راقب كناريس هذه الجهود بشيء من القلق، وعلى الرغم من أن وكالة الاستخبارات النازية لم تبرهن على نجاح كبير في مجال الاستخبارات الخارجية، إذ كان هناك سجل من الفشل استمر حتى العام ١٩٤٥، فهو عرف أن الهدف النهائي هو التخلص من وكالته. وعرف أيضًا أنه مثلما يقوم بجمع ملفات مشوهة للسمعة عن هيدريش فإن رئيس وكالة الاستخبارات النازية منهمك أيضًا في جمع أنواع مماثلة من الملفات عن كناريس.

وفي ألمانيا النازية، بدا كل واحد كأنه يجمع ملفات عن خصوم بيروقراطيين حقيقيين أو مفترضين. ولم يكن أحد يعرف الحقيقة بأفضل من كناريس، الذي كان لديه جملة من أسرار بالغة الأهمية، مثل علاج هتلر من حالة جنون بعد الحرب العالمية الأولى، وصفقات مالية سرية قام بها مارتن بورمان وزعماء نازيون آخرون، وبالطبع تلك الحقيقة عن إسراف هيدريش. ومن جانبه، كشفت ملفات هيدريش أن كناريس كان يخبئ يهودًا في وكالته لإبعادهم عن قبضات الغستابو.

واكتشف عملاء وكالة الاستخبارات النازية أيضًا أن كناريس لديه أصدقاء في الاستخبارات البريطانية، وأن بعض مساعديه لديهم ارتباطات مع الحركة السرية المعادية للنازية.

وما جعل لعبة الملفات المخيفة هذه لعبة مسلية هو أن هيدريش وكناريس كانا جارَين في إحدى ضواحي برلين، وفي الغالب كانا يمضيان الأمسيات في بيت كل من الآخر. وهناك كان كناريس يرى رينهارد هيدريش شخصية مختلفة تمامًا. وكان هيدريش ابن قائد فرقة موسيقية، وعازف كمان موهوبًا، حتى أنه كان باستطاعته أن يسحر مستمعيه بمعزوفاته الرائعة. ولم يحدث أن فشل كناريس في اكتشاف ذلك التناقض الغريب بين هيدريش الفاسد رئيس وكالة الاستخبارات النازية، الذي يهمس الناس باسمه بدافع الخوف، وبين هيدريش عازف الكمان الرومانسي، الذي لديه أرداف عريضة ممتلئة وصوت عالٍ ويدان طويلتان مما جعله يتخذ مظاهر أنثوية.

من الناحية الرسمية، فإن الرجلين كانا صديقين، ولكن أيهما لم ينخدع بصداقة الآخر، ذلك أن الاثنين معًا كانا منهمكين في صراع مميت في سبيل تنشيط الاستخبارات الألمانية، وكانت المكاشفة أمرًا حتميًا بينهما تبعًا لذلك. وأول صدام حقيقي جاء في العام ١٩٣٦، حينما طلب هيدريش من كناريس "استعارة" بعض الوثائق

من ملفات وكالة الاستخبارات الألمانية التي تتعلق بالحقبة العائدة إلى سنة ١٩٢٩ حينما قدم الألمان على نحو سري تدريبات عسكرية ومساعدات أخرى إلى الاتحاد السوفياتي...

كان باستطاعة كناريس أن يعرف الأسباب التي جعلت هيدريش يطلب هذه الوثائق، كما أن عملاءه أكدوا ذلك: رئيس وكالة الاستخبارات النازية كان يعد لعملية تزوير هائلة لإقناع ستالين بأن قادته العسكريين كانوا يخططون لانقلاب عسكري. ولم يكن كناريس يبدي اهتمامًا بمثل هذه العملية، ورفض طلب هيدريش، وأضاف هيدريش نقطة سوداء إلى اسم رئيس وكالة الاستخبارات الألمانية.

بعد ثلاث سنوات، كان هناك صدام أشد خطورة من ذلك.

كان هيدريش أبلغ كناريس أن وكالة الاستخبارات النازية عهدت إليه مهمة لا تقل عن محاولة إشعال الحرب العالمية الثانية. وكانت خطة هتلر إلى وكالة الاستخبارات النازية تقوم على افتعال "حادثة" عند الحدود الألمانية ـ البولندية من شأنها توفير ذريعة للألمان لغزو بولندا. ووفق الخطة، يجب أن يلبس نزلاء معسكرات الاعتقال ملابس الجيش البولندي، ويجب أن تقوم وحدة من وكالة الاستخبارات النازية بالهجوم على محطة راديو ألمانية، وتذيع إعلانًا زائفًا عن حدوث هجوم بولندي، ثم تهرب عائدة إلى ألمانيا. وفي هذه الأثناء يجب البدء بإعدام نزلاء معسكرات الاعتقال، وإلقاء جثثهم في مكان قريب من المحطة "لإقامة الدليل" على مسؤولية البولنديين. وجادل كناريس بغضب شديد ضد هذه العملية، ولكن دون جدوى، وبدأت الحرب العالمية الثانية.

مهما كانت أخطاء كناريس، فإن نجاح العملية البولندية أدى إلى رفع هيدريش إلى قمة عالية جديدة في السلطة، وتوليه مسؤولية الإشراف الكامل على هيكل البوليس السري الألماني برمته، بما فيه البوليس الجنائي والغستابو. وفي وقت مبكر من

١٩٤٢، عهدت إليه مهمة أدت إلى القضاء على أي شيء اعترض سبيله في عمله، وهي مهمة لا تقل عن كونها واحدة من أعظم جرائم التاريخ: تدبير القضاء على يهود أوروبا.

وفي يوم دافئ من أحد أيام الربيع في ذلك العام، عقد هيدريش اجتماعًا في فيلا فخمة على شواطئ "بحيرة وانسي" في ضواحي برلين. وكان اختيار المكان يعود إلى الرغبة في تخليص المشاركين، كبار المسؤولين في كل دائرة حكومية، من ضغوط مكاتبهم الحكومية، وتواجدهم في جو يعمل على تسهيل المهمة التي جاؤوا من أجلها. وفي غضون أربع ساعات، تحت توجيهات هيدريش الواضحة، بحث هؤلاء المشاركون التحديات الكبيرة التي تواجه خطة إلقاء القبض على ١١ مليون يهودي في أوروبا وشحنهم إلى مراكز القتل في بولندا تمهيدًا لإبادتهم. وأظهرت محاضر الاجتماع، التي تولى ضبطها المسؤول التنفيذي في وكالة الاستخبارات النازية عن عمليات قتل اليهود، أدولف أيخمان، رهبة المشاركين تجاه قدرة هيدريش الفائقة على استيعاب أدق التفاصيل. وفي ختام الاجتماع، بعد الانتهاء من وضع خطة "الحل النهائي"، انفض الاجتماع، وجلس المشاركون إلى طاولات أشهى أنواع طعام غداء.

كانت تلك بمثابة المشاركة الأخيرة من جانب هيدريش تجاه النظام النازي. وبعد شهر، في أيّار - مايو ١٩٤٢، عاد إلى العمل، فيما كانت تنتظره مهمة خاصة أخرى من هتلر، كرئيس للاحتلال النازي في تشيكوسلوفاكيا. وفي صباح أحد الأيام، وهو في طريقه إلى العمل، قام أربعة من مقاتلي الحركة النسائية التشكيلية بإطلاق النار عليه حتى الموت.

كشفت نهاية هيدريش عن غلطة كلاسيكية، وربما كانت غلطة تستدعي السخرية إلى حد ما، في الاستخبارات: وكالة الاستخبارت النازية، غير العارفة بالتهديدات

السرية، لم توفر الأمن لرئيسها، الذي ذهب إلى العمل بدون حرس شخصي أو أي شكل من الحماية. ولو كان من الصحيح القول، كما أشار بعض الهمسات في وقت لاحق، إن كناريس كان يعرف خطة قتل هيدريش ولم يفعل شيئًا لتحذيره، فلم يكن هذا أمرًا معروفًا على وجه اليقين أبدًا. وكناريس، الذي وجد في وقت لاحق متورطًا في مؤامرة لاغتيال هتلر في العام ١٩٤٤، ألقي القبض عليه وأعدم، أما ملفاته عن هيدريش والنازيين الآخرين، فلم يتم العثور عليها أبدًا.

وفيما يخص هيدريش، هناك أثر باق وحيد... يذكر اسمه، وهو يقع في مكان حيث كانت معروفة فيه قرية ليديس التشيكوسلوفاكية. وبسبب شعوره بغضب شديد تجاه قتل هيدريش، فإن هتلر أمر بإزالة القرية وجميع سكانها البالغ عددهم ٤٠٠ شخص عن وجه الأرض وجعلها عبرة للآخرين. وقامت فرقة إعدام تابعة لوكالة الاستخبارات النازية بقتل جميع السكان، وتسوية القرية بالأرض، وحرث المنطقة وتحويلها إلى أرض جرداء. ولم يسكن أحد هناك منذ ذلك الحين.

ولكن، بالطبع، هناك آثار أخرى غير موسومة بعلاقة لهذا "الرجل صاحب القلب الحديدي" في كل أنحاء أوروبا: المقابر الجماعية التي تحتوي على رفات ملايين اليهود. وربما يظل التاريخ يذكر اسم هيدريش على أنه المخطط والمنفذ للقضاء عليهم[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٣٠٤ ـ ٣١١.

هينريش موللر: نازي في موسكو؟

عاد الرجال المستنزفون والمنهكون الذين مروا عبر مركز التسجيل والاستجواب إلى أرض الوطن أخيرًا، ولكن قبل إعادة جمع شملهم مع أفراد عائلاتهم الذين ظنوا أنهم لن يروهم مرة أخرى، كانت هناك خدمة واحدة أخيرة ينبغي تقديمها إلى بلدهم. ومع أنهم كانوا مستنزفين، فإن أسرى الحرب الألمان العائدين أخيرًا من معسكرات السجون السوفياتية في صيف ١٩٥٣ بعد قضاء عشر سنوات أو يزيد، انتهزوا الفرصة للجلوس ساعات للتحدث في أجهزة تسجيل الأصوات على أشرطة، معددين كل تفاصيل صغيرة عن تجاربهم في وقت ما زالت فيه ذاكراتهم قوية.

لكن الكثيرين منهم، وهم ضباط مدربون جيدًا، يتميزون بذكاء فني جعلهم قادرين على نقل كل التفاصيل إلى رجال "رينهارد غيهلن" في جهاز الاستخبارات "الأورغ" الذين عهد إليهم باستجواب الأسرى العائدين. وكان هذا هو جوهر العمل الاستخباراتي، وهو جمع عدد هائل من التفاصيل التي يمكن جمعها في وقت لاحق في كل متلاحم: طاقة شحن خط السكة الحديدية، وموقع خطوط أنابيب النفط الهامة، وعملية الصنع في مصانع الفولاذ، وهكذا. وكانت كل التفاصيل مفيدة، ولكن بعض الضباط ذكروا شيئًا غريبًا جدًا ومن الصعب تصديقه، إنهم رأوا شبحًا.

لم يكن هذا أي شبح: هؤلاء الضباط أصروا على القول، أمام القائمين على الاستجواب والنازعين إلى الشك، إنهم رأوا "هينريش موللر"، رئيس الغستابو من ١٩٣٥ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، في الاتحاد السوفياتي، بلباس كولونيل في

جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. هذا مستحيل، هكذا قيل للضباط. موللر مات في برلين سنة ١٩٤٥. وحتى حين افتراض القول إن موللر نجا بحياته من الحرب، فمن غير المعقول أن يقوم جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB بتجنيد رئيس الغستابو، من بين جميع الناس، للعمل في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB.

مع ذلك، فحين تحدث ضباط آخرون من الأسرى عن الرؤية ذاتها، بدأ رجال الاستخبارات "الأورغ" في التساؤل: هل هذا ممكن؟ كل الرؤى التي جرى التبليغ عنها كانت متوافقة في ما يتعلق بالوصف الجسماني: الجمجمة العريضة المربعانية، والشخصية القصيرة البدينة، والوجه الشاحب بفتحة للفم... هذا هو موللر، هذا صحيح، إنه الرجل الذي كان مظهره الخارجي الجسماني واحدًا من أشد المظاهر تميزًا بين جميع رجال السلطة النازيين. لكن كانت هناك مهام استخباراتية أكثر إلحاحًا في تلك الفترة. ولذلك فإن لغز هينريش موللر تُرك جانبًا تمهيدًا لإحيائه في وقت لاحق.

حين أخْذ الأمور بظواهرها، فربما من الصعب تصور تجنيد أشد إثارة للدهشة من قيام جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB بتجنيد رئيس الغستابو. وكان موللر، قبل كل شيء هو الذي قضى على الحزب الشيوعي الألماني، الأقوى والأكثر عددًا خارج الاتحاد السوفياتي، بوحشية لا يتصورها غير نظيره الروسي بيريا وحده. وكان الشيوعيون الألمان، الذين بلغوا عدة ملايين ذات مرة، تعرضوا للملاحقة كالفئران. والشيوعيون في ألمانيا قتلوا، أو وضعوا في معسكرات الاعتقال أو طردوا إلى المنفى. ومع حلول ١٩٤٢، أصبح ذلك البلد، الذي كان مسقط رأس كارل ماركس، يضم حفنة قليلة من شيوعيين يعيشون في ظل وجود سري محفوف بالأخطار. وفي الوقت نفسه، فإن غستابو موللر حطم كل شبكات الاستخبارات السوفياتية في ألمانيا، التي كانت

تعتبر في نظر مركز موسكو بمثابة ميدان لصراع الاستخبارات الأهم في كل أنحاء أوروبا الغربية.

كان الرجل الذي تسبب في حدوث هذا كله شرطيًا، ولم يكن عميلاً مدربًا في مكافحة التجسس.

كان موللر ولد في ميونخ سنة ١٩٠٠ لأسرة من رجال البوليس البلغاريين الغارقين في التبلد الحسي. واتبع موللر طريق الحرفة ذاتها، وانضم إلى دائرة بوليس ميونخ في العام ١٩١٩. ومع حلول سنة ١٩٢٩، جاء به سجل أعماله الثابت، إن لم يكن سجلاً رائعًا، إلى منصب متوسط المرتبة، وهو مفتش بوليس جنائي (المقابل لمنصب المفتش في دائرة البوليس الأميركي).

من المثير للسخرية بدرجة كافية، على ضوء الأحداث اللاحقة، هو أن أحد مصادر الاهتمام الرئيسية عند موللر في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى كان حركة سياسية صغيرة ولكنها مزعجة ذات آراء متطرفة، وهي حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين. وبإطلاقهم على أنفسهم لقب "النازيين"، من اللفظة الألمانية لحركتهم، فإن هذه الجماعة كان يتزعمها الإخوان غريغور وأوتو ستراشر. وكان الأخوان ستراشر والمناصرون لهما يتكلمون بطلاقة وإسهاب توليفه غريبة من فنون الجدل اليميني والمبادئ الاشتراكية حول ملكية الدولة لكل الصناعة، ولكن كما أبلغ موللر رؤساءه، فهذه الجماعة جاء بها رجل مثير للفتنة في الحزب وجندي سابق يدعى أدولف هتلر.

في رأي موللر، فإن هتلر وعصبته الصغيرة من الأتباع كانوا مجموعة من المعتوهين، ولا يختلفون كثيرًا عن سحابة المنشقين السياسيين الذين تواجدوا في الاضطرابات اللاحقة على الحرب العالمية الأولى في ألمانيا. وبرغم ذلك، فهو عكف

على مراقبة أنشطة الحزب عن كثب، وعلى الأخص بعد الفتنة الفاشلة التي تزعمها هتلر في ١٩٢٣. ومع حلول ١٩٣٣، وهو العام الذي أصبح فيه معتوه حانات البيرة في ميونخ رئيسًا للوزراء، كان موللر أحد الخبراء البارزين في العالم حول الحركة النازية. وتضمنت ملفاته، التي تعرضت للإهلاك للأسف نتيجة غارة جوية في ١٩٤٥، أشد المعلومات تفصيلاً عن الحزب والمسؤولين فيه. وكان موللر قد جمع هذه المعلومات من خلال عمليات إلقاء القبض على الكثيرين من النازيين بسبب جرائم مختلفة، وهي في معظمها جرائم مشاجرات بين خصوم سياسيين في الشوارع.

كان مفتاح شخصية موللر هو تجرده المهني. وفي جوهر الأمر، فإن موللر كان شخصية غير سياسية. وكان رجلاً مطيعًا وبوليسيًّا مهتمًّا في أداء الواجب فقط. وسواء كان يجري تحقيقات مع شيوعيين أو نازيين، فإن موللر ظل بعيدًا عن التأثر بتلك التشنجات السياسية التي مزقت ألمانيا، وكان معروفًا داخل دوائر البوليس في ميونخ بأنه الشرطي المثالي المستقيم الذي بقي غير متأثر بالسياسات أو النقود أو أي شيء آخر. وموللر كان يقوم بتنفيذ الأوامر فقط.

لهذا السبب، فإن موللر افترض أنه توقف عن العمل في ١٩٣٣ حينما بدأ النازيون في إضفاء الصفة النازية على البوليس الألماني. ولم يكن موللر عضوًا في الحزب النازي، أو أي حزب سياسي آخر. وفي ما يتعلق بهذا الأمر، فهو لم يكن ينوي الانضمام إلى حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين كذريعة للبقاء في الوظيفة، كما فعل الكثيرون من زملائه من رجال الشرطة. ولدهشته، فإن ذلك النازي المثالي، رينهارد هيدريش، طلب من موللر البقاء وتولي مسؤولية "قسم معادٍ للسوفيات" داخل قوة البوليس. وفي ظل اقتراب الإعلان عن عدم شرعية الحزب الشيوعي الألماني، فإن موللر كان معنيًا بالتفتيش عن جميع أعضاء الحزب. وبالإضافة إلى ذلك، جرى

إبلاغه أنــه معنــي بملاحقـة كـل شـبكات التجسـس السـوفياتية التـي يعتقـد أنهـا تسـتخدم الشيوعيين الألمان كجواسيس نافعين.

أثار قرار هيدريش غيظ الجناح المحافظ فـي الحـزب النـازي، الذيـن أعربـوا عـن تذمرهم من أن موللر كان الشرطي الـذي جعـل حيـاتهم بائسـة فـي أيـام حملـة ميونـخ. وتجاهل هيدريش الاحتجاجات، ذلك أن اختيار موللر جاء بعد تفكير في الأمـر بدهـاء. وبداية، وكما كان هيدريش يعرف جيدًا، ففي دولة بوليسـية مثـل ألمانيـا النازيـة، هنـاك نزعة عند أي شخص مرتبط بأداة القمع لاستخدام النفوذ الهائل لتحقيق مزايـا سياسـية. وموللر غير السياسي لم يكن لديه جدول أعمال سياسـي. وثانيًا، فإن مهمة القضاء علـى الشـيوعية فـي ألمانيـا لـم تكـن مهمـة المتعصبيـن، وإنمـا كـانت مهمـة الخـبراء غـير المتعاطفين. وموللر كان واحدًا من هؤلاء بالتأكيد. وكما فعل من قبل مع النازيين، فـإن موللر بنى جهازًا ضخمًا للمعلومات عن الشيوعيين. وبالإضافـة إلـى ذلـك، وكمـا كـان هيدريش يعرف، فإن موللر درس وسائل الاستخبارات السوفياتية، وكـان يعتـبر واحـدًا من بين الخبراء الألمان البارزين في هذا المجال.

وفي ظل تسلحه بهذه المعلومات، فإن موللر، الذي وضـع مسـؤولاً عـن العشـرات من العملاء المجندين من بين صفوف بوليس ميونخ، بدأ في مطاردة الشيوعيين في كل أنحـاء المنـاطق الجنوبيـة مـن ألمانيـا بنفس الكفـاءة التـي برهـن عليهـا ذات مـرة ضـد النازيين. ومــع حلـول ١٩٣٥، أمكـن القضــاء علـى الشـيوعيين بـالفعل. وهـذا الإنجـاز إستحق عليه موللر ترقيـة كبيرة: تسـميته رئيسًـا لقسـم جديـد فـي وكالـة الاسـتخبارات النازية SD، وهو جهاز أمن داخلي أطلق عليه الغستابو (البوليس السري النازي).

وكان ينبغي على موللر أن يوجد في هذا الجهاز الجديد أداة للقمع من شـأنها جعـل اسمه مرادفًا لسلطة الدولة البوليسية غير المقيدة. وإلـى حـد كبـير، فـإن الغسـتابو كـان

انعكاسًا لأفكار موللر نفسه، ذلك أنه قام بتجنيد الكثيرين من بين صفوف المفتشين من رجال البوليس الألمان، وبحث عن الرجال الذين يشاطرونه أفكاره غير السياسية والتكريس الأعمى للواجب. وكان منهج الغستابو في تحقيق غاياته مصاغًا على غرار جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، وهو الجهاز الذي أعرب موللر عن إعجابه به صراحة، كما دعا في الغالب رجاله إلى تقليده.

داخل نطاق وكالة الاستخبارات النازية SD، التي كان يهيمن على زعامتها مثقفون أضيفت عليهم الصبغة النازية ("القتلة الجنتلمين" كما كانت وكالة الاستخبارات الألمانية تطلق عليهم بسخرية وازدراء)، لم يكن موللر شخصية محبوبة. وكان موللر يحتقر جميع المثقفين، وقال عنهم ذات مرة: "ينبغي على المرء في الحقيقة أن يسوق جميع المثقفين إلى منجم فحم، ثم يفجره على رؤوسهم". ومن جانبهم، اعتبر زعماء وكالة الاستخبارات النازية SD موللر على أنه إنسان الكهف، شرطي ميونخ أمسح القدمين الذي لا يمتد أفق تفكيره إلى ما هو أبعد من البيرة والسجق.

كانت تلك صورة كاريكاتورية نوعًا ما عن موللر الحقيقي، وهي صورة لا تنفي وجهة نظره الضيقة. وبالنظر إلى أنه فاشستي كلاسيكي، فإن عقله كان يهيمن عليه مفهوم الواجب. ولو قامت الدولة بتمرير قانون، كما فعلت ألمانيا النازية، بحيث يجعل مجرد العضوية في الحزب الشيوعي عقوبتها الإعدام، فإن موللر كان مستعدًا للقيام بواجبه وإلقاء القبض عليهم. وحينما بدأ النازيون في غزو أوروبا، فإن موللر كان مستعدًا لإرسال رجاله إلى كل زاوية في أوروبا المحتلة لذبح "أعداء الدولة"، وفق تعريف الدولة. وكان يفضل أن يعتبر نفسه صاحب الأمر الذي لا يعرف الصفح. وبالنظر إلى أنه رجل كان يملك ذاكرة قوية قادرة على الاحتفاظ بانطباعات حية ومشهورًا بمعرفته اسم كل واحد من عملائه الذين يقدر عددهم بالآلاف، فإن موللر

تمكن من الاحتفاظ بملف بطاقات ضخم بشأن الملايين من المواطنين الألمان، وهو ملف كان يغذى بالمعلومات عن طريق شبكة من المخبرين، على غرار شبكة جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، المزروعين في كل مؤسسة ألمانية (قبل نهاية الحرب بزمن قصير، أعرب موللر عن أسفه لعدم قدرته على استكمال تنفيذ فكرة إعداد بطاقة معلومات عن كل مواطن ألماني).

لم يكن موللر يصدر أية أحكام أخلاقية مهما كانت، ذلك أن الدولة كانت هي التي تقرر من هم الأعداء، وكان موللر يطاردهم بحكم الواجب. وبالمثل، فهو لم يشعر بالندم تجاه الوسائل التي استخدمها الغستابو. والدولة أبلغته أن أعداء الدولة ليس لهم حقوق، وينبغي استخدام كل الوسائل لتحقيق نتائج. وموللر لم يكن ساديًا، ولكنه قام بالفعل بتجنيد مجموعات من الساديين لتحقيق النتائج التي أرادها في زنزانات التعذيب سيئة السمعة الخاصة بالغستابو.

ولأنه كان معروفًا باسم "غستابو موللر" في ألمانيا (تمييزًا له عن الآخرين الكثيرين الذين يحملون الاسم الأول الألماني الشائع)، فإن موللر بدا كأنه نازي من الطراز الأول، مع أن عددًا قليلاً جدًا كانوا يعرفون أنه لم يكن عضوًا في الحزب النازي. وهذه الحقيقة بدأت تثير بعض الدمدمات داخل السلطة الحكومية: هل من المعقول أن يكون الأمن الداخلي في ألمانيا النازية برئاسة رجل غير نازي؟ وبناء عليه، تلقى موللر في ١٩٣٩ أمرًا بوجوب الانضمام إلى الحزب النازي. ولكن الحزب، على نحو مثير للاشمئزاز، رفض طلب موللر باعتباره "غير مؤهل" للعضوية. واضطر هينريش هيملر نفسه إلى التدخل، وأمر مسؤولي الحزب بضم موللر فورًا، أو مواجهة عقوبة السجن في معسكرات الاعتقال.

وعملت هذه الحادثة على جعل العلاقات أسوأ بين موللر وزعامة وكالة الاستخبارات النازية SD، وقرر رئيسها أن يلقي نظرة أوثق على رئيس الغستابو. ولم يكن وولتر شيلينبيرغ، المحامي الجامعي الذي تولى رئاسة وكالة الاستخبارات النازية SD بعد اغتيال رينهارد هيدريش في ١٩٤٢، يميل إلى موللر شخصيًا، ولكن بالنظر إلى أنه باحث في الطبيعة الإنسانية، فهو تمنى لو يعرف أين يكمن ولاء موللر الحقيقي. وفي نظر رجل إيديولوجي نازي دائم الشك مثل سيلينبيرغ، فإن التكريس غير السياسي عند موللر للواجب كان يشكل مصدرًا للقلق، ذلك أن مثل هذا الرجل كان فقط قادرًا على تنفيذ أوامر شخص آخر، إن استدعت الظروف ذلك.

وبدأت شكوك شيلينبيرغ المترددة الأولى في التحول إلى شكوك أقل ترددًا في ١٩٤٢، حينما قام موللر بدور بارز في القضاء على الفرع الألماني التابع لشبكة الاستخبارات السوفياتية "الأوركسترا الحمراء". وكان جرى الاستيلاء على عدد من راديوهات الأوركسترا الحمراء، غير أن ما أثار شعورًا بالقلق عند شيلينبيرغ هو أن موللر أصر على إبقاء البعض منها لأغراض لم يشأ توضيحها. وعلاوة على ذلك، وكما عرف شيلينبيرغ، فإن موللر قام بتجنيد خبير في تشغيل الراديو وفن قراءة رموز الشيفرة. لماذا، كما تمنى شيلينبيرغ أن يعرف، كان موللر في حاجة إلى مثل هذا الخبير؟ الروس كانوا يعرفون جيدًا أن الفرع التابع للأوركسترا الحمراء جرى القضاء عليه، ولذلك فليست هناك أية إمكانية لإعادة تشغيل راديو مستولى عليه. والحقيقة هي أن مركز موسكو ما كان يمكن أن يصدق أية رسالة لاسلكية في شبكة يعرف أنها في قبضة الغستابو.

وأبقى شيلينبيرغ على خبير الراديو الخاص به، وفي ١٩٤١، اكتشف بعض الاشارات غير المفسرة الصادرة عن مركز قيادة الغستابو في برلين إلى ناحية الشرق،

نحو محطة استلام في دانزينغ. وهذه الإشارات، كما اكتشف شيلينبيرغ كانت مكتوبة برموز شيفرة لم يستطع أحد من خبرائه حلها، الأمر الذي قاده إلى الاعتقاد أنها عملية سوفياتية لمرة واحدة فقط. وإذا كان الأمر كذلك، فما هو ذلك الذي كان الراديو في مراكز قيادة الغستابو يقوم بإرساله برموز شيفرة ربما كانت سوفياتية إلى دانزينغ في بولندا البعيدة؟

كانت هناك دلائل أخرى أزعجت شيلينبيرغ. وفي أوائل ١٩٤٤، كانت وكالة الاستخبارات الألمانية فقدت حظوتها عند هتلر، الذي بدأ في تحطيم الوكالة. وكخطوة أولى، عهد بمسؤولية قسم مكافحة الاستخبارات في الوكالة إلى غستابو موللر، وهذا يعني أن موللر في ذلك الوقت أصبح يملك السيطرة الخالصة على كل عمليات مكافحة التجسس في ألمانيا. وبمحض الصدفة، كما اكتشف شيلينبيرغ، فإن مكافحة التجسس ضد العمليات السوفياتية توقفت. وكان تفسير موللر الرسمي هو أن الألمان حققوا نجاحًا رائعًا في القضاء على الشبكات السوفياتية، الأمر الذي جعل موسكو تتوقف عن الحركة. ولكن شيلينبيرغ كان يعرف أن الروس أذكى من ذلك، ولهذا فلم يكن أمامه غير التفكير في الأشياء التي لا يمكن تصورها: هل يمكن أن يكون موللر، العارف أكثر من غيره بحتمية هزيمة ألمانيا، تحول إلى الجانب الآخر؟

كانت هناك مجالات اهتمام أكثر إلحاحًا دفعت شيلينبيرغ إلى وضع مسألة موللر جانبًا في الوقت الحاضر على الأقل، وحينما عاد إليها مرة أخرى، كانت الحرب على وشك الانتهاء. وفي غضون ذلك، بقي موللر في برلين حتى اللحظة الأخيرة، ثم اختفى فجأة. وكانت آخر مرة شوهد فيها حيًا في ٢٩ نيسان - أبريل ١٩٤٥ في غرفة هتلر المحصنة تحت الأرض. وفي وقت لاحق، قام نازيون آخرون في برلين بإبلاغ

المحققين أن موللر وأحد مساعديه حاولا الهروب من المدينة المحاصرة، ولكنهما قتلا برصاص الجنوب الروس أثناء المحاولة، ودفنا بعدئذٍ في مقبرة المدينة.

هناك بقي اللغز موجودًا حتى الاستماع إلى المزاعم المروعة التي أدلى بها أسرى الحرب الألمان العائدون في ١٩٥٣. وكل حكاياتهم لها خيط مشترك: في بعض الأحيان بعد أسرهم، كان يطلب منهم المشي في طوابير في شوارع موسكو كجزء من حملة دعائية من جانب الروس لرفع الروح المعنوية عند المدنيين. وأثناء مشيتهم في الطوابير لاحظوا أن من بين المسؤولين السوفيات الذين وقفوا لمشاهدتهم من شرفة كبار الناظرين كان هناك رجل قريب الشبه جدًا من موللر.

إتجه رجال الاستخبارات الألمانية الغربية نحو تجاهل التقارير، ولكن قبل أن يتمكنوا من إغلاق ملف موللر، بدأوا في سماع تقارير غريبة أخرى عن موللر. وأحد هذه التقارير، من اتصالات موثوق بها في ألمانيا، أفاد أن موللر كان في ألبانيا لبعض الوقت في ١٩٥٣ كمستشار للبوليس السري الألباني. وفي ذلك العام نفسه، كانت هناك رؤية أخرى، وهذه الرؤية أفادت أن موللر كان يعمل في ألمانيا الشرقية مع البوليس السري الألماني الشرقي. وأخيرًا، ومن خلال محاولة لحل المسألة، قرر الألمان الغربيون في ١٩٦٣ إخراج موللر من القبر في برلين وإجراء تشريح للجثة. وعند فتح القبر، شعر الألمان بالدهشة، ذلك أنهم وجدوا ثلاث جثث في القبر، ولم تكن موللر واحدة منها.

وهكذا، فإن الحكاية حول موت موللر المفترض في برلين في ١٩٤٥ تحولت إلى أن تكون حكاية غير حقيقية. ولكن ماذا حدث له؟ ألمانيا الغربية لم تعرف، مع أن هناك كانت دلائل محيرة. وفي ١٩٦٧، على سبيل المثال، جرى إلقاء القبض على رجلين لمحاولتهما اقتحام عنوة بيت أرملة موللر. وعلى ما يبدو، فربما كانت محاولة

سرقة عادية، غير أن البوليس اكتشف أن الرجلين تابعان للسفارة الإسرائيلية، وكانا في الحقيقة عميلين للموساد. ماذا كان الموساد يحاول أن يعرف من وراء اقتحام بيت السيدة موللر؟

ولم يقل الإسرائيليون شيئًا، وبذلك أسدل الستار على قضية هينريش موللر. ولم يناقش الروس أو أي من حلفائهم في أوروبا الشرقية مسألة موللر، مع أن مصدرًا ألمانيًا شرقيًا أبلغ الألمان الغربيين قبل بضع سنوات أنه سمع أن موللر، مات في ١٩٤٨ في ألمانيا الشرقية خلال اشتغاله كمستشار للبوليس السري.

على الأرجح، فإن الحقيقة حول ما حدث لموللر بعد ١٩٤٥ لن تعرف أبدًا على وجه اليقين. ومن الناحية الرسمية، فهو مطلوب إلى ألمانيا الغربية بسبب جرائم الحرب، ولذلك فإن قضيته من الناحية الفنية تبقى مفتوحة. ولكن احتمالات بقاء موللر حيًا حتى الآن بعيدة جدًا، ذلك أن عمره بات يتجاوز الآن ٩٠ عامًا. وتلك أعوام طويلة جدًا، حتى بالنسبة إلى شرطي بلا طموحات سياسية[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٣٢٣ ـ ٣٣٢.

عندمَا اتَّحدَت الألمَانيتَان

عندما نزح الآلاف من مواطني ما كان يسمّى ألمانيا الشرقيّة إلى ما كان يسمّى ألمانيا الغربيّة في صيف ١٩٨٩، تخوّفت أوساط حلف شمال الأطلسي NATO من تسرّب عدد كبير من الجواسيس بهذه الطريقة، ومن أن يتوظّفوا في دوائر وزارة الدفاع الألمانيّة الغربيّة، حيث يستطيعون بسهولة زرع فيروسات في برامج المعلوماتيّة الخاصّة بالحلف، وممارسة أعمال القرصنة للحصول على الأسرار العسكريّة، حيث من المعروف أنّ ألمانيا كانت تُعتبر بمثابة خطّ الدفاع الأوّل للحلف في حال حصول هجوم شيوعيّ على الدول الغربيّة، وتتركّز فيها معظم أنظمة المراقبة والتنصّت وقواعد الصواريخ الاستراتيجيّة. ويقول بعض الأنباء أنّ دوائر حلف الـ NATO طلبت من حكومة بون التيقّظ وأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر وإجراء مراقبة شديدة والتدقيق في حالات جميع المرشّحين لشغل وظائف في الدوائر الأمنيّة... فكان الجواب الألمانيّ أنّ الحكومة متنبّهة تمامًا إلى هذه الناحية، وأنّ خطر الهجوم الشيوعيّ قد تلاشى كثيرًا على كلّ حال في ظلّ سياسة الـ"بيرسترويكا"، وأنّ الموضوع هو شأن ألمانيّ بالدرجة الأولى، مع الإشارة إلى أنّ ألمانيا الشرقيّة كانت تُعتبر إحدى أكثر الدول الاشتراكيّة تقدّمًا في مجال المعلوماتيّة[1].

---

١ ـ راجع: عبده نديم، أمن الكومبيوتر: الفيروسات والقرصنة والمعلوماتيّة وانعكاساتها على الأمن القومي، دار الفكر (بيروت،١٩٩١)

ألمانيا الغربيّة

"رينهارد غيهلين" رئيس وكالة المخابرات الألمانيّة الاتّحاديّة BND. وقد تمتّع غيهلين ووكالته بمكانة خاصّة في ما يتعلّق بخطط منظّمة حلف شمالي الأطلسي للدفاع عن أوروبا. وخلال الحرب العالميّة الثانية عمل غيهلن في وحدة المخابرات العسكريّة التابعة لهتلر، والمعروفة باسم "ABWEHR" والتي كانت مسؤولة عن إدارة الجواسيس في الاتّحاد السوفياتيّ. وعندما تسلّم المخابرات الألمانيّة الاتّحاديّة بعد الحرب، أصبح ينسّق مع وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، ووكالة المخابرات البريطانيّة MI6، وأحيى العلاقة مع عملائه الكامنين في روسيا. وقد وعى السوفيات التهديد الذي تشكّله وكالة المخابرات الألمانيّة الاتحاديّة[1].

منسّق أجهزة الاستخبارات الألمانيّة إرنست أورلاو

أجرى منسّق أجهزة الاستخبارات الألمانيّة "إرنست أورلاو" في الظلّ وبتكتّم كبير المفاوضات الحسّاسة حول عمليّة تبادل الأسرى بين إسرائيل وحزب الله اللبناني في ٢٩ كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤. وعندما عيّنه المستشار الألماني الجديد "غيرهارد

---

١ - رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص١٢٧.

شرودر" في ١٩٩٨ في هذا المنصب أعلن أورلاو أنّه "لا يعتزم القيام بدور عميل الاستخبارات الشبيه بجيمس بوند كما كان يفعل "بيرند شميدبارو" الذي شغل المنصب قبله.

وبدا الرجل الذي تولّى الوساطة التي بدأتها ألمانيا في بداية التسعينات بين إسرائيل وحزب الله هادئًا ومتحفّظًا لا يظهر كثيرًا علنًا لكنّه يعرف كيف يستخدم الإعلام بطريقة هادفة. وتمكّن من الإستفادة من منجزات سلفه الذي حقّق أول عمليّة تبادل في ١٩٩٦. وتوصّل أورلاو نفسه إلى الإفراج في ١٩٩٩ عن ١٣ سجينًا لبنانيًّا كان خمسة منهم معتقلين في إسرائيل وتمّ نقلهم عن طريق ألمانيا. وفي آب ـ أغسطس ٢٠٠٣ نجح في دفع إسرائيل إلى إعادة جثّتي مقاتلين لحزب الله.

ومنذ ظهوره السبت في ٢٤ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤ في برلين أمام الصحافيّين ليتحدّث عن عمليّة تبادل الأسرى التي جرت في ٢٩ كانون الثاني ـ يناير عاد أورلاو من جديد ليتجنّب وسائل الإعلام. وامتنعت الحكومة الألمانيّة عن تسريب أيّ معلومات حتّى لا تهدّد عمليّة تبادل الأسرى[١].

---

١ ـ جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر ٢٠٠٤، ص٦.

التغلغل الاستخباراتي السوفياتي في جمهورية ألمانيا الفيدرالية

لا شك في أن جمهورية ألمانيا الفيدرالية منذ تأسيسها في عام ١٩٤٩، (RFA) كانت أكثر دولة غربية في أوروبا قد تضررت من التغلغل السوفياتي.

إن مرحلة هامة من هذا التغلغل تظل بحاجة إلى النقاش بخاصة وأنه في شهر تموز ـ يوليو ١٩٥٤، اختفى مدير دائرة الأمن في جمهورية ألمانيا الفيدرالية، بندسامت فور فيرفاسونغسشوتز (BFV)، الذي كان معروفًا باسم أوتوجون، ثم ظهر في ألمانيا الشرقية بعد عدة أيام عندما عقد مؤتمرًا صحافيًا يتهم فيه النازية بالعودة إلى الجمهورية الفيدرالية.

وما لبث أن ظهر من جديد وبشكل فجائي في ألمانيا الغربية في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٥٥، مؤكدًا على أن انتقاله إلى ألمانيا الشرقية لم يكن بمحض إرادته، وشرح ما حدث قائلاً بأن أحد الأطباء، ويدعى وولفغانغ وولفيموث، كان يعمل لحساب KGB، قد خدره وتم نقله إلى هناك.

لكن هذه الإيضاحات والتفسيرات الغامضة أدخلت الريبة إلى المحكمة العليا في جمهورية ألمانيا الفيدرالية.

ووفق أقوال الشهود الآخرين، كان جون من مدمني الشراب، وكان وولغيموث يعمل لتأصيل عادة الشراب لديه حتى تمكنت منه وأصبحت إدمانًا لديه، وهكذا ظهر تخوفه من عودة النازية؛ ثم حكم عليه بالسجن أربع سنوات في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٥٦.

تجدر الإشارة إلى أن أكثر الجواسيس إنتاجًا في KGB داخل الاستخبارات الألمانية كان هانز فيلف، رئيس القسم السوفياتي لمكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات الخارجية، BND، ابتداءًا من العام ١٩٥٨.

وبفضل مونتاج وضعه المركز، وبالمساعدة المتعددة الأشكال التي قدمتها دائرة أمن الدولة السوفياتية KGB، فقد استطاع فيلف اكتساب سمعة جيدة بحيث جعل أقرانه ونظراءه يعتقدون أنه يدير شبكة واسعة في الاتحاد السوفياتي.

وكانت تلك الشبكة خيالية تمامًا!.

كان رينهارد غيهلين، مدير "مركز التجسس في جمهورية ألمانيا الفيدرالية BND"، يقود الزوار العابرين إلى مكتب فيلف، حيث يستطيعون تأمل خريطة ضخمة بالألوان يظهر فيها بوضوح مبنى كارلستوت؛ وكان الشاهد يرى بوضوح أصغر التفاصيل للمركز الرئيسي في KGB، حتى أماكن وقوف السيارات، والحمامات التي يستعملها كل ضابط في المركز.

أطلق على عملية "كارلشورست" اسم "دياغرام"؛ وبسبب هذه العملية صدرت خمسة كتب مليئة بالرسوم التي توضح الصورة الداخلية لكل مكتب، كما تضمنت صور كروكي للشخصيات وأرقام التليفونات الداخلية والمفكرات.

وكانت تصل إلى المركز الرئيسي Q.G في "مركز التجسس في جمهورية ألمانيا الفيدرالية BND" طلبات للاستعلام عن كارلشورست.

وبعد التصريحات التي قام بها فيلف، فقد أوضح للجميع "الأشياء التي تهتم بها محطات CIA في كل أوروبا"، مما دفع المركز للحصول على رؤية لا تُضاهى بالنسبة لعمليات الوكالة الأميركية. لكن فيلف أوضح في ما بعد وبرهن

أن مركـز التجسـس فـي ألمانيـا الفيدراليـة وحلفـاءه قـد أخـذوا فكـرة "خاطئـة جـدًا عـن كارلشورست".

جدير بالذكر أن فيلف عندما كان لا يزال يعمل في BND، قد أعطى كارلشورست نسخًا لمعظم الوثائق الهامة تقريبًا، في ملفّات المخابرات الألمانية الغربية.

وكانت التقارير المستعجلة تنقل بواسطة الراديو، أما البقية فكـانت تصـل بواسـطة حقائب ذات قعرين، وكانت توضع ضمن مراطبين خاصة بطعـام الأطفـال أو بواسـطة صناديق البريد، أو بواسطة البريد الخاص بدائرة BND الذي كان ينقله، إرويـن تيبـل، الذي كان يعمل أيضًا لحساب KGB.

يذكر فيلف في مذكراته "أنه خلال السنتين اللتيـن سـبقتا بنـاء جـدار برليـن (آب ـ أغسطس ١٩٦١)، كانت دوائر CIA وBND تفسد التطور السياسي والاقتصـادي فـي جمهورية ألمانيا الديمقراطية RDA ، وتسعى لتصعيد ضغـط الحـرب البسـيكولوجية... وتعمل على تشريد القوى العاملة، وتضليلها"...

"... لقـد سـلكتُ طرقًـا وعـرة وخُضْـتُ مخـاطر كثـيرة... وكـانت اللقـاءات تتبـع اللقاءات، وكانت المعلومات تصل بشكل سريع، حتى أنني عملـت مـا بوسـعي لإعطـاء الإتحاد السوفياتي العناصر التي تساعده على اتخاذ القرارات؛ حتـى أننـي أخـذت علـى عاتقي المخاطرة بتقديم المعلومات والإيضاحات عن نفسي والتي تجعل مركـز مكافحـة الجاسوسية المعادي يتوصل إليّ. وقد أكد توقيفي على كل أقوالي".

كانت الدوافع لدى فيلف تتعلق بالكبرياء أكثر من تعلقهـا بالإيديولوجيـا، تمامًـا كمـا كانت الحالة مع باك وهمبلتون.

كان اعتزازه بنفسه يزداد كلما تلقى التهنئة من الجنرالات فـي دائـرة KGB، حتـى أن الرئيس ذاته قد هنأه ذات مرة في إحدى المناسبات.

وبعد إلقاء القبض على فيلف عام ١٩٦١، قال أحد الضباط في وكالة التجسس المركزية في الولايات المتحدة الذي كان قد خدم في ألمانيا في الخمسينيات:

"إن التقرير الذي أعدته دائرة المخابرات التجسسية في جمهورية ألمانيا الفيدرالية عن الخسائر التي منيت بها، لا شك في أنّه قد ملأ عشرات ألوف الصفحات. وقد تضمن التقرير أسماء وعناوين العملاء، وأعيد تقييم العلاقات التي كان عملاؤنا يرسلونها خلال عشر سنوات، سواء تلك التي كانت تفبرك في الجانب الآخر بواسطة عملاء كان يقع عليهم الاختيار في الجانب الآخر، أو اللذين كانوا موجهين توجيهًا جيدًا، وأخيرًا، أولئك الذين كانوا يستقون معلوماتهم من مصادر أسطورية، أو نشأوا في بيئة خرافية".

إستفادت دائرة أمن الدولة في KGB من الحملة الكبرى التي دخلت فيها مخابرات ألمانيا إلى قلب وزارة أمن الدولة، بواسطة المخابرات الخارجية في ألمانيا الشرقية التي تأسست عام ١٩٥٢: الدائرة الرئيسية الخامسة عشرة المعروفة باسم (Hauptverwoltung Aufkärung, HVA)؛ وكان مديرها منذ تأسيسها، والدماغ المفكر لبرنامج التسلل فيها لأكثر من جيل، يدعى ماركوس جوهانز وولف ("ميشا")، وهو ابن كاتب شيوعي مشهور جدًا اضطر للنزوح إلى موسكو بعد أن تولى هتلر السلطة في البلاد.

وحينما تقاعد في عام ١٩٨٧، كان وولف يعتبر فعلاً واحدًا من أقدم وأفضل رؤوساء المخابرات الذين عرفهم الاتحاد السوفياتي.

كان أحسن عميل لديه يدعى غنتر غليوم، وهو ابن طبيب في ألمانيا الشرقية قدم المأوى والعالج للاشتراكي ـ الديمقراطي ويللي براندت عندما كان مطاردًا من الغستابو.

في عام ١٩٥٥، كان الدكتور غليوم يتولى إدارة HVA (وكالة المخابرات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية)، لذلك طلب من صديقه القديم الذي لجأ إليه وقت الشدائد، والذي أصبح عمدة برلين الغربية أن يمد يد المساعدة إلى ابنه، الذي كان ضحية التفريق في ألمانيا الشرقية.

وشعر براندت، منذ لقائهما الأول، أنه ملتزم أخلاقيًا بتأدية أية خدمة لغليوم, وبفضل مساندة براندت، وبفضل اهتمامه الجدي بالموضوع، حصل الشاب الألماني الشرقي وقرينته، (كانا ضابطين في HVA) على سمة لاجئين سياسيين في جمهورية ألمانيا الفيدرالية في سنة ١٩٥٦.

ومرت السنوات، وعملا بعد ذلك في SPD (الحزب الاشتراكي) مكرسين كل وقتهما للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في الجمهورية الألمانية الفيدرالية.

وحينما تولى ويللي براندت السلطة في عام ١٩٦٩، سنحت الفرصة أمام غليوم لتولي أحد أكبر المناصب في الدولة التي لم يصل إليها عميل قبل ذلك قط.

فقد أصبح السكرتير الخاص، والمستشار وكاتم الأسرار الأكثر إخلاصًا لرئيس الحكومة الجديد، يملك مكتبًا في رئاسة الوزراء في بون.

ومن خلال كمية المعلومات الهائلة ذات السرية التامة التي نقلها إلى HVA (وكالة المخابرات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية) وعن طريقها إلى دائرة KGB كان يوجد التقرير المفصل للسياسة الجديدة "Ost Politike" لألمانيا الفيدرالية، التي كانت تهدف إلى نسخ الروابط الرسمية الأولى مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية RDA وبقية بلدان الشرق.

وكانت الصدمة لاكتشاف خيانة غليوم كبيرة جدًا، فاضطر ويللي براندت بعدها مباشرة، أي في عام ١٩٧٤، لتقديم استقالته.

في الحقيقة، كان غليوم أحد أشهر الجواسيس المتسللين داخل الجمهورية الفيدرالية.

وفي عام ١٩٥٨ قال أحد الهاربين من HVA مقدرًا وجود ألفين إلى ثلاثة آلاف عميل ميداني، وأكثر من ذلك العدد كانوا مستترين.

جدير بالذكر أن ماركوس وولف، اتبع في منتصف الخمسينات استراتيجية ناجحة جدًا: "الهجوم على السكرتيرات"، بحيث كان يقترب من السكرتيرات العازبات، في الإدارة، اللواتي فاتهنّ قطار الزواج، ثم يعمل على استمالتهن وإغرائهن للتوصل بواسطتهن إلى المعلومات الحساسة. وكان من بين الضحايا "إرمغارد رومر" التي كانت أكثرهن شهرة. وكانت تلك السكرتيرة ذات الأربعة والأربعين عامًا، موظفة في وزارة الخارجية في بون؛ وكانت مسؤولة عن الاتصالات بين السفارات الألمانية في العالم؛ لذلك كانت تؤمّن مجموعات من الوثائق لعشيقها كارل هيلميرز، وهو عميل "غير شرعي" في HVA، كان معروفًا باسم "كازانوفا الأحمر" بعد إلقاء القبض عليه في العام ١٩٥٨.

تجدر الإشارة إلى أن عددًا آخر من "الكازانوفات الحمر" الذين كان يرسلهم ماركوس وولف قد حلوا محله في السنوات العشرين اللاحقة[١]...

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ص٥٠٢ ـ ٥٠٦.

نظام البابويّة في الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة

منذ العصور المبكرة، كانت الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة بحاجة إلى المعلومات والمخابرات. وحينما كانت الكنيسة تصارع، في البداية، من أجل الحياة والبقاء في إطار النظام القهريّ التعسّفيّ في روما، كانت الاستخبارات مسألة حياة. وكان المسيحيّون الأوائل قد أُصيبوا بالخوف والهلع بطبيعة الحال. وبانتشار المذاهب وتعاليم المسيح، انتشرت قوّة وتنظيم الكنيسة كذلك. وكان جمع المعلومات الجاسوسيّة المبكرة للبقاء سرعان ما حلّ محلّه جمع المعلومات من أجل إبقاء الباباوات على معرفة بولاء وإخلاص الكاردينالات والدول. وطالما أنّ معظم أوروبّا أصبح كاثوليكيًّا، كان ضروريًّا للبابا أن يحافظ على سلطته من خلال ولاء وطاعة المؤمنين المتديّنين. وكان الفاتيكان يجمع المعلومات الاستخباريّة عن طريق رجال الدين في الفاتيكان أنفسهم والنبلاء الموالين للبابا. وكان هؤلاء العملاء يكتبون التقارير عن شؤون ومسائل مثل العقيدة والتبرّعات الماليّة والطاعة والامتثال للأوامر البابويّة. وعن طريق انتشار الكنيسة وقوّتها الماليّة والسياسيّة وتطوّرها، أضحى جهاز الاستخبارات وحشد المعلومات جزءًا لا يتجزّأ من العمليّات الحيويّة اليوميّة.

وفي عهد ديوان ومحكمة التفتيش الكاثوليكيّة التي نشطت في القرنَين الخامس عشر والسادس عشر التي كانت مهامُها اكتشاف الهراطقة ومعاقبتهم، كان الجواسيس من الفاتيكان يكتبون التقارير عن أولئك الهراطقة وعن سلوك المحقّقين. وفي خلال مرحلة الإصلاح البروتستانتيّة، ازدهرت وظيفة جواسيس البابويّة الكاثوليكيّة. وفي

إطار نفوذ البورجوازيّة وبابويّة أفينيون، وهي عبارة عن نظام بابويّة منفصل وفرنسيّ، كان كلّ من البابا هنا وهناك يقومون بالتجسّس على بعضهم بعض. إلاّ أنّ الشبكة الرومانيّة كسبت وفازت ودعّمت من قبضتها على الكنيسة حول العالم. واليوم، معظم استخبارات وجمع المعلومات الخاصّة بالكنيسة يقوم على أساس مقدرتها على الازدهار في الدول التي ليست على مراعاة للدين وتتّخذ منه موقفًا عدائيًّا.

وكانت السياسة الرسميّة للكنيسة، دائمًا، عبارة عن معاداة للسوفيات الماركسيّين والتوسّع الشيوعيّ والإيديولوجيّة الماركسيّة، على الرغم من أنّ عددًا من القساوسة والراهبات في أميركا اللاتينيّة كانوا يتورّطون في أنشطة موالية للشيوعيّة. ورجال الدين في روما حانقون على هذا. والموقف الرسميّ هو التنزّه عن المواقف والتوجّهات السياسيّة. وهذا أمر عسير في الغالب، لأنّ القوّة والسلطة وزمرة وعصبة السلطان، في كثير من الدول، تتألّف من رجال الدين.

إنّ الشبكة الاستخباريّة، حتّى حينما تكون غير رسميّة، تمدّ البابا بالمعلومات الهامّة الضروريّة للسياسة في العديد من الدول. أمّا سياسة البابا يوحنّا بولس الثاني في ما يتعلّق ببولندا، وانتقاده العلنيّ للاتّحاد السوفياتيّ فهو بمثابة سبب رئيسيّ في أنّ البوليس السريّ البلغاريّ ومخابرات الاتّحاد السوفياتيّ مشتبه فيهما في محاولة اغتيال البابا وتدبير المؤامرة.

إنّ الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة كانت حليفًا لأولئك الذين يعادون الشيوعيّة، وهي أيضًا مصدر استخباريّ هامّ للدول التي تعارض الشيوعية[1].

---

١ ـ لجنة من الباحثين، وكالة المخابرات الأميركيّة، وثائق سريّة، مترجم عن الإنكليزيّة بإشراف طلعت غنيم حسن، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٣) ص٢٥ ـ ٢٧.

جيمس أنغلتون ومهمّته الفاتيكانيّة

مثلها كمثل الكثير من العمليات الاستخباراتية، فهي بدأت بهدوء تام، وكان "فينسنت سكامبوريني"، رئيس محطة مكتب الخدمات الاستراتيجية في روما المحررة حديثًا خلال ١٩٤٤، قدم تقريرًا عن استلام قصاصة من المعلومات الاستخباراتية تضمنت وعدًا عظيمًا، شريطة استعداد مكتب الخدمات الاستراتيجية للدفع إلى حاملها ١٢٥ دولارًا في الشهر.

وكان هذا مبلغًا من الدولارات كبيرًا جدًا في العام ١٩٤٤، حتى أن مسؤولين كبارًا في مكتب الخدمات الاستراتيجية فكروا طويلاً وعلى نحو جاد قبل الموافقة أخيرًا على دفع النقود. وكان المستلم، الذي عُرف في برقية مكتب الخدمات الاستراتيجية تحت اسم "فيزيل"، قدّم وعدًا عظيمًا مقابل النقود. وزعم أن لديه خطًّا مباشرًا للحصول على المعلومات من مستويات عليا في الفاتيكان، كما أنه، من بين أشياء أخرى، يملك حرية الوصول إلى محادثات سرية جرت بين الممثل الياباني والمسؤولين في الفاتيكان، ومن بينهم البابا بيوس الثاني عشر. وقال "فيزيل" إن الممثل الياباني كان يبحث مع مسؤولين في الفاتيكان إمكانية التوصل إلى صيغ سلام مختلفة بحيث تأمل طوكيو من ورائها أن تؤدي إلى نوع من تسوية متفاوض عليها مع الولايات المتحدة. وزعم "فيزيل" أن اليابانيين يسعون إلى تجنب قيام الأميركيين بغزو الجزر اليابانية، وهو غزو يؤدي إلى تكلفة في أرواح الأميركيين، وفي الوقت نفسه تدمير اليابان كمجتمع صناعي حديث.

في ظل قرار مكتب الخدمات الاستراتيجية شراء المعلومات الاستخباراتية التي عرضها "فيزيل"، بدأت في الحركة سلسلة من نتائج لم يكن أحد معنيّ بالعملية يتوقعها. ومثل الموجة الصغيرة الناشئة عن رمي حجر في بركة، فإن "فيزيل" أرسل موجات من صدمة في كل اتجاه. ومن غير ترتيب معين، فإن هذه الموجات تضمنت واحدًا من أخطر قرارات الاستسلام الجماعي في التاريخ، وبرنامجًا من عمل سري هائل لمنع دولة غربية من التحول إلى دولة شيوعية تابعة، وكيفية تجنيد "جيوفاني باتيستا مونتيني"، أو كما هو معروف في التاريخ: قداسة البابا بولس السادس، كجاسوس نافع للاستخبارات الأميركية.

في وقت مبكّر من العام ١٩٤٤، وصل إلى روما "جيمس أنغلتون"، البالغ من العمر ٢٧ عامًا ورئيس فرع مكافحة التجسس التابع لمكتب الخدمات الاستراتيجية في العاصمة الإيطالية. وحين التحدث إليه عن عملية "فيزيل"، أعرب أنغلتون على الفور عن تشككه في الأمر. وكما كان يعرف من قبل، فإن الفاتيكان في عالم الاستخبارات مجتمع غامض، ولا سبيل إلى التغلغل إليه، وعلى رأسه "المنعزل" البابا بيوس الثاني عشر. كيف، إذن، تمكن "فيزيل" من التغلغل إلى هذا العالم المغلق واكتشاف أشد المحادثات سرية؟ وكان كلما بحث أنغلتون أكثر في المعلومات الاستخباراتية التي قدمها "فيزيل"، أصبح أكثر اقتناعًا بوجود شيء خطأ. واستنتج أنغلتون أن "فيزيل" ربما كان يحمل معلومات مخادعة، وربما كانت معلومة مزروعة من جانب الاستخبارات اليابانية لتضليل الأميركيين. أو ربما كان يحمل معلومات روسية، ذلك أن هناك عددًا كبيرًا من تقارير "فيزيل" تحدثت عن الأهمية التي يوليها اليابانيون إلى دور الاتحاد السوفياتي في أيّ تسوية للحرب مع الولايات المتحدة، ولذلك، فربما كان الروس عكفوا على تمرير معلومات استخباراتية لتعزيز دورهم في آسيا اللاحقة على الحرب. وكما

عرف مكتب الخدمات الاستراتيجية من مصادر أخرى من قبل، فإن الروس كانوا تواقين إلى الحصول على نفوذ رئيسي في المناطق التي يحتلها اليابانيون في منشوريا وكوريا واليابان نفسها.

على الرغم من اقتناع مراكز القيادة في مكتب الخدمات الاستراتيجية بأن معلومات "فيزيل" كانت حقيقية وذات أهمية بالغة، فإن أنغلتون شرع في تأكيد شكوكه بأنها ليست كذلك. وتحرك على جبهتين، الأولى هي أن أنغلتون وضع بعض عملائه للعمل في مجال كشف النقاب عن مصدر معلومات "فيزيل"، والثانية هي أنه شرع في تجنيد مصدر رفيع المستوى في الفاتيكان يمكنه تأكيد ما إذا كانت المحادثات التي تحدث عنها "فيزيل" جرت فعلاً. وكانت هذه المهمة الأخيرة هي الأصعب، ولكن أنغلتون نجح في تحقيق التجنيد الأهم في تاريخ الاستخبارات في كل العصور. وكان اسمه "جيوفاني مونتيني".

أما كيف تمكن هذا الضابط من مكتب الخدمات الاستراتيجية صاحب الأذنين العريضتين من تدبير تجنيد الأسقف الكاثوليكي جدًا صاحب الأنف المستدق والوجه الرقيق، فهذا يبقى لغزًا. ولم يكن أي من أنغلتون أو مونتيني ناقش هذا الأمر من قبل، ولكن النتيجة هي أن الأميركيين أصبحوا يملكون موردًا لا يقدر بثمن. ومن الناحية الرسمية، فإن أنغلتون قام بتجنيد مونتيني من أجل غرض واحد، وهو متابعة التسرب داخل الفاتيكان الذي وجد طريقة إلى تقارير "فيزيل"، ولكن كما كان ربما يعرف الرجلان، فلم يكن ذلك نهاية العلاقة.

مهما يكن من أمر، فإن مونتيني برهن عن كونه موردًا لا يقدر بثمن في عملية التحقيق التي قام بها أنغلتون بشأن "فيزيل". وبعد قيامه بفحص دقيق لنسخ تقارير "فيزيل" المشتراة من جانب مكتب الخدمات الاستراتيجية، أعلن مونتيني عن مفاجأة

تتصل بقضية الضابط: ليس هناك تسرب في الفاتيكان. واستنتج مونتيني أن معلومات "فيزيل" لا علاقة لها بالمرة بالمحتوى الحقيقي للمناقشات الدبلوماسية داخل الفاتيكان، وعلى الأخص تلك التقارير المتعلقة بالمحادثات المزعومة مع الممثل الياباني. وفي حقيقة الأمر، كما أبلغ مونتيني الضابط أنغلتون، فإن هذا الرجل الذي جاء من طوكيو كان يتخبط... ومن واقع تلقيه معلومات متناقضة من مجلس وزراء ياباني منقسم على نفسه، فإنه كان يحاول أن يفعل كل ما يستطيع من أجل تجميع نوع من صفقة سلام، وهي صفقة لا يجد أي دبلوماسي مجرب صعوبة في التأكد من أنها لن تكون مقبولة لدى الأميركيين. وكما أبلغ مونتيني نفسه الممثل الياباني، فإن الأميركيين لن يتمكنوا على الأرجح من قبول عرض بالسلام من شأنه ترك الحكومة الخاضعة لهيمنة العسكريين في طوكيو في السلطة، كما أن الأميركيين لن يتقبلوا أيضًا فكرة احتفاظ اليابان بسيطرتها على الأراضي الصينية التي احتلتها.

وتكشفت الحقيقة الآن: "فيزيل" كان خدعة تامة، واحدة ذكية، ولكنها خدعة قائمة على الاحتيال في الوقت نفسه. ولكن ما هو الدافع إلى ذلك؟ ولحساب من كان يعمل "فيزيل"؟ وجاءت الأجوبة حينما تمكن أنغلتون أخيرًا من اكتشاف المحرضين لعملية "فيزيل". والرجل الرئيسي في الصفقة الذي قام أولاً بمفاتحة مكتب الخدمات الاستراتيجية كان روسيًّا مبعدًا يدعى "دوبينين". وظن أنغلتون، وكان على صواب في ظنه، أن دوبينين، السمكة الصغيرة، ربما كان مجرد صورة ظاهرية لرجل حقيقي، أو ربما لجهاز استخبارات، وراء الاسم الرمزي "فيزيل".

وكما تبين في نهاية الأمر، فإن "فيزيل" برهن عن كونه موضوعًا أقل مما كان متصورًا. واكتشف أنغلتون أن "فيزيل" كان "فيرجيليو ساكتوليني"، وهو صحفي قصير القامة، وممتلئ الجسم، ومؤلف يستمد مطلبه في الشهرة من الكتابات الإباحية.

قضية "فيزيل" جعلت أنغلتون واحدًا من أشهر عملاء مكافحة التجسس في مكتب الخدمات الاستراتيجية (بعد سنوات قليلة أصبح رئيسًا لقسم مكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA) غير أن صداقته التي أصبحت حميمة مع مونتيني وعدت أيضًا بمكافآت أعظم. وبرهنت العلاقة عن كونها لا تقدر بثمن في أوائل ١٩٤٥، حينما قام قائد الحرس الخاص للزعيم النازي في ألمانيا، مستخدمًا الفاتيكان كجهة وسيطة، بالتفاوض مع مكتب الخدمات الاستراتيجية من أجل استسلام كل قوات المحور في شمال إيطاليا. وكانت هذه الصفقة، التي بموجبها ألقى حوالي نصف مليون من قوات المحور أسلحتهم مقابل منح العفو عن جرائم الحرب للمسؤولين المعنيين في قيادة الحرس للزعيم النازي، انتصارًا لمونتيني، الذي قام بدور الوسيط في هذه الصفقة، ذلك أنه أنقذ الصناعات الحيوية في شمال إيطاليا من الدمار الحتمي الذي كان يمكن أن ينشأ عن حملة عسكرية واسعة النطاق .

وبعد ثلاث سنوات، قام مونتيني بدور حاسم أيضًا، وهذا الدور يتعلق بوجود إيطاليا ذاتها. وفي هذا الوقت، كان مونتيني حصل على ترقية إلى منصب أسقف ميلان، أحد أقوى المناصب في الكنيسة الإيطالية ونقطة الانطلاق إلى البابوية. وبالإضافة إلى ذلك، فلم يستمر مونتيني في الإبقاء على علاقته القوية داخل الفاتيكان فحسب، وإنما كان أيضًا رئيس العمل الكاثوليكي، وهو عبارة عن مجموعة كاثوليكية للعمل السياسي يقدّر عددها بالملايين. وهذه المجموعة شكلت القوة المضادة الضرورية للقوة المتزايدة للحزب الشيوعي الإيطالي، الذي كان من المتوقع على نطاق واسع أن يتولى السلطة في الانتخابات الوطنية في ١٩٤٨. ومثل هذه النتيجة لم تكن أمرًا يمكن تصوره من جانب واشنطن، ولهذا شرعت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA في عملية سياسية سرية. وكان أنغلتون واحدًا من الضباط القائمين على

هذه العملية السرية، ولجأ مرة أخرى إلى صديقه مونتيني... واستجاب الأسقف من خلال تحريك المجموعة الكاثوليكية للعمل السياسي، كما أجرى اتصالات مكثفة شملت كل أنحاء المسرح السياسي الإيطالي طلبًا للمساعدة في عملية وكالات الاستخبارات المركزية الأميركية CIA. وفي النهاية، أدى تضافر النقود الأميركية، والجهود العظيمة من جانب المجموعات السياسية غير الشيوعية في إيطاليا، والمساعدات الكبيرة من جانب الفاتيكان، إلى التغلب على الأمر بصعوبة. وفشل الشيوعيون في الحصول على الأغلبية، ومع أنهم بقوا قوة في السياسات الإيطالية لعدة سنوات لاحقة، فإن أيام مجدهم انقضت.

ومن جانبه، كانت هناك أعمال معروفة هامة قدّمها أنغلتون تقديرًا لأعمال المعروف التي قدمها مونتيني. وكان أنغلتون هو الذي ساعد في إعادة توطيد سيطرة الفاتيكان على الكنائس الكاثوليكية في جنوب ألمانيا، وهي منطقة داخل منطقة الاحتلال الأميركي. وكان أنغلتون أيضًا هو الذي ساعد الفاتيكان في إعادة توطيد اتصالاته مع الأبرشيات الكاثوليكية الهامة في غرب يوغوسلافيا. وهناك ترتيبات أخرى مماثلة ساعدت في تعزيز علاقة أنغلتون ـ مونتيني. وكان من شأن هذه العلاقة إحداث شيء غير متوقع في ١٩٦٣، ذلك أنه جرى اختيار هذا الدبلوماسي في الفاتيكان إلى منصب البابا بولس السادس. ومع أنه محافظ ومتشدد في التمسك بالمبادئ والطقوس الكنسية، وقام بفرض الامتناع الإجباري عن الزواج بالنسبة لجماعة الكهنة، والمعارضة الشديدة من جانب الكنيسة لكافة أشكال منع الحمل، فإن مونتيني مع ذلك بقي سياسيًا براغماتيًا. وحتى قبل موته في ١٩٧٨ بسبب أزمة قلبية، كان مونتيني يقيم علاقة وثيقة مع الاستخبارات الأميركية، وفي الوقت نفسه بدأ في مفاوضات أوليّة نحو إعادة توطيد سلطة الكنيسة في أوروبا الشرقية.

والتفاصيل الدقيقة حول ماهية التعاون الإيجابيّ الذي تمّ بين البابا بولس السادس والاستخبارات الأميركية غير معروفة، ولكن من المعروف أنه بعد انقضاء ١٤ عامًا على وفاته، قدّم أحد خلفائه، البابا يوحنّا بولس الثاني، مساعدات إلى حركة التضامن البولندية... وهذا البابا نفسه أوصى بمنح جيوفاني مونتيني درجة القداسة[1].

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٣٧٣ ـ ٣٧٦.

في أوروبّا الشرقيّة

ألفرد ريدِل: دمّره الطيش والهوى

ربما كان من الممكن القول إن هانز واغنر، لو شارك في مباراة مع فريق ستورم لكرة القدم في ٢٥ أيّار ـ مايو ١٩١٣، ما كان يمكن لأحد أن يعرف هوية ذلك الخائن الأعظم في التاريخ، وواحدة من أعظم أفعال التستر في كل العصور.

كان واغنر بمثابة اللاعب النجم في فريق ستورم للهواة، وهو أحد أقوى الفرق الرياضية في براغ. وحينما كان من المقرر، وفق جدول المباريات، أن يخوض ستورم مباراة ضد فريق يونيون القوي في يوم الأحد من ذلك الربيع، كان فريق ستورم يعتمد اعتمادًا كبيرًا على مستوى أداء واغنر الرفيع في المباريات، وعلى مواهبه في تحقيق الفوز. ولكن واغنر، صانع الأقفال، جرى استدعاؤه للقيام بمهمة عاجلة قبل وقت قصير من موعد المباراة، الأمر الذي أثار غضب زملائه اللاعبين في الفريق، وخسر ستورم ٧ ـ ٥ تبعًا لذلك.

وكان واغنر يستعد للمشاركة في مباراة كرة القدم بعد ظهر ذلك اليوم حينما وصل كابتن وجنرال في الجيش النمساوي ـ الهنغاري، بملابسهما العسكرية الكاملة، إلى بيته فجأة، وطلبا منه ضرورة الحاجة للقيام بمهمة على نحو عاجل: فتح أقفال الأبواب

المقفلة في بيت. وحينما أعرب واغنر عن اعتذاره بأنه في طريقه اليوم للمشاركة في مباراة هامة في كرة القدم، قيل له إن المهمة "ذات مهمة وطنية ملحة". وذهب بصحبة الضابطين إلى بيت في قطاع ممتاز من البلدة، وفتح قفل الباب الأمامي، وبعد الدخول، تلقى تعليمات بفتح عدد من أقفال الخزائن المغلقة والغرف الصغيرة. وقام واغنر بهذه المهمة بسهولة بالغة، ولكنه أظهر استهجاناً تجاه الأسباب التي جعلت كل جزء في هذا البيت يعج بالخرائط والوثائق والرزم السميكة من النقود الورقية. وعلى ما يبدو، فمن خلال توقعهما اشتداد الرغبة في حب الاستطلاع عند واغنر، اضطر الضابطان إلى تحذيره من مغبة التحدث إلى أي شخص عما رآه في هذا البيت. وفي حقيقة الأمر، فهو تعهد بعدم ذكر أنه كان هناك في يوم ما. وكمحاولة لضمان التزامه المستقبلي بالسرية، قام الضابطان بوضع مبلغ من النقود بسخاء في يد واغنر.

كان يمكن أن يبقى واغنر ملتزمًا بالصمت لولا حدوث مشاجرة غاضبة في تلك الليلة مع زملائه اللاعبين الغاضبين. وأراد هؤلاء الزملاء أن يعرفوا الأسباب التي جعلته يمتنع عن المشاركة في المباراة. وأجاب واغنر ببساطة أنه ذهب للقيام بمهمة. وحينما لم يعمل ذلك على تهدئتهم، أخبرهم عن لقائه غير المتوقع مع ضابطين في الجيش، وعن ذلك البيت والمجموعة النفيسة من الأوراق والنقود الموجودة فيه. وأشار واغنر إلى ذلك التحذير الذي تلقاه بعدم التحدث عن أي شيء، وذلك على الرغم من أنه استنتج على ما يبدو أن البيت يخص أحد الضباط من زملاء هذين الضابطين اللذين قاما باستئجاره للقيام بهذه المهمة. وعندئذٍ، تنبه أحد الزملاء اللاعبين بحذر شديد: قبل يومين، سمع عن انتحار الكولونيل ألفرِد ريدل من رئاسة الأركان العامة للجيش النمساوي - الهنغاري. وكان الجيش بذل جهودًا كبيرة لجعل أخبار الانتحار بعيدة عن العامة. هل كان هناك ارتباط بين الانتحار والتفتيش في هذا البيت الذي يعج بالوثائق؟

لم يكن هذا واحدًا عاديًا من لاعبي كرة القدم يطرح سؤلاً، وكان في الحقيقة واحداً من محرري جريدة "براغر تاغبلات" اليومية الواسعة الانتشار في براغ. وذهب فوراً إلى العمل، ومع حلول اليوم التالي كان لديه تقرير مكتوب بعناية، وهو تقرير أثار ضجة علنية عامة، ذلك أنه ذكر أن ريدل كان جاسوسًا روسيًا. (والمكافئ الحديث لذلك هو القول إن الجنرال الأميركي كولن بوويل جاسوس يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي "KGB"). وكان الاحتمال بإمكانية أن يكون ريدل، وهو أحد نجوم المؤسسة العسكرية النمساوية ـ الهنغارية، والرجل الذي شكلت مهنته اللامعة مصدرًا للإلهام في نظر جيل كامل من الضباط الشاب، ارتكب خيانة احتمالاً لا مجال للتفكير فيه.

في حقيقة الأمر، فإن الظروف المهنية التي لازمت ريدل جعلت إمكانية فهم خيانته أمرًا بالغ الصعوبة. وكان ألفرد ريدل الصغير واحدًا من بين ١٤ ولدًا من أولاد موظف نمساوي فقير في هيئة السكة الحديدية، وذهب إلى المدرسة العسكرية في الرابعة عشرة سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش في وقت لاحق، على أمل أن يصبح ضابطًا، وذلك برغم حقيقة أن كوادر الضباط تقوم على نظام اجتماعي قوامه التمييز الطبقي على أساس المنزلة الأرستقراطية والثروة. ولكن ريدل كان واحدًا من أفضل العقول اللامعة التي شهدها الجيش: إجادة ست لغات وعبقرية تنظيمية، ومع حلول العام ١٩٠٠ اعتبر مرشحًا لمنصب رئيس الأركان العامة.

في ذلك العام، جرت تسمية ريدل لتولي منصب رئيس دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ـ الهنغاري KS، بأوامر لإعادة تنظيمها وتنشيطها. وسرعان ما استجابت دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ـ الهنغاري KS لتوجيهات ريدل، وبدأت في ملاحقة عدد من الشبكات التي يديرها "أوخرانا"، وهو جهاز الاستخبارات

التابع للدولة المعادية لامبراطورية النمسا ـ هنغاريا، وهي روسيا القيصرية. وكان المسؤولون في دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ـ الهنغاري KS مسلحين بسلسلة من الأدوات التي اخترعها ريدل، وهي في معظمها أصبحت في وقت لاحق أدوات معيارية لمكافحة التجسس: البصمات، وملفات صور جميع الجواسيس النافعين المشبوهين، ومراقبة المنشقين السياسيين، والتنصت على غرف الاجتماعات. (في زمن ريدل كان التنصت يتم عن طريق استخدام سلندرات فوتوغرافية من الشمع).

أبدى الروس، الذين لم يشعروا بالارتياح تجاه مجرى الأحداث، اهتمامًا كبيرًا بعمليات ريدل، وقرروا معرفة الحلقة الأضعف في ريدل نفسه: الشيء الذي بعث على الشعور بالرضا عند جهاز الاستخبارات القيصري "أوخرانا" هو أنه عرف أن الكولونيل النمساوي ـ الهنغاري مولع بمغازلة الأولاد الأطفال. وفي ظل معرفته لهذه المعلومة التي لا تقدر بثمن، قام جهاز الاستخبارات القيصري "أوخرانا" بتدبير لقاء بين ريدل وولد صغير، وجرى التقاط بعض الصور الفوتوغرافية المشبوهة، وهكذا وقع الكولونيل في المصيدة.

وفي بادئ الأمر، ساد الاعتقاد أن هذه الصور الفوتوغرافية تحمل في طياتها كل مبررات عمليات الابتزاز الكلاسيكية. ولكن تبين في وقت لاحق أن الكولونيل ريدل يحب النقود كثيرًا أيضًا، وهكذا بدأ الروس بسعادة في دفع مبالغ نقدية هائلة، حتى أن الرقم وصل إلى أكثر من ١ مليون دولار في ١٩١٣. وحصل الروس على أفضل صفقة، ذلك أن ريدل أعطاهم كل شيء باستثناء مجوهرات التاج. وقام بإعطائهم جميع أسماء العملاء النمساويين ـ الهنغاريين العاملين في روسيا، والتفاصيل الكاملة عن عمليات دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ـ الهنغاري KS، والخطط العسكرية الكاملة لحركة السكة الحديدية النمساوية الموضوعة للاستخدام في حالة

نشوب الحرب، وأنظمة الشيفرة العسكرية النماسوية ــ الهنغارية، والرسومات التخطيطية للتحصينات والمنشآت العسكرية، ولكن الأشد ضررًا من هذا كله هو الخطة الثالثة الكاملة، وهي الخطة التفصيلية للتعبئة العامة ونشر القوات النمساوية ـ الهنغارية الموضوعة للاستخدام في حالة نشوب الحرب مع الروس.

وكان ريدل يملك حرية الوصول إلى كل شيء والسبب في ذلك هو أنه في ١٩٠٥ جرى ترفيعه إلى منصب رئيسي الأركان للفيلق الثامن، وهو الوحدة العسكرية الأهم في الجيش النمساوي ـ الهنغاري. ومن خلال هذا المنصب، كان ريدل منهمكًا في كافة مجالات خطط التعبئة العسكرية والاستخبارات الهامة الأخرى، وهذا كله وجد طريقه إلى الروس. وفي ١٩٠٨، كان ريدل قادرًا على تحذير روسيا من الضم النمساوي الهنغاري للبوسنيا والهيرسك، وهو فعل أدى إلى التحالف بين روسيا وصربيا الغاضبة، مع ما نشأ عن ذلك من نتائج ما زالت أصداؤها تتردد حتى اليوم.

ومع هذا، فإن التحالف النمساوي ـ الهنغاري لم يكن يعرف أن أسراره أصبحت كتابًا مفتوحًا أمام الروس. ولم يتأكد من حدوث الكارثة إلا في أذار ــ مارس ١٩١٣ حينما لاحظ عدد كبير من عملاء دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ــ والهنغاري KS الذين كانوا مخصصين لمراقبة الرسائل البريدية عبر مناطق الحدود، شيئًا مثيرًا للانتباه. وكان هؤلاء العملاء عثروا على رسالتين، وكل منهما كانت معنونة إلى صندوق بريد في فيينا ومرسلة من إيديث كوهنين في بروسيا الشرقية بالقرب من الحدود الروسية. وقام عملاء دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ــ الهنغاري KS بفتح الرسالتين، ووجدوا ٦،٠٠٠ كرونين في واحدة، و٨،٠٠٠ كرونين في الأخرى (حوالي ٢،٧٠٠ دولار، وهو متوسط الراتب السنوي للعامل في تلك الأيام). ولم تكن هناك رسالة مكتوبة، أو ملاحظة صغيرة، وكانت هناك نقود فقط. وقام هؤلاء

العملاء بإغلاق الرسالتين وإرسالهما في البريد مع التوصية بتكوين مجموعة مراقبة لمعرفة الشخص الذي يقوم باستلام الرسالتين.

واقتفى عملاء دائرة مكافحة التجسس في الجيش النمساوي ـ الهنغاري أثر الرجل بملابس مدنية الذي وصل أخيرًا لاستلام الرسالتين. وقام هؤلاء العملاء بتعقب خطواته إلى أحد الفنادق، وكشفت عملية التحقق من السجل أن اسم الضيف هو ألفرد ريدل. واتصل العملاء هاتفيًا مع المسؤولين في مقر القيادة، الذين شعروا بالصدمة، الكولونيل ريدل؟ لا بد أن هناك غلطة ما.

ولكن لم تكن هناك غلطة. وحينما وصلت كلمة إلى رئاسة الأركان العامة عن خيانة ريدل، جرى وضع خطة عمل، وهي خطة بلغت حد التستر على الأفعال. وقامت هذه الخطة على إعطاء ريدل مسدسًا لاستخدامه وفق الطريقة العسكرية التقليدية: الانتحار. وبعدئذ، يصار إلى شرح الأمر إلى العامة من خلال القول إن ريدل انتحر تخلصًا من "عناء العمل المفرط". وتقرر أن يعرف عشرة من كبار ضباط الجيش فقط ماهية الظروف الحقيقية التي أفضت إلى موت ريدل. وبحلفهم اليمين التزامًا بالسرية، ما كان من الممكن أن تتسرب كلمة عن خيانة الكولونيل. ولم يتم حتى إبلاغ الامبراطور فرانز جوزيف بحقيقة الموت المشرف لهذا الكولونيل.

بعد أيام قليلة، ذهب أربعة ضباط، بنظرات متجهمة وملابس كاملة، إلى الغرفة في الفندق التي كان ريدل ينزل فيها. وقال ريدل: "أعرف الأسباب التي جئتم من أجلها". وطلب مسدسًا، وقام أحد الضباط بإعطائه إياه. ومن خلال انحناءة دالة على الشكر، طلب ريدل أن يترك وشأنه وحيدًا في الغرفة، وانتظر الضباط خارج الباب الأمامي. وفي غضون برهة قصيرة، سمعوا صوت طلقة نارية. ولما دخلوا مجددًا الغرفة،

وجدوا ريدل متمددًا باسطًا ذراعيه وقدميه أمام مرآة كبيرة. وكان ريدل وقف أمام المرآة، وراقب نفسه أثناء إطلاق النار على دماغه.

بدأت المرحلة التالية من أفعال التستر على الأفعال حين دخول بيت ريدل من أجل تأكيد الدلائل. وحينما لم يستطع الضابطان المخصصان للمهمة العثور على مفاتيح ريدل، قاما باستئجار صانع أقفال. وكان يمكن أن تنجح فكرة هذا العمل لولا أن هانز واغنر، صانع الأقفال، اضطر إلى شرح أسباب غيابه عن المباراة أمام زملائه اللاعبين الغاضبين. وكان التقرير الأول الذي نشر على صفحات الجريدة لم يعمل إلا على تعاظم الرغبة عند العامة في طلب المزيد، وفي غضون بضعة أيام، كانت هناك فضيحة كاملة أمام الحكومة النمساوية ـ الهنغارية. ومثلها كمثل القوة العسكرية المتقهقرة أمام جيش قوى من الأعداء، فإن القيادة العليا العسكرية قدمت تقريرًا بعد آخر، وكل تقرير كان يتضمن معلومات جديدة. وشيئًا فشيئًا، ظهرت الحقيقة كلها، ولكنها أصبحت غير ذات أهمية إلى حد ما مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وعندئذ فقط أصبح تأثير خيانة الكولونيل ريدل واضحًا. ومع أن القيادة العليا النمساوية ـ الهنغارية كانت تعرف أن الروس يملكون الخطة الثالثة، فإن مثل هذه الخطة، التي اشتملت على برامج التعبئة العامة وتحريك الجنود وتموينهم وإيوائهم، كانت معقدة جدًا ومكتوبة في الغالب في عدة مجلدات. ولم يكن من السهل تغيير الخطط، ولذلك فإن النمساويين والهنغاريين ذهبوا إلى الحرب في مواجهة عدو كان يعرف خططهم الرئيسية، ونتيجة لذلك، عانى النمساويون والهنغاريون من كارثة عسكرية في غاليسيا، وتكبدوا خسائر في الأرواح بلغت ٥٠٠،٠٠٠ رجل، وهي هزيمة لم يكتب لهم الشفاء منها. وبعد أقل من أربع سنوات، انهارت الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية في صندوق مزبلة التاريخ.

أدى انتحار ريدل إلى الحيلولة دون القيام ببحوث كاملة للعملية الفعلية التي انتهت به إلى الخيانة. وترك ريدل فقط ملاحظة انتحار قصيرة شرحت القليل جدًا: "دمرني الطيش والهوى، صلوا من أجلي، وإنني أدفع حياتي الآن ثمنًا لذنوبي"[١].

المخابرات في أوروبّا الشّرقيّة إثر الحرب العالميّة الثّانية

كانت إحدى مهمات جهاز الـ"سمرش" الاستخباراتي السوفياتي وكذلك جهازي NKVD/NKGB، وحسب التاريخ الرسمي، هي: "مساعدة شعوب البلدان المتحرّرة على إنشاء وتوطيد حكومات وطنية حرة": والمقصود بكلمات أخرى هو إقامة "ديمقراطيات شعبية" على طول الحدود الغربية للاتحاد السوفياتي... وهذه كانت إحدى أولويات جهاز الـMGB في عهد أباكوموف، عام ١٩٤٤. وخلال حديث له مع الشيوعي اليوغوسلافي "ميلوفات دجيلاس"، تبنّى ستالين مبدأ القرن السادس عشر التالي: "Cujus Regio, Ejus Religio" والذي يسمح للسلاطين بفرض ديانتهم على بلادهم: إذ قال ستالين: إن "هذه الحرب تختلف عن الحرب السابقة؛ فمن يحتل الأرض يفرض كذلك نظامه الاجتماعي. ويتصرف المرء على هذا النحو بقدر ما يمكنه جيشه من ذلك"[٢].

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٢٣٦ ـ ٢٤٢.

٢ ـ Djilas Milovan, *Conversations With Stalin,* Rupert Hart-Davis (London, 1962), P. 205

لقد تم فرض "الديمقراطيات الشعبية" على بلدان أوروبا الشرقية بالقوة وبالخدعة المدبّرة، ولعبت MGB/NKGB دورًا أساسيًا في هذا المجال. ومن بين الأشخاص الذين ساهموا بهذه العملية، هناك العديد من المرتهنين والانتهازيين ممن خضعوا كرهًا للضغوط السوفياتية. وهكذا وُجدت في كل بلد من هذه البلدان أقلية، محدودة جدًا بشكل عام، من الشيوعيين أو من "رفاق الدرب"، استلهمت الإيمان الاشتراكي الذي ميّز جيل البلاشفة الأوائل والشبيبة المثالية خلال الخطة الخمسية الأولى. وقد شارك هؤلاء وجهة نظرهم الشيوعي الهنغاري "جورج هودوس"، الذي أصبح في ما بعد ضحية محاكمة ستالينية ذات إخراج ضخم، فهو يقول: "لقد كان شيئًا مفرحًا أن تكون شيوعيًا، وتخدم القضية الإنسانية وتشهد ولادة مستقبل أفضل، فبعد رعب الحرب العالمية الثانية، ها هو العالم أخيرًا وقد دخل في النظام الذي يرجى أن يكون مشرقًا... لقد بنينا هنغاريا اشتراكية تحت راية الحزب الشيوعي"[1].

لقد اختلط الإيمان بمستقبل البناء الاشتراكي بطريقة مبهمة بعبادة ستالين وذلك في كل أوروبا الشرقية. وغابت عن أذهان شيوعيي العالم أجمع حقيقة مستبد غاشم ومرتاب عليل متوارٍ وراء الصورة الخرافية لبطل جسّد رؤيتهم الخاصة لعالم أفضل. ومع نهاية الحرب، ها هو دجيلاس بالذات وكذلك أكثرية الشيوعيين اليوغوسلاف، الذين أدينو بالهرطقة بعد ذلك بقليل، يعتبرون أنفسهم ستالينيين أوفياء: "لم يكن ستالين بالنسبة لنا فقط قائدًا عبقريًا فذًا، بل كان التجسيد حتى لفكرة المجتمع الجديد والحلم به. وقد اتخذت عبادة شخصية ستالين هذه، وعبادة كل ما يرتبط بالاتحاد السوفياتي، شكلاً وأبعادًا غير منطقية... لقد كان بيننا، نحن الشيوعيّين، رجالٌ موهوبون ملكوا حسًّا

---

١ - Hodos George H.. *Show Trials: Stalinist Purges in Easterm Europe 1948-1954*, Praeger (New York,1987), P. 40.

جماليًا وثقافة أدبية وفلسفية واسعة، ومع ذلك سيطر علينا الحماس ليس فقط لأفكار ستالين، بل وكذلك للطريقة المتكاملة التي يعبر بها عن هذه الأفكار. فأثناء بعض المناقشات، لمّحت شخصيًا عدة مرات إلى أسلوبه الناصع كالبلور، وإلى منطقة الثاقب وإلى ملاءمة تعليقاته، وكأنه يعبّر بذلك عن حكمة سامية"[1].

في بُولونيا

في بولونيا، وهو البلد الذي كان التحول السياسي فيه أساسًا لاختلافات جديدة بين ستالين وحلفائه، فإن حماسًا كهذا كان نادرًا. وقد أعلن الدكتاتور عام ١٩٤٤ بأن "الشيوعية لا تلائم البولونيين، فهم فرديون وقوميون إلى حد بعيد"[2]. ويعد الحزب الشيوعي البولوني في مرحلة ما بين الحربين الحزب الأقل شعبية في أوروبا، كانت تلك حالته كذلك بين مواطنيه في موسكو، وقد اضطر للعمل سرًا، وتعرض الكثير من مناضليه للسجن. أما الشيوعيون الذين فروا إلى موسكو فتعرضوا إلى مصير أسوأ: فلم ينجُ أيّ منهم من الإرهاب الستاليني. وأما الناجون فهم المناضلون الذين كانوا، مثل القائد المقبل للحزب "لاديسلاس غوميلكا"، بمنأى نسبيّ، أي في سجون بلادهم إلى جانب عدد قليل من الأفراد كانوا في خدمة الـNKVD والذين ساهموا بتصفية رفاقهم؛ وحتى أن الحزب تلاشى من الوجود، وقد اعتبره الكومنترن محلولاً رسميًا عام ١٩٣٨.

---

١ - Djilas, *Conversations With Stalin*, PP. 15-16.

٢ - Mikolajezyk Stanislaw, *The Pattern of Soviet Domination*, Sampson Low, Marston et Co, (London, 1949), P. 112.

أدركت حركة المقاومة الرئيسية البولونية ــ أي جيش الداخل (Armak Rajowa, AK) والمعادية تمامًا للشيوعية - بمرارة، الدور الذي يقوم به السوفيات في اقتسام بولونيا عام ١٩٣٩ وأعمال الاضطهاد التي نجمت عن ذلك.

بعد الغزو الألماني، قرّر ستالين على كل حال بأن الوقت أصبح مناسبًا لإعادة ولادة الشيوعية البولونية. وفي كانون الأول - ديسمبر عام ١٩٤١، تم إنزال مجموعة من عملاء الـNKVD البولونيين بقيادة "مارسيلّي نووتكو" و"بولسلاس مولوجك" و"باقل فاندر" لإعادة الحياة لحزب ما قبل الحرب، وذلك باسم "حزب الشغيلة البولونيّ PPR". وعاد فاندر للاتصال بغومولكا وأصبح سكرتيرًا للحزب في فرصوفيا. وأنيطت بنووتكو كذلك مهمة تدمير جيش الداخل؛ وبناء على طلب NKVD، أبلغ الغستابو عن عدد من أنصار الـAK، أمّا مولوجوك، غير المدرك بأن اتصالات نووتوكو بالغستابو كانت بناءًا على مخططات الـNKVD، فقد قام بإعدامه كخائن وذلك قبل أن يُصدر بحقه هو بالذات حكمًا بالإعدام على يد محكمة حزبية. إن مصرع فاندر على يد الغستابو فتح الطريق أمام غومولكا الذي أصبح السكرتير العام لحزب الشغيلة البولوني PPR. ولم يكن هذا خيار ستالين (في وقت وافق فيه على قيادة الحزب، فإن الاتصال بالراديو مع موسكو لم يكن يعمل). وقد نظم غومولكا "الحرس الشعبي" كميليشيا شيوعية سرية تقوم بمنافسة الجيش الداخلي. وكانت قيادة الحزب تعلم علم اليقين ورغم كل شي، بأن مستقبلها مرتبط بالدعم السوفياتي أكثر من ارتباطه بالدعم البولوني... وكتب مفكّرها الرئيسي، "ألفريد لامب" قبيل موته عام ١٩٤٣ يقول: "مهما يكن نوع بولونيا فإنها لن تصبح معادية للسوفيات؟"[١].

---

١ - Rupnik Jacques, *The Other Europe*, Weidenfeld et Nicolson (London,1988), P. 85.

وفي ٢٣ تموز - يوليو عام ١٩٤٤، أوجد ستالين في لوبلن لجنة بولونية للتحرر القومي، وذلك كنوايا مستقبلية لحكومة صورية، وبينما كان الجيش الأحمر يقترب من وارسو، دعا نداء سوفياتي بالراديو الشعب للانتفاض: "لا يجب أن تضيع ثانية واحدة!... يا شعب وارسو، امتشق السلاح! أطرد الغازي الألماني وتحرر!". وفي الأول من آب أ غسطس فجّر جيش الداخل انتفاضة في وارسو، وخلال الشهرين التاليين، قاتل شعب العاصمة بيأس؛ أما الجيش الأحمر فوقف متفرجًا على الضفة الأخرى للفيستول Vistule. وفي الوقت الذي صُرِع فيه ٢٥٠,٠٠٠ بولوني، كان ستالين يطرد قادتهم باحتقار، واصفًا إياهم بقوله: "حفنة من المجرمين المتعطشين للسلطة!"؛ وعلى مدى أكثر من شهر، لم يأذن حتى للقوات الجوية الأنكلو - أميركية - التين أوصلت للمتمردين ذخيرة من إيطاليا - بأن تتزود بالوقود في المطارات السوفياتية وبأن تقوم بالعناية بجنودها من الجرحى. وبعد سحق انتفاضة وارسو على يد الألمان، لم يعد جيش الداخل يشكل تهديدًا حقيقيًا للشيوعيين. وعندما راح الجيش الأحمر يتقدم وسط الركام في فرصوفيا، رافقته مفرزة مهمة من الـNKVD أتت لتطارد ما تبقى من جيش الداخل وتقيم نظامًا شيوعيًا، وكان يقود هذه المفرزة "إيفان الكسندرفيتش سروف"، رئيس KGB المقبل والـGRU، وهو رجل هزيل القامة، جاف وقاسٍ وقومي روسي متحمس، كان قد أشرف على نفي جماعات من القوقازيين[1]. وقام سروف بمطاردة رجال جيش الداخل بشتى الطرق بدءًا بالاختراق الذي يقوم به أعضاء PPR مرورًا بالتوقيف وانتهاءً بحل شيفرة نداءاتهم بالراديو... وعندما أصبحت لجنة لوبلان حكومة موقتة، في كانون الأول - ديسمبر عام ١٩٤٥، انفجر جيش الداخل رسميًا. وعلى هذا نظم بعض أعضائه مقاومة مضادة للشيوعية، بينما

---

١ - راجع: Djirkvelov Ilya, *Secret Servant*, Collins (London,1987), PP. 146-147.

تحالف آخرون مع الشيوعيين؛ واستسلمت الأكثرية مهنئة نفسها كونها بقيت على قيد الحياة حتى ذلك الحين.

إلى جانب تصفية المعارضة، وضعت الـ NKVD في أولوياتها تأسيس نظيرها البولوني المسماة Urzad Bezpieczénstwa (UB). وكان مسؤولها، أولاً بصفته مديراً لشعبة لجنة لوبلان، ثم كوزير للأمن العام حتى العام ١٩٣٤، "ستانيسلاس راد كيبوسز Rad Kiewicz"، وهو مناضل شيوعي قبل الحرب، وُلِد في بيلاروسيا، وبقي على قيد الحياة، مثل غومولكا، بفضل اعتقاله في سجن بولوني. وقد قرن القسوة بسحر الشخصية والقوة بالقدرة على الإقناع. وبعد أن التقى به عام ١٩٤٥، ها هو الدبلوماسي "أرتوربليس لاين"، أول سفير أميركي بعد الحرب في بولونيا يكتب:

"الظاهر أنه مهما تصرف على أساس إيقاظ الرهبة في عقول زائريه، فهو يبدو ودودًا جدًّا ولطيفًا إلى أبعد الحدود في نظرنا. إنه رجل جميل - وعلى الأرجح روسي من أصل يهودي -، ذو شعر أسود، لامعٍ ومسرَّح بعناية، وذو سحنة معبرة وتقاسيم متناسقة. وبمنطق متكامل، يبدأ الحديث معلنًا أن النازيين كانوا قد وضعوا بولونيا في حالة اضطرت معها الحكومة الجديدة اللجوء لطلب العون من أحد حلفائها من أجل إعادة بناء البلد. وبما أن الولايات المتحدة وإنكلترا تقعان بعيدًا جدًا، فإن روسيا هي الجار الأقرب لبولونيا"... وهو يعترف بصراحة بأن الروس أعاروها مئتي مدرب من الـ NKVD، "نظموا الشرطة الأمنية البولونية على طول الخطوط السوفياتية"[1].

ومباشرة بعد إنشاء لجنة لوبلان، أستدعي "راد كيبوسز" إلى موسكو لتلقي تعليمات بريا. وعاد إلى بولونيا برفقة مستشارَيْن على مستوى عالٍ من KGB/NKVD، هما

---

١ - Lane Arthur Bliss, *I Saw Freedom Betrayed*, Regency Publications (London,1949), PP. 105-106.

الجنرالان "سليفانويسكي" و"ملينكوف" اللذان أشرفا على إنشاء الـUB برعاية سروف. وقد كانت ولادة الـUB عسيرة، فقد انضوى تحت لوائها ٢,٥٠٠ مجنَد منذ شهر كانون الثاني - يناير عام ١٩٤٤، غير أن راد كييوسز أنحى بالملائمة على المكتب السياسي للجنة المركزية في الـPPR، كون هؤلاء المجندين أغرار، غير مجرَّبين، عُيّنوا قادة من النوعية السيئة". وقد أعلن مساعده "رومان رومكويسكي"، عضو الـNKVD العتيق والمحنَك، عن سلسلة من النجاحات ضد جيش الداخل: "لقد أمسكنا بالقيادة في كل المناطق"؛ إضافة إلى ذلك تم أعلام المكتب السياسي للجنة المركزية سرًا بأن الظروف كانت حساسة، إذ إن "الجيش الأحمر يدمّر وينهب خلال مروره" (مع أن التقرير لا يجرؤ على التوضيح، فهو قد اغتصب كذلك عددًا كبيرًا من النسوة والفتيات)... وهذا هو الجنرال "زيغمانت برلنغ"، القائد السابق لأول جيش بولوني ما قبل سوفياتي وعضو لجنة لوبلان يكتب في ما بعد إلى غولومكا: "إن غلمان بريا القادمين من الـNKVD ينشرون الدمار في أنحاء البلد. ولا شك في أن هناك عناصر مجرمة من جهاز راد كييوسز تساعدهم بقوة ولا ريب. وخلال عمليات التفتيش الشرعية واللاشرعية، تُنهب أرزاق الناس، ويتم إرسال أشخاص بريئين تمامًا إلى السجن أو إلى المنفى... أو يقتلون كالكلاب... لا أحد يعرف بماذا أدينوا، ومن أوقفهم أو ماذا يُراد لهم"[١].

وفي جلسة اللجنة المركزية للـPPR المكتملة النصاب والمنعقدة في أيار - مايو عام ١٩٤٥، أقر غومولكا بأنه أصبح من المتعذر مراقبة الـUB و الـNKVD: "من الطبيعي أن لا يحب المرء الشرطة الأمنية، وخاصة عندما تصبح دولة داخل الدولة... إنها

---

١ - Contouvidis John et Reynolds Jeanne, *1939-1947*, University Pren (Leicester, 1986), PP. 167-168

تمارس سياستها الخاصة وليس لأحد الحق في التدخل... إن سجوننا تعامل نزلاءها كالدواب، أما عناصر دوائر الأمن فتهين عزيمتهم ويستقيلون... وفي النهاية، ها نحن نصبح أسوأ فرع من فروع الـNKVD في الخارج".

ولا يبدو راد كييفسز Rad Kievicz أكثر اطمئنانًا عندما يقول: "هناك بوادر أزمة في الشرطة الأمنية التي يبلغ عدد عناصرها ١١ ألف رجل، ويبلغ عدد العاملين فعلاً ٢٥٪ فقط... وهي تضم عددًا كبيرًا من العناصر الأجنبية وجزءًا كبيرًا من العناصر المعادية... ومن الصعوبة بمكان القول إذا كان المستشارون السوفيات قد قدموا من المنافع أكثر مما قدموا من المضار. لقد ساعدونا في البداية... وأساؤوا إلينا في ما بعد. وقد انقلب الموقف الآن، وهذا يعني أنه لم يعد من الضروري التخلص منهم في هذه اللحظة"...

وعلى أيّ حل، لم تكن بولونيا بل موسكو هي التي تقرر إذا كان على مستشاري الـNKVD البقاء أم لا: لم يكن لدى ستالين أيّ نية في أن يدعهم يذهبون. وقامت الدوائر الأجنبية التي يديرها المستشارون السوفيات بدور حاسم في إنشاء "الديمقراطيات الشعبية" في كل أوروبا الشرقية في ما عدا يوغوسلافيا وألبانيا. وقد كان التطور السياسي في غالبية هذه الدول من النمط ذاته، فقد تم إنشاء تحالفات صحيحة إلى هذا الحد أو ذاك ـ وتضم عددًا من الأحزاب غير الفاشية غير أن الأمن "ومواقع" السلطة الأساسية الأخرى كانت في عهدة الشيوعيين ـ وذلك بعد التحرير مباشرة. وبعد حقبات مختلفة، تم استبدال هذه التحالفات بأخرى صورية، وبقيادة شيوعيين فتحوا الطريق بدورهم لدول يحكمها الحزب الواحد ويتلقون توجيهاتهم من موسكو. وفي بولونيا، تم تنصيب تحالف صوري منذ البداية. وإنه لحق أن يعتبر الغربيون أن لجنة لوبلان ـ التي اعترف بها الاتحاد

السوفياتي كحكومة موقتة عام ١٩٤٥ ـ كانت حكومة دمية، غير نيابية ورفضوا الاعتراف بها.

شكلت الطعنة التي أصابت الحريات البولونية ـ مع أن واشنطن لم يكن لديها سوى نظرة غامضة عن حجمها ـ السبب الرئيسي لأول مواجهة جادة بين هاري ترومان، خليفة روزفلت، والإتحاد السوفياتي. وخلال أول لقاء مع مولوتوف، في ٢٣ نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٥، أعلن الرئيس الجديد، القليل التجربة، صراحة بأن العلاقات الأميركية ـ السوفياتية لن تتمكن بعد الآن من أن تعمل "باتجاه واحد": على الاتحاد السوفياتي أن يفي بوعده في المستقبل. بُهت مولوتوف وتمتم: "لم يحدثني أحد بهذه اللهجة مطلقًا". وادّعى ترومان بأنه أجاب: "أوفِ بوعدك، ولن يكلمك أحد بهذه الطريقة"[١].

منذ وفاة روزفلت، بقي هاري هوبكنز، المستشار الرئاسي الأميركيّ العامل في الظلام لحساب السوفيات، عمليًا طريح الفراش في مسكنه في جورجتاون (واشنطن) ـ وقد مات بعد تسعة أشهر من وفاة الرئيس. ومع ذلك فإن أخمروف، مدعيًا مثل العادة التحدث باسم ستالين، ساهم بإقناعه بأن له ومرة أخرى دورًا حاسمًا يقوم به خلال هذه المرحلة الحرجة من العلاقات الأميركية ـ السوفياتية. وفي منتصف أيار ـ مايو، توافق "أفريل هاريمان" السفير الأميركي في موسكو، و "شيب بوهلن" على إرسال هوبكنز في مهمة إلى موسكو من قبل ترومان وذلك للتباحث مباشرة مع ستالين بمسائل الساعة. وعندما أُعلم بلك. تصرف هوبكنز بطريقة تكاد لا تصدَّق: فبينما كان لا يقوى على النهوض من سريره، واجتياز الشارع، ها هو المجرم المحترف الهرم، وعند

---

١ ـ Harry S Truman Memoirs, *Years of Decision*, Doubleday (New York, 1955), P. 99.

مجرّد فكرة الهروب إلى موسكو، يبدو مهيأ لمعاودة المعركة. وها هي وزارة الخارجية الأميركية وأمين سر الدولة الجديد "جايمس ف. بيرنس" يعتبرانه ميالاً جدًا لمفاوضة السوفيات فورًا، غير أن ترومان صرف النظر عن ذلك. وقد أحدث خبر الزيارة هذه ردة فعل سريعة وحماسية في موسكو[1].

وبمناسبة أو لموعد له مع ستالين في ٢٦ أيار - مايو، أصرّ هوبكنز على ضرورة المحافظة على "كل شبكة التعاون على الصعيد العالمي وعلى العلاقات مع الاتحاد السوفياتي التي بناها كل من الرئيس والمارشال بالكثير من المشقة". وقد أعلن هوبكنز بأن السبب الرئيسي الذي أدّى إلى ضياع ثقة الرأي العام الأميركي بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي قد يكون "عجزنا عن تطبيق اتفاق يالطا حول بولونيا"... وقد فوجئ أكثر من مؤرخ - مع جهلهم بأن الـ KGB/NKVD قد تكون اعتبرت هوبكنز عميلاً سوفياتيًا - بهذه النظرة للمفاوضات، المحابية للسوفيات. ويعلّق فوجتش ماستني على هذا النحو: "ذكر هوبكنز التطور الجديد الذي طرأ على الرأي العام الأميركي واضعًا إياه باتجاه غير ملائم للروس، غير أنه تفادى ربط هذا التغيّر بأي عمل سوفياتي، وعندما يثني على العكس بأن المارشال ستالين غير مُلام، مستبعدين عمدًا، هاهم البريطانيون يبدون مذنبين، ويسارع ستالين بإدانتهم"[2].

وقد زعم ستالين أن المحافظين البريطانيين وعلى رأسهم تشرشل، يعارضون المشروع السوفياتي الخاص ببولونيا حرة لأنهم يأملون إعادة خلق "حزام صحي" معادٍ

---

١ - Feis Herbert, *Between War and Peace*, Princeton University Press (Princeton,1910), PP. 83-84.

٢ - Mastny Vojtech, *Russia's Road to the Cold War*, Columbia University Press (New York,1979), PP. 284-285.

على الحدود السوفياتية. وبدل مناقشة هذا التفسير الماكر للسياسة البريطانية، أصرّ هوبكنز مرتين على واقع أن السياسة الأميركية كانت مختلفة تمامًا: تأمل الولايات المتحدة رؤية الدول الصديقة رابضة على طول الحدود السوفياتية. في هذه الحالة، يصبح من السهل التفاهم حول بولونيا. ها هو هوبكنز يعتبر نفسه راضيًا...

وفي اليوم التالي أضاف قائلاً: "ستقبل كل حكومة متلائمة مع رغبات الشعب البولوني، وتظهر الود للاتحاد السوفياتي". لم يع هو، ولم يع ترومان حتى هذه الساعة المفارقة الصعبة الواقعية وهي أن أيّ حكومة بولونيا لا يمكنها الاستجابة لهذين المطلبين. وقد استنتج البروفسور ماستني عن حق، ودائمًا دون علمه بوجهة نظر الـNKVD حول هوبكنز، أنه "وفي نهاية المطاف ستقبل هذه الحكومة الصيغة السوفياتية"... إذن لقد تمت تسوية المسألة البولونية بين ستالين وهوبكنز دون مشاركة البريطانيين". وقد توسعت الحكومة الموقتة الخاضعة للشيوعيين عبر تمثيل ظاهر للبولونيين المنفيين في لندن، أما المركز الرائع، إنما التمثيل الصرف لنائب رئيس الوزراء قد أُسنِدَ إلى ميكولاجسكي، وقد صرف النظر عن المسألة المتعذر حلّها، مسألة تنظيم انتخابات حرة بهدف إقامة حكومة دائمة. ومع أن هوبكنز كان قد تجاوز تعليماته فقد اعتبر ترومان هذا الاتفاق وسيلة "لرتق" التحالف الذي كان قائمًا خلال الحرب. واعتبرت الـNKVD أنها انتصرت على الامبريالية الأميركية بمساعدة هوبكنز... ومع ذلك فمن المحتمل أن لا يكون هوبكنز أبدًا عميلاً للـNKGB عن عمد، مع أن تأثيره على روزفلت وعلى ترومان كان لصالح السوفيات. وعن طريق أخمروف، استغلت الـNKVD من جديد وفي آن معًا ميله لمهمة شخصية تطرح مستقبل العلاقات الأميركية ـ السوفياتية وسذاجته، وذلك بقدر ما كان يتصور أن ستالين يشاركه إيمانه بنظام عالمي جديد.

إن الاتفاق المعقود بين ستالين وهوبكنز للحفاظ على المظاهر استمر بعد لقاء الثلاثة الكبار الأخير، والذي غاب عنه هوبكنز، في بوتسدام والمنعقدة في تموز - يوليو وآب - أغسطس عام ١٩٤٥ بين ترومن وتشرشل وستالين. إنما وبقدر ما كان الاتحاد السوفياتي يقدم الأدلة الواقعة أكثر فأكثر عن احتقاره لحقوق الإنسان في أوروبا الشرقية، فإن هوبكنز كان يفقد إيمانه بمستقبل العلاقات الأميركية - السوفياتية. وما كاد يغادر موسكو حتى بدأت محاكمة القادة البولونيين الستة الذين سعى للحصول على العفو عنهم... وتوفي في شهر كانون الثاني - يناير عام ١٩٤٦، بعد أن فقد جزءًا من أوهامه.

قال السفير الأميركي في وارسو، "آرثور بليس لاين"، بمرارة: "تسلّمتْ الـNKVD والـUB مقاليد السلطة الصارمة بحيث لا يمكن طرح أيّ ديمقراطية - بالمعنى الذي نعطيه نحن لهذا التعبير - في بولونيا خلال السنوات المقبلة". وقد أصبح الإشراف السوفياتي على الـUB قاسيًا بشكل واضح بين العامين ١٩٤٤ و١٩٤٧، أي خلال العامين اللذين تصرف فيهما مستشارون سوفيات وللمرة الأخيرة كيفيًّا في كل الدوائر. وكان على برامج أولى مدارس الـUB إخضاع محاضراتها ومؤتمراتها لهؤلاء المستشارين الذين يعدلونها كما يروق لهم. وبين عامي ١٩٤٧ و١٩٤٩، تم استبعاد المستشارين السوفيات عن مكاتب الـUB الإقليمية، وعند وفاة ستالين عام ١٩٥٣، لم يبقَ منهم خارج وارسو سوى اثنين في كل مكتب إقليمي. وها هي الـUB تتصرف كتلميذ فاشل جدًا في بعض العمليات، وخاصة في تزوير الانتخابات... وكان مولوتوف قد أعلن في يالطا أنه قد يكفي شهر واحد لإجراء انتخابات في بولونيا. وبالنظر إلى ذلك، كانت الـUB قليلة الثقة بوسائلها في مواجهة تحدي أحزاب المعارضة الرئيسية: حزب الفلاحين والحزب الديمقراطي. وهذا ما فرض تأجيل الانتخابات حتى كانون

الثاني ـ يناير عام ١٩٤٧، وهو الشهر الذي اختير عمدًا نظرًا للثلوج الغزيرة المتساقطة فيه. وبعد سنتين من التحضير لتزوير الانتخابات، أصبح هذا التزوير على درجة من الوضوح بحيث أن المستشارين السوفيات وجدوا أنفسهم في حيرة. وفي أقل من عام، تم عمليًا إلغاء أحزاب المعارضة، إنما ولتفادي مظاهر التبرّم الإضافية إزاء الانتخابات العامة المقبلة لعام ١٩٥٢ ولتأمين أكثرية ساحقة لحزب العمال البولوني الموحّد (أي الـ POUP، المشكّل عام ١٩٤٨، بعد الاندماج مع الاشتراكيين)، فإن مستشاري الـUB السوفيات نظموا تشكيله على مدى ثلاثة أشهر: والمقصود هو مبادرة مفصّلة للتزوير وللطرق التي تسمح بالتحضير سلفًا لنتائج الانتخابات.

وعلى كل حال طرحت قوة الكنيسة على الـUB مسائل تفوق المؤهلات المباشرة لمستشاريها السوفيات. وقد قامت إحدى أباطيل الـUB الأكثر صلابة على دفع أحد عملائها، الليوتنان ـ كولونيل "جريك لابانويسكي" لانتحال شخصية راهب كاثوليكي، أو قس بروتستنتي أو حاخام وذلك عند مطالبة المحكومين بالإعدام حضور رجل دين قبل تنفيذ الحكم بهم.

في ألمانيا الشرقيّة

وفي ربيع عام ١٩٤٥، وعندما تم فعلاً الاستيلاء على السلطة في بولونيا، توجّه سروف إلى ألمانيا ليترأس الشعبة الداخلية NKGB/NKVD في الإدارة العسكرية السوفياتية. وكانت هذه تقع، في عهد المارشال جوكوف، في مجمّع واسع في كارلشورست، الضاحية البرلينية، تحميها الأسلاك الشائكة ودوريات الشرطة والكلاب. وقد أوجد سروف في هذا المجمّع غيتو تابع للـNKVD (الـMGB في ما بعد) داخل الـAMS؛ ويشمل هذا الغيتو مستشفى قديم حيث القيادة العامة وبيوت فردية فخمة لكبار الضباط ومرآب. وحدهم أعضاء الـMGB/NKGB البالغ عددهم أخيرًا ٢٠٠٠ عضو،

كان لديهم الإذن بالدخول... وقد نظم سروف شبكة "MGB/NKGB واسعة في المنطقة السوفياتية بقيادة اللواء ملنيكوف، المستشار السابق للـUB البولونية. وقُسِّمت هذه المنطقة إلى مقاطعات لكل منها قيادة عامة في الـMGB/NKGB، وتتقسم هذه بدورها إلى مناطق تشرف على "مجموعات عملياتية". ويراقبُ هذا التنظيمُ المتكامل الأحزابَ السياسية والكنائس والنقابات ويقود عملية جعل المجتمع سوفياتيًا، وقد اصبحت كارلشورست كذلك قاعدة التجسس الرئيسية ضد الغرب خارج الاتحاد السوفياتي. وفي لايبزيغ كانت قاعدة إضافية تابعة للـMGB/NKGB تهتم بالعناصر غير الرسمية...

يتذمر ستالين قائلاً بأن "الألماني الذي يتبنّى الشيوعية هو مثل البقرة التي تضع عليها السرْج"...

تركت قيادة كل من KPD وPC الألماني منفاها الموسكوفي في الثلاثين من نيسان - إبريل عام ١٩٤٥، وهو اليوم الذي انتحر فيه هتلر داخل عرينه في برلين. أما عضويْ الـPC الأكثر شهرة، أي "وليام بايك"، وعمره تسعة وستون سنة والذي أصبح في الحال رئيس الـRDA"، و"والتر أولبرخت"، وعمره اثنان وخمسون عامًا والذي أصبح في الحال الأمين العام للحزب الذي يتولى السلطة في RDA، فكانا شَيخا الكونترن المحنكَين ورجلا الـNKVD العتيقين...

راح كلّ من سروف وقيادة الـKPD يتقدمان بحذر، إذ إنهما لم يكونا على دراية عميقة بالأولويات التي يمسك بواسطتها الشيوعيون السلطة. وعند عودته من موسكو، صرّح ألبرخت لمساعديه المقربين: "لا بد من الاحتفاظ بمظهر ديمقراطي، إنما يجب بقاء كل شيء تحت إشرافنا"[1]. وقد قام أول تكتيك له خلال صيف عام ١٩٤٥،

---

١ - Leonhard Wolfang, *Child of the Révolution,* Collind (Londres,1957), P. 303.

على إنشاء تحالف شبه رسمي معادٍ للنازية، ويضم بشكل أولي الـKPD والأحزاب الأخرى الثلاثة المرخّص لها. ولو أنّهُ حصل وجرت انتخابات في القطاع السوفياتي لأدت ولا ريب إلى أكثرية اشتراكية - ديمقراطية (SPD)، غير أن أعمال الاغتصاب والنهب التي توّجت بهما بعض وحدات الجيش الأحمر نصرها قضت على أمل الـKPD بالوصول إلى السلطة دون دعم واسع من السلطة القمعية للـAMS والـMGB/NKGB.

على علم بشعبية الاشتراكيين الديمقراطيين المتفوقة جدًا، ها هو المارشال جوكوف "نائب ملك" سوفياتي حقيقي، يمارس ضغوطًا على قيادة الـSPD لكي تقبل الاتحاد مع الشيوعيين.

وقد شكا عضوان اشتراكيان ديمقراطيان من الصف الأول للبريطانيين بأن ضابطًا من الـKGB كان قد أمرهما بـ"القيام بحملة من أجل التوحيد" وهددهما بالاعتقال إذا رفضا ذلك. أما بعضهم الآخر، من الذين لم يتنازلوا، فتم اعتقالهم في ساتشنهوزن Sachsenhausen، وهو معسكر تجميع نازي قديم. وقد أعلن في ما بعد أريخ أولنهوير Ollenhauer، رئيس الـSPD الألماني الغربي بأن ما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ اشتراكي ديمقراطي من المقاومين الأشاوس في ألمانيا الشرقية جرى اعتقالهم وحتى تصفيتهم بين شهري كانون الأول - ديسمبر عام ١٩٤٥ ونيسان - إبريل عام ١٩٤٦. أما حملة التخويف الكثيفة التي رتبها الـ NKGB فأدت إلى اندماج الـKPD والـSPD في حزب اشتاركي موحد (Sozialistische Einheitsapartei Deutschlands, SED) في ٢٢ نيسان - إبريل عام ١٩٤٦ (يوم عيد ميلاد لينين) وإلى الإلغاء الفعلي للحزب الاشتراكي - الديمقراطي في ألمانيا الشرقية. وبالرغم من حملة التخويف، فإن أولى انتخابات البلديات والمناطق في حقبة ما بعد الحرب، أي في خريف عام ١٩٤٦،

أعطت ما يقارب ٥٠٪ من الأصوات للـSED، غير أنها لم تؤخر أبدًا التطور نحو الحزب الواحد.

وفي آب ـ أغسطس عام ١٩٤٧، أنشأ قرار الـMAS رقم ٢٠١ شرطة أمنية لألمانيا الشرقية (SSD)، والمفوضية الخامسة (K-5) ـ تحت إشراف مستشار الـ MGB ـ التي هي سلف شرطة الدولة الأمنية (SSD) التي أُنشئت بعد ولادة جمهورية ألمانيا الديمقراطية في تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤٩[1]. وكان على رأس الـ K-5 (وفي ما بعد الـSSD) "ولهلْم زايسر"، العميل السابق للـGRU والذي كان قد قاد ـ باسم الجنرال غوميز ـ الفرقة الثالثة عشرة الأممية إبّان الحرب الأهلية الإسبانية. ويعدّ رودولف هرنستادت Hernstadt، العميل الآخر السابق للـ GRU من بين مساعديه، وهو الذي كان قد جند على عاتقه الدبلوماسي الألماني رودولف شليها. وكما في بولونيا، شملت التشكيلة الخاضعة للـMGB في ألمانيا تدريبات على تقنيات تزوير الانتخابات. وفي عام ١٩٥٠، أعطت الانتخابات الوطنية الأولى في جمهورية ألمانيا الديمقراطية للـ SED نسبة ٩٩،٧ ٪ من الأصوات، أي ضعف ما أعطته انتخابات المناطق عام ١٩٤٦.

في رومانيا

في حقبة ما بين الحربين، وحتى تسلُّم هتلر السلطة، كان في ألمانيا حزب شيوعي جماهيري. أما في رومانيا، فقد كان الأمر على خلاف ذلك، أي أن الحزب كان ضعيفًا مثل نظيره في بولونيا خلال الفترة ذاتها، وكانت أكثرية أعضائه من الأقليات الإتنية. وخلال السنة الأخيرة، من الحرب، كان لا بد من أن يجري بناؤه من لا شيء. ففي

---

١ ـ Dallin, Soviet Esprionage, P. ٣٣٢.

آذار ـ مارس من العام ١٩٤٤، أرسلت الـ NKGB مجموعة من ثلاثة رجال، بقيادة عميلها الروماني إميل بودناراس، وذلك للتحضير لقيادة الحزب عند وصول الجيش الأحمر. واستطاع بوناراس عقد اجتماع سري في مستشفى أحد السجون، مع جورج غورغيو ـ دج وبعض السجناء من القادة الشيوعيين الآخرين؛ وبهذه المناسبة، أدان غورغيو ـ دج ستفان فوريس ـ قائد الحزب السري حينها ـ كونه مخبرًا لدى الشرطة وأصبح أمينًا عامًا مكانه: وهناك سلسلة من المناورات الماكرة الأخرى انتهت بإعطائه الكلمة الأخيرة في المعركة على السلطة الجارية ضد مكتب الشيوعيين الرومان المنفيين والمتحلقين في موسكو تحت قيادة عميلين للـNKGB، هما أنا بوكر وفازيل لوكا. وعندما احتل الجيش الأحمر رومانيا في آب ـ أغسطس عام ١٩٤٤، تحرر غورغيو ـ دج ووضع فوريس في السجن. وبعد ذلك بسنتين، تم إعدام فوريس دون محاكمة وبناءً على أوامر غورغيو ـ دج[١].

وخلال شتاء عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، اكتسب "الحرس الوطني للدفاع" بقيادة بودناراس بالتدريج مواقع أساسية في قوات الشرطة والأمن. وفي آذار ـ مارس عام ١٩٤٥، وبعد سبعة أشهر من حكم التحالف ذات القاعدة الواسعة، استسلم الملك ميشال لإنذار سوفياتي نهائي يقضي بإنشاء نظام "ديمقراطي شعبي" (بأكثرية شيوعية) وتحت قيادة رفيق الدرب "بترو غروزا". وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٤٦، أعطت انتخابات مزورة أكثرية ساحقة لحكومة غروزا. وعام ١٩٤٧، حُلّت أحزاب المعارضة الأساسية، وأدانت محاكمة صورية فولكلورية قادة المعارضة على تآمرهم ضد أمن الدولة. وفي كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٤٧، اضطر الملك ميشال إلى التنحي، وتم

---

١ ـ Ioneseu Ghita, *Communism in Rumania 1944-1962*, Oxford University Press (London,1964), PP. 69-81.

الإعلان عن ولادة جمهورية رومانيا الشعبية. وفي القلب من هذا النظام الجديد كانت المديرية الأمنية (Directoratul General al Siguranteï Poporului DGSP) ومستشارها السوفيات. وهذا نيقولاي شاوشيسكو، الأكثر تكبرًا كذلك من غورغيو ـ دج، يعترف في ما بعد بأن مسائل الحرب الداخلية آنذاك كانت خاضعة أحيانًا للأجهزة الأمنية، وعلى هذا النحو يُسمح لها بالتدخل في حياة الحزب وتهديم سلطته ودوره السائد"[١]. وقد كان نهج الـDGSP ليس فرض الأرثذوكسية الستالينية فقط، بل تشجيع طموحات غورغيو ـ دج الفردية كذلك. وبما أن هذا الأخير لم يكف عن تكرار إبراء وفائه للاتحاد السوفياتي ولزعيمه، فلم يجد مستشاروه السوفيات "ما يلوكونه".

ومثل سيروف الذي ترأس على التوالي عمليات MGB/NKGB في كلٍ من بولونيا وألمانيا الشرقية، فإن ديمتري غريغوريفيتش فديتشكين ـ المستشار السوفياتي الرئيسي في رومانيا من عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٤٧ ـ كان طموحًا مصممًا وصلبًا. وهو مولود عام ١٩٠٣، اكتسب تجربته في الثلاثينات في بلاد البلقان وتصرف بعد الحرب كنائب للملك في بوخارست إلى درجة أنه كان يعطي غالبًا تعليمات إلى غورغيو ـ دج... ووقد احتلّت صورته ـ التي تُظهر رجلاً قصيرا وسمينا، ذا وجه مدوّر ويحمل نظارتين ـ مكان الصدارة على جدران صالة الشرف في المدريرية الأولى العامّة للـKGB. أما التعليق المرفق بها فيثنى عليه لمشورته التي كان يقدمها للـMGB/NKGB في بوخارست و "للإجراءات الفعالة" التي اتخذها في ما بعد ضد الغرب. أما سورف ـ الذي كان حينها أكثر شهرة والذي أصبح في ما بعد الرئيس الأول للـ KGB ـ فليس له

---

١ - King Robert R., *History of the Romania Communist Party*, Hoover Institution Press (Stanford, 1980), P. 92.

من مكان في هذه الصالة: لقد فقد مواقعه من جراء تدخله عن قرب بالفظاعات الستالينية وبسبب انتحاره عام ١٩٦٢.

في بلغاريا

حصل الاستيلاء على السلطة الشيوعية في صوفيا بشكل أسرع مما في بوخارست، معززة بالمصاهرات السلافية مع روسيا السوفياتية، فإن الشيوعية ودون أن تكون أبدًا قوة سائدة في المجتمع البلغاري، كان لها فيها جذورها الأكثر عمقًا من بولونيا أو رومانيا. ومع أنها تُعدّ في فترة ما بين الحربين من بين الدول الأكثر تخلفًا في أوروبا الشرقية، فقد عُرف عن بلغاريا بأنها قدمت للكومنترن أفضل بلاشفة... وإذ يدافع في لايبزيغ عن نفسه حتى النصر ضد النازيين الذين أدانوه كونه مسؤولاً عن حريق الرايغستاغ عام ١٩٣٣، فإن جورجي جيمتروف ـ الزعيم الشيوعي البلغاري الموهوب ـ أصبح بطل الحركة المعادية للفاشية. ومن عام ١٩٣٥ حتى ١٩٤٣، كان الأمين العام الأخير للكومنترن. وعندما اجتاز الجيش الأحمر حدود بلغاريا في أيلول ـ سبتمبر من العام ١٩٤٤، نفذت الجبهة الوطنية ذات الأكثرية الشيوعية انقلابها. وخلال ثلاثة أشهر، قفز عدد المنتسبين للحزب الشيوعي من ١٥,٠٠٠ إلى ٩٥٠,٠٠٠. أما الميليشيا الشعبية، التي حلّت محل الشرطة القديمة، فترأست وصلة الإرهاب[١]، بالاشتراك مع شرطة سرية تشرف عليها الـ KGB. وكان ديميتروف بالذات يعلم بأن حارسه الخاص وصهره فيلكوتشرنانكوف الذي أنقذه من الموت أثناء مرحلة الرعب الكبير، مجنّد لدى الشرطة السرية للتجسس عليه... وبعد مرور أربعة أشهر على

---

١ - Oren Nissan, *Bulgarian Communism: The Road to Power 1934-1944*, Columbia University Press (New York, 1971).

حكومة التحالف، استولى على السلطة في نيسان ـ إبريل عام ١٩٤٥ عبر تحالف مصطنع بين الشيوعيين والمارقين. وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر من السنة نفسها، أعطت انتخابات مزورة للجبهة الوطنية أكثرية بلغت ٨٨٪. ورغم المعركة الشجاعة في المؤخرة التي خاضها من تبقى من المقاومة، أصبحت بلغاريا جمهورية شعبية في كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٤٧... وخلال جيل كامل، ستظهر الأكثر وفاء من بين التوابع السوفياتية.

في هنغاريا

واجهت الديمقراطية التعددية في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا مقاومة أكبر بكثير من تلك التي واجهتها في بلدان أخرى من أوروبا الشرقية. وقد ربح حزب صغار الملاّكين انتخابات تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٤٥ العامة بأكثرية ٥٧٪ من الأصوات، بينما نال الاشتراكيون والشيوعيون ١٧٪ لكلّ منهما. وفي الجمهورية الجديدة التي أعلن عنها في الأول من شباط ـ فبراير عام ١٩٤٦ فإن الرئيس "سلطانتيلدي" ورئيس وزراء حكومة التحالف "فرانك ناجي"، كانا كلاهما من حزب صغار الملاّكين. غير أن وجود قوى الاحتلال السوفياتي يؤكد أن هيمنتها لن تدوم طويلاً، كان العضو الأقوى في وزارة ناجي هو نائب رئيس الوزراء، "ماتياس راكوزي"، المولود في روث. وقد اعتبره "نيقولاس نيارادي"، وزير المالية وعضو حزب صغار الملاكين "الشيوعي الأكثر أهمية في كل هنغاريا وذلك بفضل تدرّبه، في موسكو، على أعمال التخريب، وخبرته في علم نفس الجماعات والصراع السياسي، فلم أعرف في حياتي رجلاً أكثر موهبة وقدرة على الإقناع السياسي. ويمكن اعتباره سيدًا على مستوى الدقة والوضوح، وهي صفة تصنع عظمة الممثل والبهلوان ورجل السياسة. لقد تعلّم في

روسيا تمامًا كل ما يجب القيام به؛ وتوحي له غريزته الشخصية باللحظة التي يجب الإقدام فيها"[1].

كانت الورقة الرابحة الأكثر روعة لدى الشيوعيين هي الإشراف على الشرطة الأمنية بواسطة مستشارين سوفيات. أولاً باسم AVO (Allam velmi Osztaly)، ثم باسم AVH (Allam vedelmi Hatosage)؛ عملت هذه الشرطة منذ البداية كميليشيا شيوعية خاصة. ويعترف راكوزي في ما بعد "بأنها كانت التنظيم الوحيد الذي كان حزبنا يؤمن عبره الإشراف ولا يقبل لا انقسامًا (للسلطة) ولا مراعاة لنسب التحالف... لقد أمسكنا بها منذ البداية وعملنا بحيث تبقى سلاحًا قويًا ومضمونًا في معركتنا من أجل الديمقراطية الشعبية".

قاد الـAVO خيّاط صغير يهودي ذو شارب هتلري هو "غابور بيتر"، المولود في بنو اوسبيتز، كان قد عمل سابقًا لحساب الـNKVD. وفي الحقبة الأولى من تحالف ما قبل الحرب، عمل كل ما بوسعه لعدم تخويف الوزراء غير الشيوعيين. وقد وجده نياردي "مخنثًا تمامًا": "يرتجف، يقوم بحركات، يهمس، يداه حركة دائمة، وعندما يتوجه المرء إليه - أي في موقف غير رسمي -، يشعر أنه على أهبة فرقعة متره القماشي أو وسْم بذلته بالطبشور... هناك صفة خاصة به هي... حبه للزهور. فقد كانت حدائق ٦٠ اندراسي أوت Andrassy Ut (مركز قيادة الـAVO) ممتلئة بالليلاب وبالبنفسج الثالوثي، وأما مكتبه المتقن والمشمس فيشبه مهد خضار التيتانيا Titania. فهناك غرنوفيات Géraniums في كل مكان، وورود حمراء وأخرى بيضاء، وتكاد رائحتها الكبريتية تخنقك. وعندما نثرثر مع بيتر في مكتبه، نشعر أننا نتوجه إلى فتاة

---

١ - Niarad Nickolas, *My Ringside Seat in Moscow*, (New York,1985), P 51

هرمة مضطربة نجحت بعد طول معاناة بزرع حديقتها لصغيرة. فهو يتكلم ومقص البستاني في يده، متنقلاً من الشبّاك إلى الإناء ومن الوعاء إلى الكأس. "آه يا سيدي الوزير، أشممني قليلاً العبهون (نبات يزرع لجمال أزهاره). عزيزي السيد الوزير، وهذه البنفسجة المثلثة الألوان الأرطنسية. ويا إلهي، هذه اللبلابة الحلزونية!" إنه شبه مضحك، ويصعب علينا الإيمان بأن هنغاريا ترتجف أمام هذا الرجل".

كانت أكثرية زوار بيتر تستغرب جانبًا آخر من طبعه. فقد كان يقول لهم: "من مصلحتكم أن تكونوا على يقين بأنه لا يمكن الركون على أي دعم هنا ولا على أيّ حماية، تفهمون بأن الحزب وضعكم بين أيدينا". ولكي يجعلهم يعملون بفعالية أكبر، كان يأمر عمومًا بـ"تجديد النعل". يعني هذا التعبير – الذي استعارته "شرطة قبل الحرب" الهنغارية من السكافة – ضربات على باطن القدم (الفلَق) بالعصي أو بالهراوات المطاطية. وتأتي بعدها أعمال تعذيب أشد رعبًا. وكان المستشارون السوفيات يشاركون أحيانًا بالاستجوابات غير أنهم كانوا عادة يتركون أعمال التعذيب للـAVO[1].

منذ عام ١٩٤٨، اختفت حكومة التحالف وأصبحت هنغاريا "ديمقراطية شعبية"، وفي ما بعد كان راكوزي يتباهى على أنه قطّع الأحزاب غير الشيوعية "مثل شرائح السجق"، أما السكين الذي استعمل لقطع هذه الشرائح فلم تكن سوى الـAVO. وأول هذه الأحزاب كان ما يسمى "الجناح اليميني" لحزب صغار الملاّكين. وبحجة إلغاء "العناصر الفاشية" من هذا الحزب، اعتقلت الـAVO من بين أعضائه هؤلاء الذين كانوا أكثر عداء للشيوعيين كان "الجناح اليميني" للاشتراكيين الديمقراطيين هو الشريحة

---

١ - Szasz Béla, *Volunteers for the Gallowas*, Chatto and Windus (Londres,1971).

التالية؛ وكان اللوم يوجّه إليه على تعاونه مع الفاشية خلال الحرب. أما شريحة السجق الأكبر من غيرها ـ الأساسي من الحزب ـ فطرحت مسائل أكثر تعقيدًا وجعلت التدخل السوفياتي المباشر محتومًا. وبناء على ذلك دبّرت الـAVO مؤامرة استهدفت بيلاّ كوفاكس Béla Kovacs، الأمين العام لحزب صغار الملاّكين. وعندما تردد المجلس الوطني في تعليق حصانته النيابية، اعتقلت الشرطة العسكرية السوفياتية كوفاكس بجريمة التآمر ضد قوات الاحتلال. وفي أيار ـ مايو عام ١٩٤٧، امتنع رئيس الوزراء فرانك ناجي عن العودة من سويسرا حيث كان يقضي عطلته بسبب التهديد باعتقاله...

لم يسمح حتى تكتيك "السجق" هذا وتزوير الانتخابات، ورغم كل شيء للشيوعيين في أن يحصلوا على الأكثرية. وفي انتخابات آب ـ أغسطس عام ١٩٤٧ العامة، ومع أنه أصبح لأول مرة الحزب الأول، لم يحصل الحزب الشيوعي إلا على ٢٤٪ من الأصوات. وحسْب شاهد عيان، استقبلت قيادة الـAVO ببرود الفشل الذي أصاب تزوير الانتخابات، غير أن تعليمات الـMGB تداركت ذلك في ما بعد. ومع ذلك فقد حصل تحالف السلطة الذي يسيطر عليه الشيوعيون على ضعف أصوات المعارضة. أما أصغر الشركاء في هذا التحالف، أي الحزب الوطني الفلاحي (الذي حصل على ٩٪ من الأصوات) فكان قد أصبح تحت قيادة شيوعي غير عَلَني هو فران ارداي Fren Erdei. وخلال شتاء عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، حوّل راكوزي الحكومة إلى تحالف فلكلوري، كان وجود بعض الصور الناتئة فيه وغير الشيوعية يخفي وبشكل سيء القيادة الفعلية الشيوعية. وعام ١٩٤٨، وبعد ولادة الدولة ذات الحزب الواحد، ولادة عززتها مؤسسة جديدة في العام التالي، وصف بريا، المعادي للسامية، راكوزي بأنه "ملك هنغاريا اليهودي".

في تشيكوسلوفاكيا

شكّلت تشيكوسلوفاكيا التابع السوفياتي الوحيد لما بعد الحرب التي بدا فيها الحزب الشيوعي، ساعده في ذلك خيانة البلاد الغربية في ميونيخ عام ١٩٣٨ عن بعد، على أنه الأكثر شعبية في البلد. وقد حصل على ٣٨٪ من الأصوات في انتخابات عام ١٩٤٦ الحرّة، أي أكثر من الضعف مما حصل عليه أي حزب آخر في التحالف الذي اخترقه الشيوعيون بنجاح. لم ينتمِ الجنرال "لودوفيك سفابودا"، وزير الدفاع بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٠، ثم رئيس الجمهوريّة، رسميًا لأي حزب سياسي. ومع ذلك، فقد أقر في ما بعد أنه كان خلال كل هذه المدة "شيوعيًا وفيًا ومنضبطًا" كان قد طلب منه الحزب إخفاء انتمائه وذلك لتسهيل سيطرته الوشيكة على السلطة...

ومثل أي مكان آخر في أوروبا، سيطر الشيوعيون في الحال تقريبًا على وزارة الداخلية ودوائر الشرطة والأمن التابعة لها. وفي غياب قوات احتلال سوفياتية، كان دورهم أكثر أهمية في تشيكوسلوفاكيا منه في هنغاريا. وبناء على طلب ملحّ من الرئيس بناس Benès، فإن شعبة الـ Z في وزارة الداخلية ـ التي تتبع لها الـSTB ـ قادها في البداية الاشتراكي الديمقراطي "جوزيف بارتيك". وبناء عليه استعاد شيوعيو الـSTB فورًا جوقة قديمة للغستابو. مدانًا على تعاونه زمن الحرب، قدّم بارتيك استقالته. أما خلفه، ومساعده القديم "بدريش بوكورني"، فاضطر للمغادرة بعد استخدامه لشهادات مزورة للحط من شأن الأمين العام للحزب الوطني الاشتراكي. نصّب الشيوعيون رجلاً دون انتماء سياسي هو الجنرال "فرانتيزك جاندا"، الذي عهد بإدارة شعبة الـZ إلى معاونه الشيوعي "جاندريش فاسيلي"[١].

---

١ - Kaplan Karedl, *The Short March: The Communist Takeover in Czecholovakia* 1945 -1948, C Hurst and Co (London,1987), P. 135.

وقد رعى عمل الـSTB مستشاران من الـMGB/NKGB ـ سمّيا نفسيهما "تيخونوف" و"خازيانوف"، واستخدما عدة عملاء تشيكيين... ولم يكن تيخونوف سوى مندوب الـMGB/NKGB القديم في برلين خلال الحرب، أي "إيفان تشيتشايف".

بعد معاينة عميقة لأرشيفات الحزب والدولة في نهاية الستينات، استنتج المؤرخ التشيكي "كارل كابلان" بأن شبكة العملاء السوفيات داخل الحزب الشيوعي كانت "كثيفة جدًا بشكل عام". وهو يُحصي من بين عناصرها "استفان بلايك" الذي تولى رئاسة شعبة الأمن الريفية (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) ثم دوائر المخابرات الداخلية (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)؛ و"بدريخ رايسن"، مدير الدوائر السرية في وزارة الدفاع، و"كارل سفاب" مدير مكتب القيد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي كان يجمع المعلومات حول الأحزاب الأخرى، وحول الكنيسة. ومن بين عملاء الـMGB/NKGB المتسللين داخل هذه الأحزاب، نجد "جان سفسيك" من الحزب الديمقراطي و"فاجتنخ إربان" وهو اشتراكي ديمقراطي[١].

خلال شتاء عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، أصاب القلق الـSTB ومستشاريها السوفيات جديًا بفعل تدهور شعبية الحزب الشيوعي: وفي كانون الثاني ـ يناير من العام ١٩٤٨، فإن معهد الرأي العام في براغ توقّع أن نسبة الأصوات التي سيحصل عليها في انتخابات الربيع المقبل ستهبط إلى ٢٨٪. أما واقع أنه تم استبعاد أكبر حزبين شيوعيين غربيين (الفرنسي والإيطالي) من السلطة عام ١٩٤٧ فعزّز انطباعات القيادة التشيكية. وقد كثف تشيتشاييف وخازيانوف عن تنبؤاتهم المتشائمة المرسلة إلى القيادة العامة في موسكو. حتى أن خازيانوف أعلم بلتسيك بأن تقريره ـ الإنذار الذي يدين به الأحزاب

---

١ ـ Kaplan., *The Short March...*, PP. 137-138.

غير الشيوعية لتحضيرها انقلابًا... قد رحب به ستالين ترحيبًا كبيرًا. وفي موسكو، أمر المركز بلاسيك وعملاءه الآخرين وضع اللائحة بالمعارضين الأساسيين والتي ستدرج ضمن عملية تتيح "تصفية الثورة المضادة". وفي الوقت ذاته، راحت الـ STB تتهم قيادة الحزب بـ"تشجيعها الثورة المضادة" وتصر على قدوم الديمقراطية الشعبية السريع[1].

بحجة ضمان الأمن الشخصي لأعضاء الحكومة، ألحق بكل الوزراء حرس خاص من الـSTB، والذين كانت مهمتهم في الواقع التجسس عليهم. وهذا وزير غير شيوعي يتذمر في كانون الثاني - يناير عام ١٠٤٨ من أنّه بإمكان بعض الضباط "الظهور في كل لحظة "لنبش" المكاتب الخاصة بالوزراء والتنصت علينا عبر أجهزة الهاتف في منازلنا، ورصد الأشخاص الذين نتصل بهم، إلخ". أما شعبة الـF، وهي وحدة سرية من الـSTB يقودها كارل سفاب، فكان اختصاصها جمع المعلومات المشبوهة حول رجال السياسة غير الشيوعيين؛ فهي تزرع عملاءها في الحزب الوطني الاشتراكي وفي حزب الشعب. وقد نظمت مجموعة صغيرة من هذه الشعبة - عرفت باسم جنة RR - تشكيلة من التحديات، بدءًا بالشعارات الهدامة التي تنشدها خلال الاحتفالات غير الشيوعية كحجة لتفريقها وانتهاءً باختراع "مؤامرة ضد الدولة" في سلوفاكيا. وقد استنتج كارل كابلان، مستندًا على الملفات التشيكية السرية، بأن مستشاري الـ MGB، تسيشاييف وخازيزنزف قاما بدور حاسم أكثر فأكثر في قيادة الشعبة الـF ولجنة الـRR، وذلك "من وراء ظهر السياسيين الشيوعيين الرئيسيين"[2].

---

١ - Kaplan, The Short *March*, PP. 138-139.

٢ - Kaplan, The Short *March*, PP. 140-146, ch. 8.

لم يصدق "كليمان غوتوالد"، زعيم الحزب الشيوعي ورئيس المجلس ابتداءً من أيار - مايو عام ١٩٤٦، تقارير STB المتشائمة التي تعلن عن انقلاب وشيك تحرِّكه الأحزاب الأخرى بمساندة القوات المسلحة. وكانت أكثرية قادة الحزب تشاطر هذا الرأي إنما كانت على يقين بأن المعارضين يحاولون إبعادهم وأنه من الضروري تفجير إضراب وقائي. وفي بداية عام ١٩٤٨، حاول بروكوب درتينا، وزير العدل الوطني الاشتراكي، دون طائل وبالتعاون مع الوزراء غير الشيوعيين إنشاء لجنة استقصاء حول مفاسد الـSTB. وفي ١٩ شباط - يناير، قَدِمَ نائب وزير الخارجية السوفياتي، "ف. أ. زورين" الذي كان قبل وقت قصير سفيرًا في براغ، راجيًا "غوتوالد" تنظيم المواجهة النهائية مع أعداء الشيوعيين. أعطى غوتوالد موافقته، غير أنه رفض طلب التواجد العسكري السوفياتي الذي عرضه عليه زورين بإلحاح "وهي المرة الوحيدة التي لا يطيع فيها أوامر السوفيات"[١].

وبناءً على ذلك، ها هي المعارضة تقوم بلعبة غوتوالد، إذ قدّم الوزراء الكاثوليك والديمقراطيون والوطنيون الاشتراكيون استقالاتهم في العشرين من شباط - فبراير، وفي ظنهم أن بإمكانهم إسقاط الحكومة وإجراء انتخابات جديدة؛ ومع ذلك بقي الوزراء الاشتراكيون - الديمقراطيون في السلطة. وبدلاً من حل البرلمان، ألّف غوتوالد في ٢٩ شباط - فبراير حكومة جديدة سماها الجبهة الوطنية، مؤلفة حصرًا من الشيوعيين وحلفائهم. وتشكلت تلقائيًا "لجان عمل" من الجبهة الوطنية برعاية متسامحة من الشرطة ومن الـ STB، مغتصبة دور البرلمان ومقرَّة تأميم مجموع الاقتصاد. فاستسلم الرئيس بنيس Benés للضغط الشيوعي. وفي أيار - مايو استولى الشوعيون على السلطة

---

١ - Kaplan, The Short *March*, PP. 157-175.

بواسطة انتخابات مزورة، وفي حزيران - يونيو حل غوتوالد محل بنيس الذي توفي عام ١٩٥٣ بسبب التهاب رئوي وبتأثير مأتم ستالين.

في يوغوسلافيا

ما عدا ألبانيا، التي رسمت نموذجها عام ١٩٦٨، فإن يوغوسلافيا هي الدولة الوحيدة في أوروبا الشرقية ما بعد الحرب التي استتب فيها نظام شيوعي منفصل عن موسكو. عندما توقفت الأعمال العدائية، لم يكن هناك ما يجعل أحدًا يتوقع أن يصبح زعيم الحزب اليوغوسلافي ورئيس الحكومة الاتحادية المارشال تيتو أحد الأهداف الرئيسية للـMGB. وكان تيتو، واسمه الأساسيّ "جوزيف بروز"، من الشيوعيين اليوغوسلاف القلائل المنفيين إلى موسكو والذين بقوا على قيد الحياة بعد "الحرب الكبرى"؛ بحماية الـNKVD، أصبح أمينًا عامًا للحزب اليوغوسلافي عام ١٩٣٧. وفي تلك الفترة، كما أقرّ بذلك في ما بعد "ميلوفان دجيلاس"، الذي أُضطر للانفصال عنه لاحقًا، لم تكن العلاقات مع الـNKVD تبدو أمرًا معيبًا: "إن علاقة ما مع الدوائر السرية السوفياتية كانت ضرورية للحزب – وخاصة بسبب وضعه غير الشرعي – وذلك من الناحية التنظيمية؛ وإن علاقة ما لعضو فرد من الحزب مع الدوائر السرية السوفياتية تعني الاعتراف بمؤهلاته. إن شرفًا كهذا يعزز نفوذه".

وفي "البروليتاري" جريدة الحزب، كان تيتو يتكلم بكل نزاهة عن رفاقه المبعدين في حقبة الإرهاب الكبير، ويرميهم بالشتائم الستالينة المعتادة واصفًا إياهم بالتروتسكين والخونة والمتآمرين والجواسيس والعناصر المعادية للحزب... وعندما أصبح خلال الحرب قائد الأنصار الشيوعيين، فإن عميلاً للـNKVD هو "جوزيب كوبينيك"، واسمه الحركي "فازودوه" أي "الهواء"، تعهّد بتأمين اتصالاته مع موسكو عبر الراديو. وقد

كتب دجيلاس أنه "ومع نهاية الحرب، اهتمت دوائر المخابرات السوفياتية بتيتو على وجه الخصوص"[1].

في ذلك الحين، لم يكن ثمة ما ينبئ عن المواجهة العنيفة التي وضعت تيتو وستالين وجهًا لوجه بعد ذلك بثلاث سنوات. ورغم كرهه في ما بعد للستالينية، أصر دجيلاس على تعلقه بالاتحاد السوفياتي: "والحق يقال: لم يكن هناك من قائد واحد في الحزب معادٍ للسوفيات، لا قبل ولا بعد الحرب... فلم يكن لدى القادة ولا عند العناصر العادية تلك الوحدة أو اعتقادات بهذا العمق لم لم يكونوا مخلصين "للقوة الاشتراكية الرئيسية". لقد كان ستالين والاتحاد السوفياتي أملنا ومصدر إلهامنا".

أجمعت الصحافة الغربية تقريبًا على وصف يوغوسلافيا بأنها التابع السوفياتي "رقم واحد". وستالين ذاته لم يكن راضيًا كل الرضى سوى عن تيتو. وعندما يروي الرفاق في الحزب اليوغوسلافي في حكاية زيارة قائدهم إلى موسكو عام ١٩٤٦ بمناسبة مأتم الرئيس كالينين، كان يجري الحديث عن "النشوة والعقل المعطّل والعيون البرّاقة والبسمات الساحرة". وكان تيتو بالذات يشع بالثقة "ملاحظًا الصمت المتواضع والمحتشم"...

ومع ذلك فقد كان ستالين والـNKVD قلقين من ثقة تيتو بنفسه ومن روح الاستقلال عنده. وعلى عكس ما حصل في الديمقراطيات الشعبية الأخرى، تفوق الحزبيون اليوغوسلاف على الألمان والطليان لا سيما بوسائلهم الخاصة. وقد صرح تيتو بعيْد الحرب: "لن نكون تابعين أبدًا لأي كان". ومع نهاية الحرب، كان ستالين، الراغب بعدم صدم حساسية حلفائه الغربيين بسرعة كبيرة، يميل لحكومة تحالف مؤلفة

---

١ - Djilas Milovan, *Rise and Fall* Macmillan, (London,1985), PP. 106-107.

من ممثلي لجنة ريبار تيتو وممثلي الحكومة الملكية المنفية في لندن وبرئاسة إيفان سوبازيك. غير أن تيتو لم يكلِّف نفسه احترام الاتفاق الذي أبرمه هو بالذات مع حكومة المنفى عام ١٩٤٤. وهذا سوبازيك، الذي كان قد كُلِّف بمهام وزارة الخارجية، يقدم استقالته في تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤٥ للاحتجاج على انتهاكات تيتو للاتفاق. وفي الشهر التالي حصل هذا الأخير على نصر كامل في انتخابات مزورة. وقد رأى الممثلون البريطانيون والأميركيون وعدد كبير من المراقبين الأجانب أن الفشل الذريع كان من نصيب الشيوعيين لو أن الاستفتاء كان حرًّا.

إن أول مواجهة سوفياتية ـ يوغوسلافية (وقد بقيت سرية) كان موضوعها تدخل الـNKGB بالشؤون اليوغوسلافية. وقد حصلت مصادمات سابقة بين الليوتنان كولونيل تيموفييف، مستشار الـNKGB في بلغراد والكسندر ـ ليكا رانكوفيك، رئيس الدوائر الأمنية لدى تيتو. لم يستسلم رانكوفيك بسهولة للتخجيل: فبعد أن سُجن وضرب بوحشية في سجون بلاده في الثلاثينات، ثم بعد اعتقاله وتعذيبه على يد الغستابو عام ١٩٤١، بقي على قيد الحياة بفضل غارة جريئة قام بها أنصاره. وعندما انتهت الحرب، أصبح مديرًا لمكتب حماية الشعب (OZNA) في وزارة الحرب. وعام ١٩٤٦ أصبح وزيرًا للداخلية محتفظًا بمهمة الإشراف على ONZA والتي أعيد تكريسها رسميًا وتسميتها بإدارة أمن الدولة (UDBA)، غير أنها احتفظت ولسوء حظها باسمها القديم المشهور. ولاحظ دجيلاس أن تيموفييف والمستشار السوفياتي لن يراعي نوبات الصداقة المفاجئة هذه "العادية جدًا عند الروس": "كان تيموفييف يصل إلى مكتب رانكوفيك غاضبًا مضطربًا؛ ويعود منه هادئًا مطمئنًا، ويذهب خائبًا، وذلك تبعًا لما يناقشانه عن تعاونهما المشترك، أو أنه كان يضطر لتبرئة نفسه أمام رانكوفيك من تجنيد السوفيات لمواطنين يوغوسلاف. كانا يتحدثان دائمًا وكانت لغة رانكوفيك

الروسية الناقصة ولغة تيموفييف الصربيّة ـ الكرواتية الأشد ضحالة لا تزعجهما. وهكذا تم اكتشاف حالة تطويع واضحة؛ فهاجم رانكوفيك من جديد تيموفييف، والذي كان يتمسك دائمًا بالأعذار ذاتها: والمقصود مبادرات قام بها العملاء بشكل فردي؛ فليست هذه بالسياسة الرسمية وهي ليست بأي حال سياسته".

في الواقع كان تجنيد العملاء اليوغوسلاف من الأولويات الملحة عند الـMGB/NKGB في يوغوسلافيا بعد الحرب. ومن بين هؤلاء العملاء فإن اثنين منهما كانا عضوين في وزارة تيتو. فهذا وزير الصناعة "أندريا هبرانغ"، المسؤول الحزبي في كرواتيا، يستسلم لابتزاز الـNKGB، ويعترف أنه خان بعض رفاقه تحت التعذيب في سجون للغستابو. ويُعدُّ وزير المال "ستريتين زيجوفيك Zujovic" من بين المحبرين السوفيات. وعام ١٩٤٥ صُدم تيتو ـ الذي كان يجهل وجود جواسيس في وزارته ـ بشكل خاص من محاولات إغراء وتجنيد "دزيكا بروفيك"، مسؤول فك الرموز اليوغوسلافي. فقد انفجر غاضبًا عندما أخبره رانكوفيك بذلك، وصرخ قائلاً: "لا نرغب بشبكة تجسس، لا بد أن نقول لهم ذلك فورًا". وظهر تذمره شخصيًا أمام السفير السوفياتي ورئيس البعثة العسكرية[١].

ومع أنه قاوم تدخل الـ NKGB، فإن تيتو كان يستلهم دون تردد طرقه الخاصة. وخلال السنوات الأربع من الحزب، لقي ١٠٪ من أصل ١٥ مليون يوغوسلافي مصرعهم. وخرج الشيوعيون منتصرين ليس فقط على الألمان والطليان، بل وكذلك من حرب أهلية قاسية بشكل غير معقول. وبعد انتصارهم، ترأست الـOZNA الإرهاب ضد الأنصار اليوغوسلاف القدماء Tchetmiks التابعين للصَربيّ "ميخايلوفيتش" وضد

---

١ - Dedjier Vladimir, *Tito Speaks* (London, 1953), P. 268.

المقاومين القدماء الآخرين. وهذا هو "د. ميلان غرول"، العضو القديم في الحكومة الملكية المنفية، ثم نائب رئيس الوزراء، يعلن في صيف عام ١٩٤٥: "لم تعد هذه دولة، بل إنها مسلخ!" فقد تم اعتقال ميخالوفيتش هو الآخر عام ١٩٤٦ وذلك بعد أن حثّه أحد ضباطه (الذي وقع بين أيدي الـ OZNA، التي جندته لصالحها) مُوقِعًا به للخروج من مخبئه. وقد أقيمت له محاكمة صورية وجرى إعدامه.

"إن نتائج الإشراف والمراقبة في كل المجالات الأمنية ـ إشرافٌ تسلّل إلى كل مسام المجتمع بما فيها العائلة والحياة الفردية ـ كانت كارثة على الحزب بالذات"... وهذا ما سجله دجيلاس في ما بعد. وعام ١٩٤٦ كتب المراقب البريطاني "فرانك ودامس" يقول: "تمارس الـOZNA مراقبة مطلقة على حياة وحرية وملكية كل المواطنين. فعندما تُقرِّر توقيف أو سجن أحدهم، أو نفيه أو تصفيته، فلا مجال للاحتجاج أو طلب أية تفسيرات. وهذا ما جعل الناس يعيشون بحالة رعب". وقد كشفت محاكمات ١٩٤٧ الكبرى "العديد من الجواسيس الذين يعملون لصالح الدوائر الامبريالية الأجنبية" في صفوف الأنصار القدماء اليوغوسلاف Tchetmks. وفي صفوف "رعاع الرأسمالية"، وبين أحضان الكنيسة الكاثوليكية وفي صفوف المعارضين للنظام[١].

أما على مستوى قيادة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي فقد تغلب شعور التضامن مع الاتحاد السوفياتي. و"الديمقراطيات الشعبية" الفتية، على الاستياء الناجم عن تدخلات الـMGB. وفي أول اجتماع الكومنفورم ـ الذي خلف الكومنترن عام ١٩٤٧ ـ كانت يوغوسلافيا حاضرة كنموذج للأحزاب الأخرى الأقل تصميمًا، واختيرت بلغراد

---

١ - Biloff Nora, *Tito's Flawed Legacy*, V. Gollancz (London,1985), PP. 133-134, 140-141

كمركز أمانة عامة لهذه المنظمة. ومن الجانب اليوغوسلافي، لعبت المحاولة التي بذلها المستشارون السوفيات لثني القيادة العليا للجيش اليوغوسلافي عن واجبها دورًا رئيسيًا في تفجير الصراع. ويقول "ألكسي بيلر"، الذي أصبح في ما بعد ممثل يوغوسلافيا في الأمم المتحدة، بأنه "وبناء على أوامر ستالين اخترق الروس أكثر فأكثر الجيش اليوغوسلافي، وعلى هذا النحو بدأت كل الهموم". ودُبرت القطيعة من الجانب الروسي. ومن إشارات الاستقلال الصادرة عن تيتو، فإن الأشد خطورة منها كانت ولا ريب خطته حول اتحاد دول البلقان والتي فسرها ستالين، على ما يبدو ـ كتحدّ شخصي للهيمنة السوفياتية. وفي آذار ـ مارس من عام ١٩٤٨، استدعى السوفيات مستشاريهم المدنيين والعسكريين وألغوا بشكل عنيف الحزب اليوغوسلافي المصاب بالهرطقة الأيديولوجية وبالجواسيس البريطانيين معًا. وفي ٢٨ حزيران ـ يونيو، استبعد الكومنفورم اليوغوسلاف من داخله، وطلب من "العناصر السليمة" تغيير القيادة...

كان ستالين يقدّر عاليًا قوته، ويتباهى حسب خروتشوف، أن "بإمكانه التخلص من تيتو بمجرد إشارة بسيطة منه". غير أنه أحسن صنعًا، فقد كانت سيطرة الزعيم اليوغوسلافي على الحزب والجيش ومعظم أجهزة الدولة لا مثيل لها في الديمقراطيات الشعبية الأخرى. وخاضت الـUDBA والـMGB حرب مخابرات غادرة. وقد تم على وجه السرعة اعتقال "هبرانغ" و"زوجوفيك" العميلين السوفياتيين في وزارة تيتو. وبينما كانوا يحاولون اجتياز الحدود الرومانية، تم اعتراض ثلاثة من أصحاب الرتب العالية كانت الدوائر السرية السوفياتية قد جندتهم. وكشف عن عملاء سوفيات حتى داخل حرس تيتو الخاص. ويقول دجيلاس بوجود مؤامرة استهدفت "إلغاء المكتب ببنادق أوتوماتيكية في الوقت الذي يتسلى فيه أعضاؤه بلعب البليار في فيلاّ تيتو". إن الإرهاب الذي مارسته الـUDBA ضد "خونة" الكومنفورم بزَّ إرهاب الـ NKVD في الثلاثينات.

وقد أسرَّ دجيلاس لرانكوفيك خلال صيف عام ١٩٤٨ بما يلي: "إننا نعامل الآن أنصار ستالين مثلما كان قد عامل أعداءه". أما رانكوفيك، الواقف على حافة اليأس، فأجابه: "لا تقل ذلك، إخرس". وقد اعترف رانكوفيك في ما بعد بأنه تم إرسال ١٢,٠٠٠ من أنصار ستالين والكومنفورم - المُدانين ظلمًا بشكل عام - إلى معسكر التصفية في غولي أوتوك (الجزيرة العارية) - ولا ريب بأن الرقم الحقيقي كان أكثر بكثير من ذلك. وعلى حد قول دجيلاس فإن "الشر والعار - شر دون مثيل وعار لا يخمد أواره - كانا بانتظار سجناء المعسكر". ولمجرّد رسو المركب، طرحوا أرضًا على رؤوسهم في صفوف منتظمة، وانهال الحرس عليهم بالضرب من الجهتين: وقد عوملوا باستمرار بشكل سيء، ومهين داخل المعسكر: فكانوا يغطّسون لهم رؤوسهم في سطول مليئة بالغوط البشري عند رفضهم الكفر بهرطقاتهم ونكران جرائمهم الحقيقية أو الوهمية منها...

في ألبانيا

إن أول انتصار كبير أحرزته الـMGB في حربها السرية ضد الـUDBA كان الانقلاب المعادي لتيتو في ألبانيا. فحتى مرحلة القطع معه، كان ستالين قد قبل أن تبقى ألبانيا تابعة ليوغوسلافيا. فخلال الحرب العالمية الثانية، أعاد "مستشارون" يوغوسلاف تنظيم الحزب الألباني بقيادة، "أنفر هودجا" كأمين عام و"كوسي إكزوكس" الذي أصبح وزيرًا للداخلية في حكومة بإشراف الشيوعيين. وقد أعلن هودجا بعد الحرب أنه "دون معركة الشعب اليوغوسلافي، فإنّ مقاومة الأمة الألبانية الصغيرة كانت مستحيلة أو ضربًا من الخيال". وتحت ضغط الـOZNA، طرد الحزب الألباني "المنحرفين" و "التروتسكيين". ومن هؤلاء "استاس ليدو"، مسؤول الشبيبة الشيوعية، الذي سرّح بحجة "الانحراف اليساري"، و"لازار فوندو"، أحد مؤسسي الحزب الألباني، الذي عاد ولا

ريب من منفاه في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٤، ثم ضُرب حتى الموت بحضور لجنة عسكرية بريطانية، و"مصطفى غجينيشي"، عضو المكتب السياسي الذي أُعدِم نظرًا لتشكيله جبهة موحّدة معادية للفاشية مع بعض الجماعات "البرجوازية". أما السغريمي Sigurimi، وهي دائرة الأمن الألبانية، فوجدت نفسها في الموقع ذاته من التبعية إزاء قيادة الـOZNA مثل أكثرية دوائر أوروبا الشرقية الأمنية إزاء الـNKGB. وقد عانى هودجا أشد المعاناة من جراء شعوره بموقعه المهدد على يد خصمه "إكزوكس"، مسؤول السيغريمي بوصفه وزيرًا للداخلية والذي كان يتمتع بثقة تيتو. وفي أيار - مايو من عام ١٩٤٧ نظم إكزوكس المحاكمة الصورية لتسعة أعضاء في مجلس الشعب معادين ليوغوسلافيا... وقد تمت إدانتهم جميعًا بسبب "نشاطاتهم التخريبية" وصدرت بحقهم أحكام قاسية بالسجن. وفي الاجتماع التأسيسي للكومنفورم في آب - أغسطس عام ١٩٤٧، مثل الحزب اليوغوسلافي الألبانيون، وبعد ذلك بأربعة أشهر، قال ستالين لدجيلاس: "تحسن صنعًا بضم ألبانيا... وخير البر عاجله"![١].

أتاح الصراع السوفياتي - اليوغوسلافي عام ١٩٤٨ لهودجا فرصة للتغلب على إكزوكس في الصراع على السلطة. وفي الوقت ذاته الذي سحبت فيه موسكو "مستشاريها" من بلغراد، توافد ضباط الـMGB على تيرانا. وبعد القطيعة مع السوفيات، أمر هودجا مباشرة بطرد اليوغوسلاف، وأصبح منافسه. أما إكزوكس فحاول عبثًا أخذ موقف الحياد مؤكدًا تأييده للاتحاد السوفياتي. وقد تم توقيفه وتوقيف أنصاره كذلك، وحل محله في وزارة الداخلية "محمد شيخو Mehmed Sheku"، المقرب من السوفيات والذي أدخل مستشارين من الـMGB لتطهير وإعادة تنظيم السغريمي.

---

١ - Clissold Stephen, *Djilas: The Progress of a Revolutionery*. Maurice Temple Smith (Hounslow,1983), PP. 175-178.

وبعد خمسة أشهر من الاستجوابات وأعمال التعذيب التي قامت بها السغريمي بإشراف الـMGB، أعطى إكزوكس وأنصاره اعترافات تفصيلية. وقد زار هودجا موسكو في آذار ـ مارس عام ١٩٤٩، وذلك من أجل التحضير لمحاكمة "كوسي كسوكس وعصابته" التي بدأت بعد شهرين. وقد اعترف كسوكس بأنه كان مجندًا خلال الحرب وفي الوقت ذاته لصالح الدوائر السرية الإنكليزية والأميركية، وأنه كان قد تم إعلامه شخصيًا عام ١٩٤٣ بأن تيتو كان عميلاً بريطانيًا وأنه شارك بمؤامرة مدبرة بالاشتراك مع تيتو والـSIS لضم ألبانيا إلى يوغوسلافيا. وقد أُعدِم في تموز ـ يوليو عام ١٩٤٩ بسبب جرائمه المتنوعة.

شكلت محاكمة إكزوكس ثم إعدامه المقدمة لسلسلة من المحاكمات ـ الحقيقية أو الخيالية في أكثر الأحيان ـ للمتواطئين مع تيتو، والتي نظمتها الـMGB في كل أوروبا الشرقية تقريبًا. وحتى موت ستالين عام ١٩٥٣، خلف تيتو تروتسكي في دور الهرطوقي الكبير. غير أنه خرج، وعلى عكس مؤسس الأممية الرابعة ـ سليمًا معافى ومنتصرًا في نهاية صراع دام خمس سنوات مع الـKGB، والتي حصلت خلال تلك الفترة ذاتها على عدد من النجاحات الصورية في معركتها مع الدوائر السرية القارية. لكن وعلى غرار الـKGB في الثلاثينيات، بددت في الوقت ذاته جزءًا من طاقتها في حرب مع أعداء وهميين تمامًا[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ص٣٧٤ ـ ٣٩٧.

الغزو السُّوفيَاتيّ لهنغاريَا

أدرك أندروبوف كما أدرك كريوتشكوف أيضًا أن ستالينية راكوزي الجديدة أدت إلى حدوث خطر كبير في السلطة الشيوعية في هنغاريا. وبات ذلك الخطر الجسيم أكبر خطورة، بعد "التقرير السري" لخروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في شباط - فبراير، ١٩٥٦، والذي طبع بعد أربعة أشهر ونشر في الغرب.

وكان ذلك التقرير يفضح "عبادة الشخصية" في زعامة ستالين، كما يحدث عن "الجموح والتمرد الشديدي الخطورة على مبادئ الحزب، وديمقراطية الحزب، والشرعية الثورية" التي نتجت بعد ذلك.

لذلك، فقد طار "ميكويان" إلى بودابست في ١٧ تموز - يوليو ١٩٥٦، حيث أجبر راكوزي على التخلي عن مهماته مدعيًا تعبًا صحيًا للعودة إلى الاتحاد السوفياتي.

أما خليفته، فكان إيرنو جيرو "الصلب" وليس إيمري ناجي، المصلح، والمحبوب من الشعب.

وأشعل سقوط راكوزي والأنباء الآتية من بولونيا والتي تحدثت عن الإصلاحات، الرغبة في نفوس الجماهير لأجل القيام بتغييرات جذرية.

وفي ٦ تشرين الأول - أكتوبر، جرى تشييع وطني حافل لـ"لازلوي راجك"، فأثارت الجنازة الشعور العام...

وبينما كانت الأزمة تشتد يومًا بعد يوم، على امتداد شهر تشرين الأول ـ أكتوبر بكامله، غادر رئيس المستشارين في KGB، الجنرال إيمليانوف، بودابست متوجهًا إلى موسكو، بينما كان سيروف يقطع الطريق المعاكس ــ وكانت تلك المرة الأولى التي يشرف فيها رئيس الـ KGB شخصيًا، على عملية بهذه الضخامة خارج الاتحاد السوفياتي.

وقامت ثورة طلابية، فنزل الطلاب في مظاهرة حافلة إلى الشوارع ضمت ٢٥٠,٠٠٠ مواطنًا، كانوا جميعهم يطالبون بانتخابات حرة، وبعودة إيمري ناجي، وانسحاب القوات السوفياتية.

وبعد الساعة التاسعة مساء، أطلق ضباط من مركز AVH (دوائر الأمن الهنغاري)، النار على الجمهور الأعزل من السلاح، قرب مبنى محطة الإذاعة، وقتلوا عدة اشخاص.

ووصلت قوة مسلحة إلى المكان لنجدة الضباط، وكان أفرادها مختبئين في سيارة إسعاف؛ لكن الجمهور الذي اكتشف وجودهم ما لبث أن سحب منهم أسلحتهم.

وتمكن المتظاهرون، خلال ساعات معدودات، من تجميع المقاومين المطالبين بالحرية وفي حوزتهم جميع أنواع الأسلحة التي قدمها لهم مؤيدون في قلب دوائر الشرطة وفي الجيش، كما حصلوا على غيرها من مستودعات الذخيرة، واستطاع العمال العاملون في مناجم الفولاذ من إسقاط تمثال ضخم لستالين.

وبدأت الثورة...

وفي غضون اجتماع طارئ عقد في نفس تلك الليلة في وزارة الداخلية، قدم سيروف كمستشار سوفياتي جديد، دون ذكر هويته.

ووقف سيروف، ثم خاطب الموجودين قائلاً: "إن الفاشيين والامبرياليين أنزلوا قواتهم إلى شوارع بودابست، مع العلم أن ثمة رفقاء لنا في القوات المسلحة في جيش بلادكم يترددون في استعمال سلاحهم!".

لكن ساندرو كوباكسي، رئيس البوليس في بودابست، الذي عمل في ما بعد على جمع صفوف المقاومين المطالبين بالحرية، أجابه بازدراء: "يبدو واضحًا أن الرفيق المستشار الآتي من موسكو لم يجد الوقت للاستعلام عن الحالة الموجودة في بلدنا. ينبغي أن نخبره بأن هؤلاء المتظاهرين ليسوا من "الفاشيين" أو "الامبرياليين"... والذين ينظمون التظاهرة ويقودون حركة التحرر هم من خريجي الجامعات، ولكنهم أبناء وبنات الفلاحين والعمال، أي زهرة الذكاء في بلادنا الذين يعبرون عن تعاطفهم مع البولونيين ويشعرون بمشاعرهم".

وبعد مرور ربع قرن، كان كوباكسي يتذكر تلك النظرة الغاضبة التي حدثه بها سيروف من عينيه الزرقاوين.

وفي تلك الليلة ذاتها، أي في ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر، عيّن جيروي، إيمري ناجي رئيسًا للوزراء، بموافقة السوفيات؛ ولكنه طلب في وقت واحد "المساعدة الأخوية" من القوات السوفياتية المرابطة في هنغاريا لمواجهة التهديد "ضد الثورة".

في فجر اليوم التالي، حاول الجيش الأحمر لأول مرة التعرض للثائرين بمساعدة AVH (دائرة الأمن الهنغاري)... ونتج عن ذلك بالطبع عدة أيام من القتال في الشوارع، تبين بعدها أي الجهات تقف مع العمال وتساندهم. وفي اليوم الخامس والعشرين من تشرين الأول ـ أكتوبر، حل "كادار" محل جيوري، في مركز السكرتير الأول للحزب.

وأُعلن الاثنان أن المفاوضات بشأن انسحاب القوات السوفياتية سوف تُفتتح حينما يستتب الأمن.

واعترف خروتشيف في ما بعد، بأن الكرملين ظل لعدة أيام مضطربًا، تكتنفه الحيرة لا يعرف هل "يلجأ إلى القوات المسلحة" أم "يخرج من هنغاريا": "لست أدري كم مرة غيّرنا رأينا".

شك سيروف بوجود مؤامرة "امبريالية" فأمر عشرين عميلاً سريًا يعيشون في الغرب بأسماء مستعارة للمجيء إلى هنغاريا لتقييم الحالة، والقيام ببعض الاضطرابات إذا دعت الضرورة، تكون سببًا أساسيًا لتدخل عسكري ـ وهذا التكتيك قد أعيد التعامل به في براغ عام (١٩٦٨).

وتتابعت الأحداث بسرعة.

وألغيت دائرة AVH، الأمن الهنغاري، في ٢٩ تشرين الأول ـ أكتوبر، المسؤولة عن موت مئات الثائرين؛ كما أن عددًا كبيرًا من الضباط الذين تعرضوا للشعب لاقوا مصرعهم خلال المعارك.

وفي ٣٠ تشرين الأول ـ أكتوبر، وافق مكيويان وسوزلوف، مبعوثا الكرملين على مبدأ رحيل القوات السوفياتية وفتح باب المفاوضات بخصوص انسحاب هنغاريا من معاهدة وارسو.

وبعد ظهر ذلك اليوم، توجه ناجي إلى الأمة معلنًا أنه سيؤلف حكومة أكثرية: "في انتظار الفائدة التي ستعود على البلاد في ما بعد إذا ما طبقت الديمقراطية، فإن الحكومة تلغي نظام الحزب الواحد وتختار التعاون الديمقراطي بين أحزاب الاتحاد كما كانت موجودة في العام ١٩٤٥".

جدير بالذكر أن موسكو كانت تبني آمالها على ناجي بيد أنها عندما استمعت إلى خطابه في ٣٠ تشرين الأول ـ أكتوبر، باشر الزعماء السوفيات بتحضير انقلاب يتم في سرية تامة.

وأوكلت مهمة إزاحة حكومة ناجي إلى يوري أندروبوف، وقال أحد الدبلوماسيين السوفيات في بودابست أن رئيسه كان أول من "شعر" بنوايا ناجي، وأنه ظل هادئًا رابط الجأش، وسيدًا للموقف في الأزمة التي تبعت: "كان في منتهى الهدوء ـ حتى عندما بدأ الرصاص يصفر حول السفارة من كل جانب، وكأن السفارة قلعة محاصرة".

وفي أول تشرين الثاني ـ نوفمبر، أيقظوا ناجي بسرعة: كانت وحدات من الجيش الأحمر تدخل هنغاريا بينما وحدات أخرى سوفياتية كانت تنسحب من بودابست.

واتصل ناجي عدة مرات بأندروبوف، الذي أكد له في كل مرة أن الجلاء سيتم كما هو متفق عليه؛ فالقوات التي دخلت هنغاريا كانت مهمتها الحماية، والمحافظة على أمن وسلامة القوات الراحلة.

وأعلن ناجي انفصال بلده عن معاهدة وارسو، وفي اليوم التالي، اعترضت الحكومة الهنغارية بشكل رسمي على ما جرى واشتكت الاتحاد السوفياتي لدى ONU، منظمة الأمم المتحدة لاغتصاب الأراضي الهنغارية.

وفي الوقت الذي كان فيه أندروبوف يهدئ روع ناجي من المخاوف التي انتابته، كان في الوقت نفسه يتآمر مع كادار على الإطاحة به، ولم يكن ثمة أدنى شك بأن هذا الأخير كان يعمل إلى جانبه مضطرًا، وتحت تأثير التهديد؛ فهو لم ينس سنوات السجن والتعذيب الذي لقيه وتحمله بين سنوات ١٩٥١ و١٩٥٤، وبالطبع فإن أندروبوف كان يهدده بترفيع راكوزي، إذا رفض التعاون معه.

ودعي وزير الدفاع في حكومة ناجي، بال ماليتر، في مساء ٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر، إلى المركز العام الرئلسي "Q.G" للقوات السوفياتية لأجل مناقشة آخر تفاصيل جلاء الجيش الأحمر.

وفي منتصف الليل، وحينما كان الحاضرون يتبادلون الأنخاب، اقتحم سيروف صالة الاجتماع، وفي قبضته "ماوزر" ومن خلفه مجموعة من الضباط، وألقى القبض على الوفد الهنغاري. واحتجز كل واحد من السجناء في زنزانة إفرادية. وما كان الصبح يَنبلج، حتى سمع صوت إطلاق رصاص ـ تنفيذ حكم الإعدام بالسجناء ـ فتأكد ماليتر وجماعته بأن جميع المعتقلين قد لاقوا حتفهم إعدامًا بالرصاص.

وفي ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر، نفذ الجيش الأحمر هجومه...

ولكي يؤجل المقاومة الهنغارية أكبر وقت ممكن، فقد تمسك أندروبوف بالخداع والغش حتى آخر دقيقة.

وحينما اتصل قائد الجيش الهنغاري هاتفيًا برئيس الوزراء لإعلامه بالغزو السوفياتي، أجابه ناجي: "إن السفير أندروبوف موجود معي هنا، وهو يؤكد لي أن ثمة خطأ قد حدث، وأن الحكومة السوفياتية لم تصدر أوامرها بغزو هنغاريا. فالسفير، وأنا.. نحاول الاتصال بموسكو".

وفي وقت متأخر من ذلك الصباح ذاته، ألقى ناجي آخر رسالة من على موجات أثير محطة الإذاعة:

"في الساعات الأولى من هذا الصباح، قامت القوات السوفياتية بتنفيذ هجوم على العاصمة بقصد الإطاحة بالحكومة الشرعية الديمقراطية في هنغاريا. إن قواتنا تقاتل

الغزاة، والحكومة لا تزال في موقعها. إنني أبعث هذه الرسالة إلى الشعب الهنغاري وإلى العالم أجمع".

وخلال ذلك النهار، التجأ ناجي ووزراء عديدون إلى السفارة اليوغوسلافية طالبين الحماية.

أما المناهضون "لمكافحة الثوريين"، وبخاصة المهمون منهم، الذين لم يتمكنوا من إيجاد ملجأ لهم في أي سفارة، أو في الخارج، فقد وقعوا بطبيعة الحال فريسة بين أيدي سيروف.

واستطاع سيروف أن يلقي القبض بنفسه على ساندور كوباكسي؛ وقد افصح عن حقيقة هويته وعن مركزه كرئيس لدائرة KGB.

وبعد أن تذكرا معًا اجتماعهما في ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر، قال له: (لكن ما قيل ثبت فيما بعد أنه.. كذب): "سوف أشنقك على أعلى شجرة في بودابست!".

ووعدت الحكومة الجديدة برئاسة كادار والتي كان يساندها السوفيات، في ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر، ناجي ووزراءَه بتأمين خروجهم سالمين من السفارةَ اليوغوسلافية.

وفي ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر وصل باص خاص ليقلهم من السفارة... وما كادت السيارة تنطلق من أمام مبنى السفارة حتى لحقت بها شرذمة من KGB فأوقفت الركاب ثم أبعدتهم إلى رومانيا...

وجرى استجواب ناجي وزملاءه بإشراف بوريس شوميلين، مستشار KGB، "لشؤون مكافحة الثورات". وأعلن كادار من على موجات الراديو الهنغاري في ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر: "لقد وعدنا بعدم إجراء محاكمة أو اتخاذ أيّ إجراءات قانونية

ضد إيمري ناجي وأصحابه للجرائم التي ارتكبوها في الماضي، حتى لو اعترفوا بها مستقبلا".

وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٥٧، كرر وزير الخارجية القول بأن حكومته "ليس في نيتها إطلاقًا فتح تحقيق أو اتخاذ أي إجراء قانوني ضد إيمري ناجي".

ولكن ناجي كان يرفض دائمًا الاعتراف بجرائم وهمية لم يرتكبها، ونظرًا لعناده، فكرت موسكو بإتباع وسيلة أخرى معه.

فقد بات أسلوبها معروفًا بكل تفاصيله. وبالمقارنة مع المآسي التي كانت تحدث قبل ذلك بعشرين عامًا، والتي تكررت بشكل دقيق، فإن محاكمة ناجي والمتواطئين معه "كانت للتآمر ضد قمع الثورة".

وتأكيدًا على ذلك، فإن الامبريالية في ذلك الوقت كانت "المحرض والمنظم الرئيسي ضد مكافحة الثورة"، لكن التفاصيل كانت تبدو ضئيلة أمام الذي كان يحدث في الماضي.

وقد اتهمت إذاعة "راديو أوروبا الحرة" (Radio Free Europe) بأنها كانت بمثابة (Q.G) المركز الرئاسي الحربي والسياسي في الخارج ضد الذين يكافحون الثورة"، وأنها قد سهلت مرور الأسلحة إلى هنغاريا في الرزم الخاصة بالصليب الأحمر.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اتهم في هنغاريا نفسها، الملحق العسكري الإنكليزي، الكولونيل جيمس كولي، بأنه كان له "حصة كبرى ومباشرة في "الإدارة العسكرية والجهادية لحركة الثورة"، كما اتهمت أيضًا برلماني ألماني غربي، هو الأمير هوبيرتوس فون لوينستاين، الذي كان على اتصال "بكبار الرأسماليين في ألمانيا الغربية".

وكانت محاكمة ناجي، حتى بالنسبة للعالم الخارجي الذي اطلع على حيثيات المحاكمة بناء على النسخة التي وزعت للخارج، بمثابة الكارثة. ومن بين الأشخاص الستة الذين وافقوا على مغادرة السفارة اليوغوسلافية، مات واحد متأثرًا بآلام التعذيب، ومات الثاني مخنوقًا لإضرابه عن الطعام!. أما في ما يتعلق بناجي ورفقائه الناجين الآخرين، فقد رضخوا لمحاكمة سرية في شباط ـ فبراير ١٩٥٨. وقد رفض المتهمون الاعتراف بأنهم مذنبون، ولذلك اسقطت التهم التي كانت "ملفقة" ضدهم.

وعندما انتهت المحاكمة في حزيران ـ يونيو، تشبث ثلاثة من الأربعة الباقين ببراءتهم. ولكنهم في النهاية حوكموا، واعتبرتهم المحكمة مذنبين؛ ثم نفذ فيهم حكم الإعدام ودفنوا في مقابر مجهولة، دون الإشارة إلى أسمائهم.

تجدر الإشارة إلى أن خمسة من المعتقلين صدرت بحقهم أحكام مختلفة بالسجن.

وكان من الصعوبة القصوى أمام شوملين ومساعديه وأعوانه "إلصاق" التهمة "بناجي وجماعته من عصابة الخونة"، إلاّ بعد المحاكمات السياسية حيث ازدهر سوق الاتهامات الجزافية في الكتلة السوفياتية.

إن ما حدث إبّان التقرير الذي ألقاه خروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب، وما حدث لـِ"لاسيزلوي راجك"، جعل المرابين يصدقون المحاكمات الصورية التي كانت تجري في عهدة ستالين: كما اعتبرها خبراء أمن الدولة السوفياتية في KGB، حتى قبل عهد خروتشيف. وكانت تلك المحاكمة آخر محاكمة سياسية في الكتلة السوفياتية التي يصدر فيها الحكم بقتل الضحايا[1].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٤٧٢ ـ ٤٧٩.

جابور بيتر: أحدب بودابست

بدا مظهر ذلك الأميركي البالغ من العمر ٥٢ عامًا، الذي خرج من أحد سجون بودابست في العام ١٩٥٦ وهو ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين إلى ضوء الشمس الذي لم يره منذ سبع سنوات، كأنه أكبر من سنّه الحقيقي بكثير. وبدا أيضًا كأنه رجل خرج لتوه من محنة مروعة: هزيل، وشعره أبيض، وعيناه ضاربتان إلى البياض. وفي واقع الأمر، فإن "نوئيل فيلد" كان شهد كابوسًا لا ينجو منه أحد أبدًا، وهذا الكابوس هو "جابور بيتر".

حينما خرج فيلد من ذلك السجن، فإن خروجه كان بمثابة الفصل الأخير في حكاية تجسس زاخرة بأفعال زلزلت أوروبا الشرقية خلال عشر سنوات تقريبًا. وكان هناك آلاف من رجال ونساء ماتوا في ظل جنون مناورة محسوبة جيدًا ومطبوخة في موسكو. والأداة الرئيسية إلى ذلك هو عميل الاستخبارات ورئيس البوليس السري الذي أرعب هنغاريا، وهو رجل مخيف وسيء السمعة، حتى أنه أصبح أكثر رؤساء البوليس السري إدانة بجرائم شائنة في كل أنحاء أوروبا الشرقية. ومن المثير للسخرية بدرجة كافية في هذا المجال هو أن هذا رئيس البوليس السري، "جابور بيتر"، اكتوى بنيران ذلك الحريق الهائل الذي أشعل شرارته من قبل.

كان بيتر يجسد حلم مخرج سينمائي في رجل وغد: رجل قبيح على نحو يتعذر تصوره، له حدبة في الظهر، وأعرج، وله وجه صغير بشارب هتلر. وكان تعبيره الأكثر شيوعًا ملاحظة ساخرة، وفي الغالب مقدمة لوجه تلتوي قسماته بغضب شديد.

ولأنه سادي، فهو أحب أن يشارك شخصيًا في إلحاق صنوف العذاب بالآخرين، متباهيًا بأنه لم يعجز أبدًا عن تحطيم أحد وقع في قبضته.

هذا الرجل الذي ولد تحت اسم "بينو" أو "سبيتش" سنة ١٨٩٨، في هنغاريا، أصبح شيوعيًّا متعصبًا خلال الثورة البولشيفية في روسيا، الأمر الذي أصاب بالحزن والده، الخياط، الذي عقد الأمل على أن يحذو ابنه حذوه. ولكن أوسبيتش أصبح أسير فكرة خدمة قضية الثورة العالمية. وفي ١٩١٩، حينما اجتاحت انتفاضة شيوعية مختلف أنحاء هنغاريا الجديدة، فإن أوسبيتش، الذي كان يستخدم في ذلك الوقت اسمه المستعار السري الشيوعي "جابور بيتر"، كان واحدًا من بين المتطرفين الذين تولوا السلطة في بودابست. وبعد إعلانهم عن جمهورية سوفياتية برئاسة الثوري الشيوعي "بيلا كون"، تحرك المتطرفون على الفور لقمع جميع المنشقين غير الشيوعيين. وتزعم بيتر مجموعة من الإرهابيين الذين تعقبوا، وعذبوا، وقتلوا، خصوم كون بضراوة، حتى أن الهنغاريين أطلقوا على بيتر وعصابته من السفاحين "الرعب الأحمر".

هرب بيتر وزملاؤه المتطرفون إلى الاتحاد السوفياتي في أعقاب انهيار جمهورية كون قصيرة الأجل في ١٩١٩. وهؤلاء الهنغاريون الذين افترضوا ذات يوم أن هذا هو آخر ما يمكن رؤيته من أفعال بيتر شعروا بالصدمة بعد ٢٦ عامًا حينما عاد إلى هنغاريا، في هذه المرة بشخصية متعطشة إلى الدماء على نحو أشد وأعظم.

وبدا بيتر كأنه اختفى في عالم النسيان في الاتحاد السوفياتي، غير أن المظاهر كانت مضللة: في حقيقة الأمر، فإن بيتر جرى تجنيده في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، الذي رأى كل شيء ممكن في هذا الأحدب القبيح. وبعد التدريب، خدم بيتر في عدد من محطات جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في أنحاء أوروبا

الشرقية، وفي العـام ١٩٣٠، عهدت إليه مهمـة ممتـازة: عميـل فـي أحـد أهـم مراكـز التجسس في أوروبا: فيينا.

وركز بيتر، الذي كان يعمل مع "ثيودور مالي"، وهو هنغاري آخر مجند في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB وقسيس كاثوليكي سابق، اهتمامه نحو الحركة السرية الصهيونية التي كانت معروفة باسم "بلاو وزير". وبالنظر إلى كونها مجموعة اشتراكية هدفها توفير خدمات ترفيهية وأشياء أخرى لليهود الشباب في فيينا، فإن بيتر ومالي حرصا على تعقبهما من أجل اختيار مجندين واعدين للانضمام إلى جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. واكتشف الاثنان أن بلاو ويز مع أنها مجموعة اشتراكية، فإنها تضم عددًا من الشيوعيين المهاجرين برأيهم، ومن بينهم زوجة مؤسس المجموعة، "أليس كولمان فريدمان". وكانت أليس فريدمان، المعروفة باسم ليتسي، طلقت زوجها حينما لم يتمكنا من تسوية قناعاتهما السياسية الشخصية (كان زوجها اشتراكيًا متصلبًا في الرأي ويكره الشيوعيين). وقام بيتر بتجنيد هذه الشيوعية الناشطة والملتزمة على نحو عميق للعمل كجاسوسة وسيطة بين المجموعات اليسارية المختلفة التي تغلغل إليها جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB.

وكان هذا التجنيد أمرًا عاديًا بدرجة كافية في ظل الاضطرابات السياسية التي شهدتها فيينا في الثلاثينات، غير أنه برهن على كونه تجنيدًا على درجة بالغة من الأهمية لسبب بسيط: فريدمان الأب استقبل تلميذًا نزيلاً في البيت.

كانت فريدمان تعيش في البيت في أعقاب طلاقها. وكان والدها، الذي كان في حاجة ماسة إلى النقود في ظل الانهيار الاقتصادي النمساوي في العام ١٩٣٤، قرر تحويل غرفة إضافية في البيت إلى نقود من خلال عرضها للإيجار. وفي ذلك الصيف، وصل طالب بريطاني من كامبريدج إلى فيينا لدراسة السياسات الأوروبية.

وبسبب حاجته إلى مكان ينزل فيه، لمح إعلان كولمان في جريدة محلية، واستأجر الغرفة لفترة الصيف. وفي اليوم الذي انتقل فيه إلى الغرفة، قابل الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسمر ليتسي فريدمان، وانطلقت شرارة فجأة، وكشفت محادثاتهما عن تقارب سياسي مثير للانتباه، ذلك أن هذا التلميذ في كامبريدج، العضو في خلية حزبية شيوعية في الجامعة، كان ملتزمًا من قبل. وقدمت فريدمان هذا التلميذ كمرشح محتمل "لعمل حزبي هام" (وهذا يعني التجسس) إلى بيتر ومالي، وجرى تجنيد هذا الإنجليزي كجاسوس نافع متدني الدرجة. ومثله كمثل فريدمان، التي كان يعتزم الزواج منها في وقت لاحق من ذلك العام، فهو عمل كجاسوس وسيط.

وبذلك، فإن هارولد فيلبي أصبح جاسوسًا نافعًا لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. ولم يكن بيتر يعرف أبدًا أن فيلبي يمكن أن يصبح أعظم الجواسيس العاملين في الظلام في كل العصور، غير أن تجنيده لهذا الشيوعي البريطاني الشاب عمل في وقت لاحق على تعزيز سمعته في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وهناك دليل واحد على ذلك وهو أن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB قرر استثناءه من موجة التطهير المعادية للسامية التي اجتاحت جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في أواخر الثلاثينيات، حينما، وفق أوامر ستالين، جرى التخلص من جميع اليهود من الاستخبارات السوفياتية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن بيتر أيضًا ساعد نفسه من خلال بعض التصرفات الستالينية الخالصة، ذلك أنه قرر العودة إلى الاتحاد السوفياتي بعد قيام الحكومة النمساوية اليمينية في أواخر الثلاثينات بتطبيق إجراءءات قمعية صارمة ضد المنظمات اليسارية، بما فيها حظر نشاط الحزب الشيوعي. ووصل بيتر في وقت سيء، ذلك أن موجة التطهيرات الستالينية شملت إهلاك الجزء الأعظم من الكوادر العليا في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وبالإضافة إلى اليهود، فإن رئيس جهاز

الاستخبارات السوفياتي KGB، لافنتري بيريا، عكف أيضًا على تطهير الشيوعيين الأجانب، ومن بين أهدافه كان الشيوعيون الهنغاريون، مثل بيتر، الذين هربوا إلى الناحية الشرقية في أعقاب فشل انتفاضة ١٩١٩. وقفز بيتر إلى عربة الموسيقى، واصفًا أصدقاءه الشيوعيين الهنغاريين السابقين بأنهم "جواسيس غربيون". وكان هذا الوصف بمثابة وثيقة إعدام، ذلك أن الهنغاريين اختفوا بين أنياب ماكينة الموت التي أعدها بيريا لهم. وكان من بين الضحايا بيلا كون نفسه، وكان صديقه القديم وصفه بأنه "إمبريالي" وعميل سري للاستخبارات البريطانية... وبعد بضعة أيام بين أيدي مأجوري بيريا، اعترف كون بهذه الجرائم كلها...

مع حلول العام ١٩٤٥، أصبح بيتر في نظر جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB الرجل الذي يمكن أن يكون ذا فائدة أعظم من كونه مجرد عميل استخبارات. وبالنظر إلى أنه برهن على قدرة واضحة في الخيانة والوحشية تنافس قدرة أستاذه بيريا، فمن الطبيعي أن تعهد إليه مهمة أهم من ذلك بكثير: رئيس البوليس السري. وفي ظل وجود هنغاريا تحت الهيمنة العسكرية السوفياتية، فإن جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB كان منهمكًا على نحو ناشط في جعل البلاد شيوعية، وهي مهمة استدعت وجود بيريا الهنغاري، وكاان جابور بيتر هو ذلك الرجل.

وفي هذه المرحلة في حياته، التي غالبًا ما كان يقول فيها إنه لن يتردد أبدًا في الانتحار لو طلب منه ستالين أن يفعل ذلك، وصل بيتر إلى بودابست بأوامر لوضع هنغاريا تحت القبضة الشيوعية. وقام بتكوين جهاز أطلق عليه جهاز الاستخبارات الهنغاري AVH، وهو جهاز جمع بين الاستخبارات الخارجية والأمن الداخلي، كما قام بتجنيد كادر من أشد قطاع الطرق الستالينية وحشية من الذين أمكن العثور عليهم بين صفوف الشيوعيين الهنغاريين.

ذهب هؤلاء المجندون إلى العمل في الأهداف الأولى عند بيتر، وهي المنظمات السياسية غير الشيوعية التي كانت مشاركة في أول ائتلاف حاكم في البلاد. وفي غضون عام، تمكن بيتر من القضاء عليها، ذلك أن سياسيين جرى اختطافهم وقتلهم، وآخرين تلقوا رشاوى، وآخرين أيضًا تعرضوا للتهديد بالتزام الصمت. ومع حلول سنة ١٩٤٨، تمكن بيتر من تحويل هنغاريا إلى دولة حزب واحد بوليسية، وهو نجاح وصفة بيريا أمام الشيوعيين الأوروبيين الشرقيين بأنه نموذج يحتذى به في كيفية استخدام الرعب والقمع لفرض الهيمنة الشيوعية.

بعد توطيد دعائم دكتاتورية الحزب الواحد، تحول بيتر بعدئذ إلى الداخل، منفذًا عملية تطهير أمر بها ستالين في صفوف الشيوعيين الهنغاريين. وفي كابوس من رعب، أمكن جر آلاف من الشيوعيين الموالين إلى مكتب بيتر، حيث قابلوا رئيس جهاز الاستخبارات الهنغاري AVH الذي كان يحمل هراوة. والبعض منهم كانوا أصدقاء سابقين، ولكن هذا لم يكن يفيد في شيء. وبعد أن كان بيتر وعصابته من المعذبين يقضون بعض الوقت معهم، كان هؤلاء الأصدقاء لا يترددون في الاعتراف بجرائم يتعذر تصورها، ومما له دلالة في هذا المجال هو أن أحد أصدقاء بيتر المقربين اعترف بأنه كان يعمل جاسوسًا لحساب تشيكوسلوفاكيا منذ العام ١٩١٧، قبل عامين من وجود تشيكوسلوفاكيا كدولة.

أصبحت سمعة بيتر بين الهنغاريين بأنه "بيريا الهنغاري" أمرًا راسخًا. وكان اسمه، الذي كان في العادة يهمس به خوفًا بين أهل بلده، موضوعًا لحكايات حول هذه الشخصية الغريبة. وتحدث الضحايا الذين تمكنوا بطريقة ما من النجاة بحياتهم من الاعتقال عن عادة بيتر في الذهاب لاستنشاق رائحة مزهريات الزهور في مكتبه أثناء دورات التعذيب المتقطعة. وبالنظر إلى أنه من عشاق الزهور، ففي كل يوم كان مكتبه

يزين بباقات الزهور، ولهذه النباتات وحدها كان بيتر يظهر ضعفًا واضحًا. وفي ما يتعلق بالإنسان، أيًا كانت منزلته الاجتماعية، فلم يكن بيتر يظهر غير الوحشية. وعلى سبيل المثال، فعندما تقرر إلقاء القبض على لازو راجيك، أول وزير داخلية في هذا البلد، ضمن عملية تطهير أمر بها ستالين، واعتقاله بدون تحذير سابق، وأخذه إلى مكتب بيتر، طالب راجيك الغاضب بمقابلة السكرتير الأول للحزب. وعندئذ، قام بيتر بضربه بعنف على وجهه، وقال مزمجرًا: "السكرتير الأول لا يتحدث مع الخائنين".

راجيك، الذي حصل على وعد من بيتر بحماية عائلته في حالة اعترافه بكونه جاسوسًا أميركيًا، اعترف، ولكن بيتر قتله، وقتل كل أفراد عائلته.

ومع حلول العام ١٩٤٩، انتشرت عمليات القمع التي قام بها بيتر في كل أنحاء البلاد، مثل انتشار خيوط عنكبوت ضخم ومؤذٍ، وتعلم الهنغاريون الحذر في محادثاتهم العامة، ذلك أن شبكة قوامها ٨٠،٠٠٠ رجل من المخبرين المحليين، في دولة لا يزيد عدد سكانها عن ٩،٥ مليون، غمرت مكتب بيتر بتقارير حتى عن أشد الكلام براءة بين المواطنين العاديين. وهؤلاء الذين اعتبروا خائنين كانوا يتعرضون إلى إلقاء القبض عليهم من جانب جهاز الاستخبارات الهنغاري AVH في منتصف الليل، ثم تعذيبهم، ثم الحكم عليهم بالسجن لعدة سنوات في معسكرات الأشغال الشاقة، وفي بعض الحالات، الموت.

برغم هذا النموذج لدولة ستالينية، فإن ستالين نفسه قرر أن هنغاريا، بالإضافة إلى دول أوروبا الشرقية الدائرة في فلك موسكو، برهنت على حماسة شيوعية غير كافية. وعلى ما يبدو، فربما كانت هناك أيضًا "عناصر معادية للثورة". ولذلك فإن أوامر صدرت للبدء في موجة تطهير جديدة. وحين الأخذ في الاعتبار موجات التطهير السابقة، فهناك بعض الصعوبة في إيجاد مبرر لواحدة جديدة، ولكن بيتر وزملاءه من

رؤوساء البوليس السري في أوروبا الشرقية اكتشفوا المبرر الصحيح وكان اسمه نوئيل فيلد.

وبوصفه حالمًا شيوعيًا رومانسيًا، فإن فيلد كان واحدًا من الكويكرز الأميركيين، ثم أصبح متعاطفًا شيوعيًا. وفي سنة ١٩٣٤، حينما كان مسؤولاً في وزارة الخارجية الأميركية في الثلاثين من العمر، أصبح فيلد واحدًا من أصدقاء الجير هيس، وجرى تجنيده كعميل نافع لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وخلال الحرب العالمية الثانية، عالج فيلد مشاكل اللاجئين، وقام ببعض الأنشطة في مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، محاولاً بذلك تجنيد شيوعيين للوكالة الأميركية. وبعد الحرب، ذهب للعمل لحساب منظمة خاصة لمساعدة اللاجئين، ولكنه طرد منها في ١٩٤٧ حينما اكتشفت المجموعة أن فيلد يستخدم تسهيلات لمساعدة اللاجئين الشيوعيين فقط، ومن بينهم شيوعيون هنغاريون. وكان نوئيل فيلد دفع ثمنًا باهظًا في وقت لاحق لمساعدته لهؤلاء الهنغاريين.

هاجر فيلد إلى براغ، حيث عقد الأمل على إمكانية بدء مهنة جديدة ككاتب. ولكنه في العام ١٩٤٩ جرى إلقاء القبض عليه فجأة بتهمة التجسس، واستمع فيلد المرتبك إلى اتهامه بكونه "جاسوسًا أميركيًا" قام بتجنيد المئات، وربما الآلاف، من الشيوعيين الأوروبيين الشرقيين للقضاء على الشيوعية. ومهما بدت هذه التهمة مثيرة للضحك، فلم يكن فيلد يعرف أنه أصبح الأداة في حملة تطهير أعظم وأشد دموية في أوروبا الشرقية.

كان بيتر الرجل المسؤول الرئيسي عن هذه الحملة. وكان طلب حضور فيلد من أجل "التحقيق" معه في أنشطة جاسوس أميركي، وخلال فترة زمنية قصيرة، اعترف بأنه العميل الرئيسي في عملية تجسس أميركية هائلة قامت على تجنيد الزعامة العليا

من جميع حكام موسكو في أوروبا الشرقية، وعلىالأخص هنغاريا. ويمكن فقط تصور مدى الرعب الذي تعرض له فيلد حتى وصل إلى هذه المرحلة. ولكن النتيجة كانت هناك أمام عيون الجميع: مئات، ثم آلاف، من الشيوعيين الموالين جرى أخذهم إلى زنزانات التعذيب، ثم أعقب ذلك اعترافهم في محاكمات علنية بأنهم جواسيس أميركيون وبريطانيون. وبعد ذلك، جرى إهلاك الجزء الأعظم من الزعامة الشيوعية الهنغارية، إضافة إلى هؤلاء من بلدان أوروبية شرقية أخرى.

لم يكن تأثير ذلك واضحًا خلال عدة سنوات لاحقة: بعد القضاء على زعامتها ضمن حملات التطهير، بدأت شعوب أوروبا الشرقية في الانزلاق نحو انهيارها النهائي بعد عقود لاحقة.

وفي غضون ذلك، فإن "حملة تطهير فيلد"، كما أصبحت معروفة بهذا الاسم، كان ينبغي أيضًا أن تأكل الضحية الأخيرة: جابور بيتر نفسه. وإدراكًا منها أن حملة التطهير ربما تجاوزت حدودها، بدأت موسكو في البحث عن كبش فداء. وفي هنغاريا، كان بيتر الضحية المختارة. وبناء على أوامر من جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، جرى إلقاء القبض على بيتر بدون توجيه أي تهمة، وتعرض، على نحو تام وكامل، إلى صنوف التعذيب إياها التي ألحقها من قبل بالكثيرين من الضحايا. وبدافع من التحمس لأداء الواجب، اعترف بيتر بكونه "عميلاً للبريطانيين ولأجهزة التجسس الصهيونية"...

ولكن على العكس من معظم ضحاياه، فإن بيتر بقي على قيد الحياة. وكان صدر ضده حكم متساهل نسبيًا بالسجن مدى الحياة والبقاء في السجن نفسه الذي كان فيه نوئيل فيلد، أحد أبرز ضحاياه.

وعندما اندلعت الثورة الهنغارية في العام ١٩٥٦، أطلق الثوريون سراح فيلد، ولكنهم أبقوا على بيتر في السجن. وكان بيتر محظوظًا، ذلك أنه حتى إخماد الثورة في أعقاب التدخل العسكري السوفياتي، تمكن الثوريون من اقتحام مراكز قيادة جهاز الاستخبارات الهنغاري AVH (البعض منهم تعرض إلى الضرب حتى الموت)، وإتلاف جزء من ملايين الملفات التي كانت تحتوي على معلومات محرفة المعاني عن مواطنين عاديين هنغاريين.

وبعد ثلاث سنوات، حدث تطور غير متوقع وغريب في حكاية بيتر، وذلك حينما صدر أمر بإطلاق سراحه من السجن من جانب رئيس الوزراء يانوس كادار، وهو يانوس كادار نفسه، يا للعجب، الذي أمر بيتر بإلقاء القبض عليه وتعذيبه قبل بضع سنوات خلال حملة التطهير الستالينية الأولى. وبتأثير من دوافع بقيت غير معروفة، قدم كادار إلى بيتر وظيفة حكومية متواضعة. وبعد سنوات قليلة، تقاعد بيتر. وبعد عودته إلى انتحال اسمه الحقيقي، بينو أوسبيتش، أمضى سنواته الأخيرة في الاشتغال كخياط ملابس. وحرص الناس جميعًا على تجنب الاحتكاك مع هذا الخياط العجوز الأحدب، إدراكًا منهم أنه كان ذات يوم الرجل الذي أرهب البلد كله.

ومات بيتر في العام ١٩٩٣، وبناء على أوامر من الحكومة، تقرر وضع جثته في قبر غير محدد المعالم، وفي مكان غير معروف. وكان هذا جزءًا من جهود غير ناجحة لنسيان ذكرى هذا المواطن الهنغاري الشائن، غير أن وصمة العار التي خلفها بيتر في نفس أوروبا الشرقية باقية إلى الأبد[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ.

ربيع براغ

في تشيكوسلوفاكيا، اضطرّ أندروبوف إلى مواجهة أوّل تحدٍّ كبير له كرئيس للـ K.G.B. وكان صهر خروتشوف ألكسي أدجوبي، الذي أُعجب بطريقته في مواجهة الثورة الهنغارية عام ١٩٥٦، قد لاحظ مع ذلك أنّ هذه المرحلة "تركت أثرها العنيف على رأيه في أوروبا الشرقية". لكنّ تجربة بودابست ودور "الستالينية ـ الفولاش" في إشعال الثورة أقنعاه بضرورة التساهل. ونُقِلَ إلى غورديفسكي أنّ أندروبوف قال، بعد وصوله بفترة قصيرة إلى المركز في موسكو، إلى المجلس الإداري الأوّل العامّ في الـ K.G.B: "بالليونة وحدها نتفادى تكرار ما حدث عام ١٩٥٦". وقد تبنّى خروتشيف هذه الرؤية حين أصرّ على إظهار المزيد من الاحترام للكبرياء الوطنية للديمقراطيات الشعبية: فمنع الـ K.G.B من التجسّس في أوروبا الشرقية وأمرها بإقامة علاقات مع مصالح الاستعلامات والأمن بدل السعي إلى توجيهها بأيّ ثمن.

في أواسط الستينات، بدا أنّ سياسة الانبساط هذه قد أعطت ثمارها. وقد حصل موجّه الحزب الهنغاري، جانوس كادار، الذي تولّى الرئاسة بعد القمع عام ١٩٥٦، على شهرة عظيمة في المراكز إذ راح يطمئن موسكو معدّدًا البراهين على ثبات نظامه وأرثوذكسية إصلاحاته الاقتصادية. وكان مدعومًا من مصلحة الأمن الهنغاري ومن الأعضاء الشباب في الحزب الهنغاري الذين أرادوا النجاح لكن ضمن إطار النظام.

هذه المخاوف التي أثارتها أوروبا الشرقية حين تولّى أندروبوف رئاسة الـ K.G.B تركّزت على رومانيا. فجورجيودي، السكرتير العامّ للحزب في هذا البلد منذ عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٦٥، تدرّب على أن يكون عنصرًا في مفوّضية الشعب الداخلية في الثلاثينات. وكان ألكسندر ساخاروفسكي، المستشار الرئيسي لوزارة أمن الدولة السوفياتية في بوخارست من ١٩٤٩ حتى ١٩٥٣، يقدّر الحماسة التي يُظهرها ضد العناصر السوقيّة والصهيونية، لكن ساخاروفسكي نفسه وكرئيس للمجلس الإداريّ الأول العامّ، استاء بشكل واضح من الميول الوطنية لخليفة جورجيو دي نيكولاي تشاوشسكو. وكان يعتبر، مثل العديد من الموظفين السوفيات المعنيين خاصة بشؤون أوروبا الشرقية، قرار خروتشوف عام ١٩٥٨ بانسحاب الجيوش السوفياتية من رومانيا خطأً كبيرًا.

بالمقابل، لم تكن تشيكوسلوفاكيا تثير كلّ هذه المتاعب. وقد شرح متخصص في هذا البلد في المركز، أناتولي ألكسندروفيتش روساكوف، لغورديفسكي أنّ العديد من المحلّلين في المجلس الإداري الأوّل تنبّأوا عام ١٩٥٦ بأنّ براغ ستتبع، بعد بضع سنوات، مثل بودابست المضاد للثورة.

بعد سنوات من الهدوء، أصبحت تشيكوسلوفاكيا مزدهرة بالنسبة للدول الأخرى في الكتلة السوفياتية. واستسلم المركز لانطباع خاطئ بالأمن. واستُقبل نبأ استبدال السكرتير الأوّل للحزب التشيكوسلوفاكي، أنطونن نوفوتني، بألكسندر دوبتشك البالغ من العمر ٤٦ سنة، بشكل جيّد، في البدء، في المركز وفي الكرملين.

أمضى دوبتشك القسم الأكبر من طفولته في الاتحاد السوفياتي وخرج منه حاملاً شرف التخرّج من المدرسة العليا للحزب في موسكو عام ١٩٥٨. وكان يُطلق عليه في الـ K.G.B اسم التحبّب "ساشانا". وحين طُبّق برنامج الإصلاحات في تشيكوسلوفاكيا،

استنتجت المديرية الحادية عشرة (أوروبا الشرقية) في المجلس الإداريّ الأول أنّ "ساشانا" استُخدم بمهارة من قِبَل "عناصر بورجوازية" داخل الحزب التشيكوسلوفاكي. لكن حين أصبح واضحًا دور دوبتشيك الفعّال في ربيع براغ، اعتبر كلّ من الكرملين والمركز ذلك خيانة شخصية لهم. وقد روى شاهد على اللقاء بين بريجنيف ودوبتشيك في شهر آب ـ أغسطس بعد الاجتياح السوفياتي: "منذ البدء، وحاولت دائمًا مساعدتك في صراعك ضدّ نوفوتني"، قال بريجنيف... "لقد صدّقتك وحاولت مساعدتك"، أضاف بلهجة اللوم... "أصريّت على كون ساشانا رفيقًا جيدًا... وأنتَ خيّبت أملنا".

لفظ هذه الكلمات بصوت يرتعش انفعالاً وبد كأنه سينفجر بالبكاء".

على النقيض من ناجي عام ١٩٥٦، أعلن دوبتشك بوضوح أنه ليس في نيّة حكومته التخلّي عن حِلْف وارسو أو عن الاشتراكية. لكنّ موسكو أحسّت، ليس بدون مبرّر، أنّ "الاشتراكية ذات الوجه الإنساني" المقترحة في براغ ستُلحق، عاجلاً أم آجلاً، أذىً يتعذّر إصلاحه بالدور المُسيطر للحزب الشيوعي.

وكانت النتيجة الأولى المهمة لربيع براغ بالنسبة للمركز هي إلغاء القاعدة التي تمنع على الـ K.G.B التجسّس في الديمقراطيات الشعبية. وقبل مدير مصلحة الأمن التشيكوسلوفاكية، جوزف هوسكا، وهو من مؤيدي الخطّ القاسي، بإعطاء صُور عن الملفات الخاصة لكلّ كوادره، للجنرال كروتوف، رئيس مرشدي الـ K.G.B في براغ. وكان الوزير المُصلح في الداخلية، الجنرال باقل، أحد الحيوانات السوداء في الـ K.G.B، لكنّ ذلك لم يمنع معاونه، فيلبام سالفوفيك، من أن يتجنّد كعميل.

خلال فترة ربيع براغ، أقام هذا الأخير في فيلّلا هوسكا، مما ساعده على أن يلتقي بانتظام بموظفين في الـ K.G.B دون إثارة انتباه المخلصين لدوبتشيك في الوزارة. وأيّن بان بوكر، هو موظف آخر كبير في وزارة الداخلية مجنّد في الـ K.G.B،

مراقبة المنظمة لكلّ المخابرات الهاتفية في الوزارة. كما مُلئت بيوت المصلحين الرئيسيين بالميكروفونات. وقد سمحت هذه المعلومات، بعد اجتياح قوات حِلْف وارسو، بتوقيف بعض موظفي مصلحة الأمن التشيكوسلوفاكية ومخلصين آخرين لنظام دوبتشيك[1].

أرسل المركز أيضًا ثلاثين شخصًا غير قانونيين يعيشون في الغرب على أساس أنهم سوّاح غربيون إلى تشيكوسلوفاكيا. وكان يوجد بينهم شقيق غورديفسكي، فاسيلكو أنطونوفيتش غورديفسكي، وهو يحمل جواز سفر ألمانيّ ـ غربي مزوّر. فقد اعتقد المركز أنّ المعادين للثورة التشيكوسلافيين يبوحون بمشاريعهم التخريبية لسوّاح غربيين بسهولة أكثر منهم إلى جيرانهم في أوروبا الشرقية. وأعطى محلّلو المجلس الإداري كمية مهمّة من المعلومات بفضل تدخّل البريد الدبلوماسيّ التشيكوسلوفاكيّ.

وكما حصل مرارًا في الماضي، لم يكن تحليل المعلومات بمستوى هذا الحصاد الفريد. ومنعت غمامة الإيديولوجيات المركز من تفسير كل معارضة بغير تعابير المؤامرات والتواطؤات. فكان يرى وراء أيّ مؤامرة، حقيقية أو وهميّة، في أوروبا الشرقية، يد الغرب بشكل عام ومصالح استعلاماته بشكل خاصّ.

مرة أخرى، اعتُقد أنّ العناصر الصهيونية تؤمّن المصالح السرية الغربية، فتلقّى عملاء الـ K.G.B في وزارة الداخلية التشيكوسلوفاكية الأمر بوَضْع تقارير عن كلّ الموظفين اليهود.

1- August Frantisek et Rees David, *Red Star Over Prague*, Sherwood Press(London1984)- PP. 125-129.

كان الـ K.G.B يعلم طبعًا أنّ معظم البراهين لإقناع الرأي العـامَ بصحّـة المؤامـرة مجموعة من هنا وهناك، لكنه لم يشكّ لحظة واحدة بوجودها. ولـم يـأخذ المركـز ثانيـة بعين الاعتبار كل المعلومات التي تشهد ضد نظرية التواطؤ.

خلال ربيع براغ، وصل بعض عملائهم المهمّين من واشـنطن ومـن بينهـم الشـاب الديناميكي رئيس عصبة مكافحة التجسّس وحماية مراكز الـ K.G.B، أوليغ دانيلوفيتـش كالوغين، ومعه ما سمّاه "مستندات مطلقة الصحّة" تثبت أنـه لا الــ CIA ولا أيّ وكالـة أميركية تحاول إحداث التغيّرات السياسية في تشيكوسلوفاكيا. وشرح أنّ ربيع براغ قـد فاجأ واشنطن. وقادته نجاحاته في الولايات المتحدة إلى وظيفة أدّت به في النهايـة إلـى رتبـة جنرال. لكـن، عـام ١٩٦٨، أُهملـت تقـاريره. وحيـن عـاد إلـى موسكو، فوجـئ كالوغين بأوامر المركز "بعدم إطلاع أحد على بلاغاته وإتلافها". وعوضًا عن الاطّلاع عليها، "راح الـ K.G.B يهدّد باعتداء من قسم الدعم العمليّاتيّ والتقني (في الــ K.G.B) أو بانقلاب سياسيّ لإسقاط تشيكوسلوفاكيا"..

لم تمنع القدرات الفكرية الكبيرة أندروبوف نفسه من الاعتقاد بهذا الموضوع مثلـه مثل كلّ أسـلافه فـي رئاسـة الــ K.G.B، وفـي تشـرين الأول ـ أكتوبـر ١٩٦٨، وبعد شهرين من اجتياح تشيكوسلوفاكيا، شرح لعملاء أعضاء في الكومسـومول أنّ الغـرب، "حين يميل ميزان القوى لصالح الاشتراكية"، يحاول حتمًا عرقلة نجاحاتها: "يدعم العدوّ بشكل مباشر أو غير مباشر العناصر المضادّة للثورة، يقود حركة عرقلـة ايديولوجيـة، يساهم في خَلْق كلّ أنواع التنظيمات المعادية للاشـتراكية وللاتحـاد السـوفياتي ويصـبّ الزيت على نار الوطنية. هذه الحقائق أثبتتها أحداث تشيكوسـلوفاكيا. وقـد تمكّـن عمّـال هذا البلد، بالدعم العـالمي الأخـويّ لشـعوب المجموعـة الاشـتراكية، مـن خنـق محاولـة أعداء الثورة... لتحويل تشيكوسلوفاكيا عن طريق الاشتراكية".

وتتبّعت مصالح الاستعلامات الغربية عن كثب سياق الإصلاحات في تشيكوسلوفاكيا. وفسّر أندروبوف هذه الرقابة بأنّها دليل على ضلوعهم في ربيع براغ.

في ١٩ تموز ـ يوليو، نشرت البرافدا نبذة من مشروع "عرقلة إيديولوجية" مفترضة صادرة عن الـ CIA كتمهيد "لتحرير ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا". وتمّ التشديد على "تسرّب المصالح السريّة في البلاد، المعلومات العسكرية وخدمات مكافحة التجسّس". وحتى لو كان هذا المشروع اختراعًا صافيًا وبسيطًا للدائرة A (المسؤول عن "الاحتياطات الفعّالة") في المجلس الإداريّ الأول، فإنّ المركز تخوّف فعلاً من آثار ربيع براغ على مصلحة الأمن التشيكوسلوفاكية وعلى علاقاتها بالـ K.G.B. وفي شهر حزيران ـ يونيو، قام بافل، وزير الداخليّة، بحملة تطهير داخل مصلحة الأمن التشيكوسلوفاكية أدّت إلى استبدال هوسكا بأحد المخلصين لدوبتشيك. وبعد شهر، أعلن بافل جهارًا أن ستة موظفين للعلاقات في الـ K.G.B في خدمته. ولو بقي ربيع براغ، لَمَا استمروا طويلاً.

في الوقت نفسه، ظهرت سلسلة مقالات للمؤرّخ كاريل كابلان، مدير الأبحاث في المجلس الرسمي "بيلر"، تُحقّق في الدعاوى السياسية في الخمسينات.

تكشف المقالات أنّ مستشاري الـ K.G.B تصرّفوا، خلال الدعاوى، بمعزل عن السلطات التشيكوسلوفاكية. وأُعلِمَ "بيلر" موجهي الحزب أنّ في تقريره "أحداثًا" خطيرة لدرجة أنّ تسرّبها يمكن أن يهزّ بعنف سلطة الحزب وممثليه الرئيسيين: "أُرجئ نشر التقرير لكن حكومة دوبتشيك وافقت بالطبع على مبدأ تصفية البوليس السياسيّ المزكّى في المهمة.

أكّد الوزير الأوّل، أولدريش سرنيك، بعد ذلك على أنّ "القشة التي قسمت ظهر البعير" كانت قلق موسكو، المضخّم في التقارير المتشائمة للمستشارين السوفيات، من انخفاض دعم الحزب في المصالح السريّة والقوات المسلّحة.

لم يكن أندروبوف ضمن الحلقة الضيّقة للخمسة الكبار في مجلس السوفيات الأعلى (بريجنيف، كوسيغين، بودغورني، سوسلوف وشيليست) عُرفوا لدورهم الفاصل في الأزمة التشيكوسلوفاكية. مع ذلك نالت المعلومات المحذِّرة للـ K.G.B أهميتها. وظهر في البدء أنّ هذه الحلقة الضيّقة منقسمة ومترددة. فكوسيغين وسوسلوف أخذا حذرهما؛ وكان شيليست على الأرجح أوّل من دافع عن فكرة التدخّل المسلّح؛ أما بالنسبة لبريجنيف، فقد مال لتأييد الأكثرية.

أثّرت تحذيرات أندروبوف المتكرّرة حول التقدّم السريع لمؤامرة إمبريالية تهدف إلى تقويض مراقبة الحزب للمصالح السريّة التشيكوسلوفاكية، في اتخاذ القرار النهائي بالتدخّل عسكريًا بدل إستعمال طرق أقل عنفًا. وحتى مماته عام ١٩٨٩ ـ في العام نفسه إعتذر حِلْف وارسو عن الاجتياح ـ كان لا يزال غروميكو مقتنعًا أنّ "أعداء تشيكوسلوفاكيا الجديدة (أي الشيوعية) حصلوا على مساعدة خارجية، كما جرى في بودابيست عام ١٩٥٦". وتحتوي مذكراته على بعض التفاصيل الغريبة حول تحضيرات لانقلاب سياسيّ مفترض؛ هذه التفاصيل موجودة في التقارير التحذيرية لمصالح الاستعلامات عام ١٩٦٨: "في ساعات محدّدة، وغالبًا أثناء الليل، كانت تتبدّل أرقام المنازل وأحيانًا أرقام الشوارع. وهذا دليل على إعدادات أعداء تشيكوسلوفاكيا الجديدة المحددة في وقت معيّن وبشكل واعٍ.

هذه التقارير حول مؤامرات مدعومة من الغرب أثّرت بالتأكيد على قرار الإجتياح. لكنّ تقديرات الـ K.G.B الأكثر تفاؤلاً بالنسبة لرغبة الحزب التشيكوسلوفاكي

والطبقة العمّالية حقًا بإستبدال حكومة دوبشيك كانت أكثر أهمية. مرة أخرى، إصطنع الـ K.G.B معظم البراهين على وجود مؤامرات إمبريالية تبرّر الإجتياح. وتلقّى الثلاثون غير القانونيين الذين يعتبرون سواحًا غربيين الأمر بتعليق إعلانات وشعارات تدعو إلى قَلْب النظام الشيوعي وانسحاب جيوش حِلْف وارسو.

أخبر شقيق غورديفسكي شقيقه أنّ الـ K.G.B نظّم أيضًا إكتشافًا لمخابئ وهميّة للأسلحة أُعلِن عنها في ما بعد في البرافدا، هذه المخابئ تثبت، حسب الجريدة، أنّ الناقمين في السوديت يحضرون لثورة مسلّحة. وذهبت الجريدة اليومية للحزب الألماني الشرقي "أخبار ألمانيا"، إلى حدّ نَشْرِ صُوَر لفِرَق ودبابات أميركية في تشيكوسلوفاكيا. أُخذت الصور السلبية من فيلم حربيّ أميركيّ إنقلب إلى بوهيميا، ممّا أدّى إلى رفضه من قبل الصحافة الألمانية - الشرقية. وأعطى الجيش التشيكي، مقابل شعارات، دبابات تحمل الترقيم الأميركيّ وجنودًا يرتدون اللباس العسكري لعام ١٩٤٥، ويؤكد أناتولي روساكوف، وهو عريق ومتخصّص في شؤون تشيكوسلوفاكيا في المجلس الإداري العامّ الأوّل وكان موجودًا في براغ عام ١٩٦٨، يؤكد على أنّه ومستشاري الـ K.G.B تحفّظوا جدّيًا حول عمليات الإستفزاز التي أَمَرَ بها المركز. كانوا يُقدّرون أنّ خطر إكتشاف هذه الخدع كبير، كما لم يشعر شقيق غورديفسكي بالراحة عند قيامه بالإستفزازات المطلوبة من الـ K.G.B نحو السوفياتيين غير القانونيين.

إجتاح الجيش الأحمر تشيكوسلوفاكيا بدعم من وحدات أخرى مسلّحة من حِلْف وارسو في ليل ٢٠ - ٢١ آب - أغسطس عام ١٩٦٨، تمَّ اختيار هذا الوقت من أجل إستباق إجتماع مؤتمر الحزب المقرّر في أيلول - سبتمبر. وكان السوفيات مقتنعين بأنّ هذا الاجتماع سيؤدي إلى دَمَقْرَطة غير قابلة للإنعكاس للشيوعية التشيكوسلوفاكية. وقبل الاجتياح بفترة قصيرة، إكتشف المركز أنّ إبنة فازيل بيلاك تدرس في بريطانيا.

وكان المركز يعتمد على هذا الصقر بالذات، وهو عصفور نـادر فـي المجلس الأعلـى التشيكي، ليخلف دوبشيك. فأرسل إلى السفير المقيم في لندن أيوري نيقولاي يفيتيش فورنين، رسـالة طارئـة طالبًا إليه إيجادها وإقناعها بـالعودة إلـى بلادها. وحين بدأ الاجتياح، كانت الآنسة بيلاك قد رجعت إلى بيت الأسرة.

تحققت الأهداف العسكرية للاجتياح في أقل من ٢٤ ساعة. وفـي السـاعة ٢٣ مـن نهار الثلاثاء ٢٠ آب ـ أغسطس، سيطرت وحدات الجيش الثالث والعشـرين التطوعـي الجويّ السوفياتي على المطارات التشيكية الرئيسية وأرست فيها مئـات الطـائرات مـن طائرات أنطونوف Antonov الحاملة للجنـود والدبابـات. وفـي الوقـت نفسـه، اجتـاحت القوات السوفياتية وقوات حِلْف وارسو البلاد مـن الشمال والشرق والجنـوب وأغلقـت الحدود مع ألمانيـا الغربيـة. ومنـذ صبـاح الواحد والعشـرين مـن الشـهر، حُيِّـد الجيـش التشيكي الـذي لـم يقمْ بـأيّ مقاومـة؛ وسيطر السـوفيات علـى الطرقـات وكـلّ شـبكات الاتصـال. وأُوقف دوبتشك ومعظـم المصلحيـن فـي المجلـس الأعلـى التشـيكي بواسـطة مفرزة ضبـاط مـن مصلحـة الأمـن التشيكية ومـن الـ K.G.B بقيـادة المقـدّم بوهوميـل مولنار. ونُقلوا إلى الإتحاد السوفياتي واحتجزوا في ثكنات للكارباتيين. وعُيِّـن جـوزف هوسك الذي تعاون مع الـ K.G.B مديرًا لمصلحة الأمن التشيكية.

خلال الإجتياح، كان الـ K.G.B بالإجمال أقلّ فعاليّة من الجيش الأحمر. فقد تلقّـت وحداته المسلحة التي ترافق الجيش النظـاميّ الأمـر بـإجراء عـدد معيّـن مـن العمليّـات ـ على نمط سميرش تمامًا ـ لتحديد وتحييد المعارضة المضادّة للثورة. وبما أنّ تدريبهم كان غير كاف فقد تأثر عملهم بذلك. وشُرح للجيش الأحمر أنّ "الشعب التشيكي" طالب بوجودهم الأخويّ فلم يـروا التشيكوسـلوفاكيين يحيطـون بدبابـاتهم ويصرخـون بهـم أن يعودوا إلى بلادهم، وخلال عدة ايام، استمرّت إذاعات خفيّة بإدانة الإجتيـاح. وفـي ٢٢

آب ـ أغسطس، وقع إضراب عامّ لمدة ساعة رافقته مظاهرات عظيمة معظمها سلميّة في كلّ البلاد.

وكان الخطأ الأكبر للـ K.G.B ولسفير الاتحاد السوفياتي في براغ، ستيفان فاسيليفيتش تشير فوننكو، أنهما بالغا في تقدير الدعم الذي يمكن أن يلقاه هذا التدخّل في صفوف الحزب والطبقة العمّاليّة. حصل هذا الخطأ من جهة بسبب عدم قدرة البولشفيك التقليدية على إدراك حقيقة المعارضة العمّالية لنظامهم، ومن جهة أخرى بسبب نداءات الإغاثة من بيلاك والصقور الآخرين الذين أدركوا أن مستقبلهم السياسيّ مهدّد ما لم يتم التدخّل السوفياتيّ. وإذا كان المجلس الأعلى للسوفيات قد اختار التدخّل العسكري فلذلك لاعتقاده أنّ هذا التدخّل سوف يُبرّر بطلب طارئ من أكثرية أعضاء المجلس الأعلى التشيكي. وكان يظُنّ أنّ هذا "الحضور الأخويّ" لمحاربة الثورة المضادّة سيتبعه تشكيل حكومة جديدة ثورية عمالية وفلاحية تقوم بتطهير البلاد ممّن دعموا ربيع براغ. لكنّ الصقور لم يحصلوا على التأييد المتوقّع من المجلس الأعلى، ولم تتشكّل أية حكومة متعاونة.

إضطر مجلس السوفيات الأعلى إلى تغيير سياسته بعد أن واجه مشكلة غير منتظرة هي غياب كادار تشيكي. في ٢٢ آب ـ أغسطس وفي وقت متأخر من الليل، استنتج ألاّ حلّ إلاّ بالتعامل مع الإدارة الموجودة. وبعد مفاوضات في موسكو، سُمح لدوبشيك والمصلحين الآخرين بالعودة إلى براغ بعد تعهدهم بضَبْط الوضع حسب رغبة الكرملين.

في تشرين الأول ـ أكتوبر، استُدعي دوبشيك إلى موسكو لتوقيع معاهدة تسمح بالبقاء الدائم للقوات السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا. إذ كان عليها مراقبة "الطموحات الانتقامية المتصاعدة ـ الخيالية ـ لقوات ألمانيا الغربية المسلّحة". وانتهى ربيع براغ

برحيل دوبشيك واستبداله بغوستاف هوسَّاك، وهو وصوليّ داهية، في رئاسة الحزب في نيسان - إبريل ١٩٦٩، وبدأ شتاء طويل مفروض دام ٢٠ عامًا.

من أكثر الأمور التي أقلقت موسكو دعم أندريه ساخاروف ومفكرين سوفياتيين آخرين لربيع براغ. وجرت في الساحة الحمراء تظاهرة صغيرة، لا مثيل لها من قبل، ضدّ الاجتياح، فقمعها الـ K.G.B بسرعة. وسيتذكّر ألكسندر سولينتسين في ما بعد اليومين اللذين تليا الاجتياح كذكرى "ذات أهمية كبيرة بالنسبة له": "مصيري، اخترته من جديد في هذه الأيام. تمنّى قلبي شيئًا واحدًا - كتابة جملتين قصيرتين، تقليد هرزن: كم هو مخجل أن تكون سوفياتيًا".

وفي الأسابيع والشهور المقبلة، اختار غورديفسكي أيضًا "مصيره". فقد اقتنع بعد ذلك أن الدولة - الحزب السوفياتية هي في جوهرها مدمّرة للحريّات. وطوال سنوات، فكّر في أفضل وسيلة للمساهمة في المعركة من أجل الديمقراطية. خلال صيف ١٩٦٨، كان عدد المفكرين السوفيات الذين أخذوا موقفًا علنيًا من ربيع براغ قليلاً، لكنّ جهاز الحزب وجهاز الـ K.G.B قلقًا من درجة التعاطف التي أثارها الحدث. واحتاجت مجلة "الثقافة السوفياتية" لشهرين لتضع يدها على سبعة فنانين وطنيين يقبلون التوقيع على إدانة لأحد أشهر البيانات الجذريّة لربيع براغ، وهو عبارة عن ألفي كلمة للودفيك فاكوليك ظهرت في حزيران - يونيو سنة ١٩٦٨. وفي شهر تموز - يوليو، نشرت مديرية الإعلام في اللجنة المركزية توجيهًا يعلن الضرورة القصوى لطبْع "قناعة إيديولوجية في ذهن أهل الفكر السوفيات"...

كتب ألكسي أدجوبي أنّ أندروبوف لا يسمح لنفسه أبدًا أن يصل إلى حالة الهلع أو أن يلعب دور طائر الشؤوم. رغم ذلك... كان يعتقد أنّه من المستحيل البقاء هادئًا حين يتهامس الإيديولوجيون. وكان يتكلّم بتعابير جدّ قاسية عن العديد من الكتّاب،

الممثلين الهزليين والمنتجين". وغذّى الـ K.G.B الصحافة الغربية بالنكات التي سمحت تدريجيًا بتكوين صورة عن أندروبوف متحفظة جدًا عند الغربيين. وصنّفه كلّ من مجلة Time و Newsweek "كمتحرّر يجهل نفسه... يعبّر عن نفسه جيدًا بالإنكليزية... يروق له تجميع أسطوانات الجاز والاسترخاء مطالعًا الروايات الأميركية" ، "باحثًا" عن المناقشات الودّية مع المنشقّين".

في الواقع، إنّ ما يميّز أندوروف، ليس تعاطفه مع الانشقاق لكن الإخلال الكبير في طرقه للتخلّص منه. ففي أثر ربيع براغ، خلق مجلسًا خامسًا جديدًا لدراسته بكلّ وجوهه وسحقه. كل مديرية متخصصة مسؤولة عن مراقبة مجموعة خاصة. مفكّرين، طلاّب، وطنيين الأقليّات العرقية، أعضاء في ديانات مختلفة أو يهود. وعوضًا عن تجهيز دعاوي عامّة سريعة للمنشقين كما حدث بالنسبة لسينيافسكي أو دانيال، أُرسلوا إلى مستشفيات للأمراض العقلية والنفسية. هناك، شخّص الأطبّاء المراعون للمجلس الإداري الخامس ـ مثل الطبيب لونتس من معهد سربسكي للطبّ العقلي والنفسي القانوني في موسكو ـ "فُصام متقدّم" أو "هلوسات إصلاحيّة ذات أصل ذهانيّ هذيانيّ". وبعد الإعلان عن إصابتهم بخلل عقليّ يُحرمون من الحقوق الوطنية المتبقية لهم ويُجبرون على بلْع كلّ المخدّرات حسب نزوة الدكتور لونتس وزملائه. وإذا استغل الطبّ العقليّ والنفسي بهذا الشكل، فما ذلك لأسباب توافقية بسيطة، لكن عن قناعة: فالدولة ـ الحزب السوفياتية فرضت الاعتقاد بأنّ القيم الوحيدة الشرعيّة هي قيم الحزب وأنّ الذين يحيدون عن خطّها يعانون حتمًا من "نفسيات غير طبيعية" تحتاج إلى "إعادة تأهيل" ـ لاستعادة تعابير فيتالي فيدور تشوك، خليفة أندروبوف في رئاسة الـ K.G.B، بالنسبة لرجال معروفين في الغرب مثل ألكسندر سولجينتسين، فُضّل عدم التعرّض للخزي العالمي بإعلانهم مخبولين. هكذا أُجبر المنشقون الأكثر شهرة تدريجيًا على

الهجرة[1]. وقد أثّرت صدمة ربيع براغ في سياسة الكرملين والـ K.G.B تجاه أوروبا الشرقية خلال عشرين عامًا. وللمرة الأولى، أُعلنت رسميًا تحديدات السلطة في الديمقراطيات الشعبية بواسطة "مذهب بريجنيف" في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٨. ويشدّد هذا النصّ على حقّ كلّ شخص "باتّباع طريقه الخاصّة إلى الاشتراكية"، لكن يجب على السياسات المتبعة ألاّ "تسيء إلى الاشتراكية في بلادها أو إلى المصالح الرئيسية للبلدان الأخرى الاشتراكية أو إلى الحركة العمّالية التي تناضل، في العالم أجمع، من أجل الاشتراكية". ويتضمّن المذهب بشكل واضح للغاية أنه، إذا أُسيء بهذا الشكل إلى مصالح ديمقراطية شعبية، تصبح "مواجهة الدول الاشتراكية الأخرى بقيادة الاتحاد السوفياتي للقوى المعادية للاشتراكية بحزم"، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا، "واجبًا أمميًا". وفي الفترة التي تبعت فورًا الاجتياح، أظهرت مصلحة الأمن التشيكيّة رغبتها الكبيرة بإعادة الاعتبار لصيتها في نظر موسكو وذلك بإعلان حملة تطهير حازمة "للقوى المعادية للاشتراكية" في تشيكوسلوفاكيا. وسُئل كلّ عضو في الحزب عن وضعه خلال ربيع براغ: طُرد الثلث تقريبًا من الحزب (من أصل مليون ونصف) أو تركوه بمحض اختيارهم. وتعرّضت الجامعات، ووسائل الإعلام ومهن أخرى لتطهيرات مماثلة. أمّا المؤسسات التي اتُهمت كثيرًا، مثل اتحاد الكتّاب أو معهد الفلسفة في أكاديمية العلوم، فقد أُقفلت أو أُلحقت بمؤسسات أكثر "استقامة".

رغم ذلك، بقي إحساس بالانزعاج في المركز. ولاحظت المديرية الحادية عشرة (كتلة سوفياتية) في المجلس الإداري الأول، بعد دراسة مفصّلة للأحداث في تشيكوسلوفاكيا، أنّ تصريحات غوستاف هوزاك والرئيس لودفيك سفوبودا خلال هذه

---

[1] - Owen Richard, *Crisis in the Kremlin*, Victor Gollancz (London, 1986), p. 91.

الفترة لم تكن تتطابق مع تأكيداتهم اللاحقة بالاستقامة الإيديولوجية. واعتُبر لوبومير ستروغال، رئيس الوزراء منذ كانون الثاني - يناير ١٩٧٠، الأكثر قِدَمًا من مجموعة من الدوبشيكين الذين نجحوا في الاحتفاظ بمناصبهم. وكانت موسكو تفضّل استلام فازيل بيلاك أو ألويس إندره، وهو صقر آخر، مكان دوبشيك في منصب السكرتير الأول، لكنها تراجعت حين فهمت أنهما غير شعبيين إلى درجة أنّ تعيينهما يشكل خطرًا سياسيًا جدّيًا.

بعد خيانة دوبشيك (ساشا "تا") عام ١٩٦٨، هذه الخيانة التي تبعت خيانة تيتو، ناجي، ماوتسي تونغ وإنفر هودجا (الذي انحاز مذاك إلى ماو) وقادة شيوعيين آخرين، بقي إحساس دائم بالحذر تجاه أوروبا الشرقية في المركز كما في الكرملين.

منذ ١٩٧٠، تعوّد المركز على تقسيم القادة في هذه البلدان إلى خمسة أقسام: "الوطنيون" الذين لا يعون واجباتهم الأممية؛ "التعديليون" ذوو الميول المؤيدة للغرب؛ "اللاتوقعيّون" الذين يتأرجح وضعهم بين الإخلاص للإتحاد السوفياتي ومغازلة للغرب؛ "المؤيدون للسوفيات غير الفعّالين" و "المؤيدون للسوفيات الفعّالين" لكنهم لا يتمتعون بدعم كبير في الداخل. وفي المركز، كما في مراكز الـ K.G.B، شهد غورديفسكي العديد من ثورات الغضب، حتى في عهد بريجينيف. كانوا يقولون: "سيبقون دومًا معادين للسوفيات هؤلاء الحلفاء الذين يكلّفوننا غاليًا ولا نستطيع حتى أن نعتمد عليهم. كان من الأفضل لو تخلّصنا منهم". وحتى في عهد بريجينيف، لم تُعتبر هذه السياسة أبدًا واقعية من الذين كانوا يدّعون خاصة مساندتها. هذه الأوهام الضائعة في أوروبا الشرقية دفعت في النهاية الكرملين إلى التخلّي عن "مذهب بريجنيف" عام ١٩٨٩[١].

---

١ - أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٥٥٦ - ٥٦٦.

الإتّحاد السوفيَاتي وفنلَندا

أندريه غروميكو، الذي كان وزيرًا للخارجية السوفياتيّة منذ عام ١٩٥٧ حتى ١٩٨٥، عندما كتب مذكراته امتدح كيكونين بقوله: "كان وجهًا بارزًا، ليس فقط في الحياة الساسية الفنلندية، ولكن على الساحة العالمية أيضًا"... و"كان ألمع من أيّ شخصية تولت رئاسة دولة غربية... فإن كيكونين قد شارك شخصيًا في تحسين علاقات الصداقة السوفياتية ـ الفنلندية... وإن سياسته الخارجية هي التي منحت فنلندا إعجاب العالم وتقديره".

جدير بالإشارة أن الرئيس الفنلندي كان حريصًا، سواء في اجتماعاته الخاصة أم أمام الملأ، على أن يتصرف كصديق مطيع للاتحاد السوفياتي. وكان يرضى أحيانًا أن يضمن خطاباته "نظريات" جهزتها الإدارة العالمية للمجلس المركزي والتي كان الوزير يوصلها إليه.

وفي كل مرة كان يتبع فيها هذا المسلك، كانت هلسنكي تبرق إلى PDG معربة عن انتصارها: "لقد نفذنا إجراءًا نشيطًا وفعالاً على مستوى عالٍ"، وكان المركز في كل مناسبة يخبر المكتب السياسي (Politburo) بفخر، بكل المستجدات.

ومع ذلك، وبالرغم من كل هذا التفاخر حول "الإجراءات والتدابير النشيطة والفعالية"، فإن الـ KGB لم ينجح كثيرًا في فنلندا، غير أن شرطة الأمن الفنلندية التي كان ضباط الاستخبارات السوفياتية يسبقونها بمراحل، عينت سلسلة من العملاء في

KGB و GRU (الوكالة السوفياتية للاستخبارات الحربية)، ولم يكن كيكونين ليتدخل في هذا النوع من الأعمال.

تجدر الإشارة إلى أنه في غضون السبعينات، كان لمنظمة أمن الدولة السوفياتية (KGB) عدد كبير من العملاء، و "الاتصالات السرية" في فرعها الفنلندي فاق عدد العاملين في بقية الفروع في الإدارة الثالثة التابعة لـ PDG، (أول دائرة رئيسة للتجسس في KGB) في انجلترا، وإيرلندا، وأستراليا، وبقية البلدان السكندنافية.

بالإضافة إلى ذلك، استضافت هلسنكي "منظمة الجبهة الرئيسية" السوفياتية.

ويُذكر أن المجلس العالمي للسلام، الذي طرد من باريس وفيينا، "لنشاطاته التخريبية الهدامة"، استقر في فنلندا حيث انشأ مركزه الرئاسي (Q.G) في عام ١٩٦٨.

غني عن القول إن أهم أهداف السياسة السوفياتية في فنلندا كان بكل بساطة هدف مساندة كيكونين في الحكم.

لقد عملت موسكو على إقناع، بل إرغام المرشح الاشتراكي ـ الديمقراطي القوي "هونكا" الذي كان مرشحًا للرئاسة، على الانسحاب من انتخابات عام ١٩٦٢؛ وعمدت بعد ذلك إلى مساندة كيكونين الذي أعيد انتخابه دون صعوبة.

وكان هدف كيكونين المحافظة على استقلالية فنلندا، مهما كلفه الأمر، فالتجربة التي عاشتها بلاده خلال وبعد الحرب العالمية الثانية أقنعته بضرورة التوصل إلى هذه الاستقلالية. وأن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك الأمر كان يتطلب مد الجسور بين هلسنكي وموسكو.

ومن البديهي أنه ما عدا منطقة الاحتلال السوفياتي في النمسا ـ كانت فنلندا البلد الوحيد الذي قهره الاتحاد السوفياتي ولم ينضم إلى كتلته أو يتوحد معه.

ولم يشر "جوهو باوسيكيفي" الذي استمر في الرئاسة من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٦، إلى رغبة الغرب في حماية بلاده ضد الجشع السوفياتي.

لذلك فقد أجبره الاتحاد السوفياتي على دفع مبالغ طائلة كتعويضات حرب (خمس مرات أكثر مما دفعته إيطاليا)، وعلى رفض مشروع مارشال.

كما أنّ كيكونين يتحدر من بيئة ريفية، ذلك العالم الذي سمح له بعد التجربة الطويلة لحكم القيصر، إمكانية التفاهم مع الروس، غير أن التعاون بينهما كان ضمن حدود معينة؛ وكان ثمة مثل فنلندي يحذر من الروس: "الروسي هو روسي، حتى لو طُبِخَ بالزبدة!".

كان كيكونين، يسير على نفس منوال رجال السياسة الفنلنديين الآخرين، "إذ أقام علاقات خاصة مع الجار الكبير؛ وقد سمي ذلك الحذر المدروس Kotiryssa (التي تعني: البيت الروسي" نسبة إلى Katikissa القطة الألفية).

وفيما كان يطمئن الروس على تعامله معهم، وبينما كان يعامل حاكم KGB، كالقطة الألفية، حرص الرئيس على عدم التفريط باستقلال بلاده. وهذا الحرص جعله يراقب كل شخصية رسمية أو كل وزير كان يشك بأنه لا يتقيد بتعليماته ومبادئه، وحين يتأكد من ذلك كان يسعى للتخلص منهم في أول فرصة.

ونظرًا لطريقته الخاصة في التعامل، فلا PDG (أول دائرة تجسس في KGB، منظمة أمن الدولة التي أنشئت عام ١٩٥٤)، ولا أي شخص من المسؤولين فيها في هلسنكي، كانوا يتجرأون على القول إنه قبل كل شيء: مواطن فنلندي[١].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص٤٨٠ ـ ٤٨٢.

جهاز "السيكُورتيَات" الرومَاني

مارس جهاز الأمن الروماني السابق "السيكورتيات" العنـف والقسوة تجاه الشعب الرومـاني، فـأصبح مكروهًا بقدر مـا كـان مرهوبًـا بسيطرته الكاملـة علـى المجتمـع وانتشاره، حتّى أنّه كان من بيـن كـلّ أربعـة أشـخاص رومـانيّين مواطنًـا يعمـل مخبرًا لصالح "السيكورتيات"، حيث ساد الهلع والرعب الخوف الشـديد بيـن النـاس. فقد كان الجهاز يستخدم ٨٤٠٠ عميل دائم ويضاف إليهم ١٧٠٠ اختصاصي في التنصّت علـى الهواتـف و٣٠٠٠ جنـدي مـن قـوّات الأمـن و٥٠ ألـف متعــاون، ومئــات الآلاف مـن المخـبرين... وكـان الجهـاز هـو الحصـن الـذي قـدّم الحمايـة لـ"نيكـولاي تشاوشيسـكو الرئيس الديكتاتور الرومانيّ.

مـرّت رومانيـا بأزمـة اقتصاديّـة طاحنـة، لا سـيما وأنّهـا كـانت تفتقـر إلــى مـوارد الطاقـة، مـا جعـل الرومـانيّين يسـتغنون عـن وسـائل التدفئـة فـي بلدهـم البــارد شـتاء، وأخـذوا يعيشـون فـي غـرف شبه مظلمـة، وحُظّـر عليهم اسـتخدام المصــابيح الكهربائيّة، وكُلّف جهاز "السيكورتيات" بمراقبة تطبيق الإجراءات ومعاقبة كـلّ مـن لـم يتقيّد بتنفيذ تلك التعليمات، إذ كان يُعتبر المخالف مرتكبًا جريمة موجّهة ضـدّ الاقتصاد الوطنيّ. كما قـرّر الرئيـس تشاوشيسكو ضـرورة الإعـلام فـورًا عـن كـلّ حالـة حمل ليتابعها أطبّاء جهاز "السيكورتيات"، ذلك لتطبيق قانون منع الإجهاض. وهكذا فقد كان الجهاز منهمكًا في مراقبة عدّادات الكهربـاء ومعاقبـة مخـالفي التقنيـن، ومتابعـة النساء الحوامل...

عندما سقط نظام نيكولاي تشاوشيسكو عام ١٩٩٠، قُدّم الديكتاتور الرومانيّ لمحكمة عاجلة، حكمت عليه وعلى زوجته بالإعدام رميًا بالرصاص، وقد تمّ تنفيذ الحكم مباشرة، وسقط مع الديكتاتور جهاز أمنه المتسلّط الذي كان يبطش بعنف ووحشيّة بجماهير الشعب الرومانيّ ويرتكب العديد من الانتهاكات والاعتداءات على حريّة المواطنين. وتمّ حل جهاز السيكورتيات عام ١٩٩٠ وشُكّل "جهاز الاستخبارات الرومانيّ" كبديل له. وقد ضمّ الجهاز الجديد عددًا كبيرًا من عناصر جهاز السيكورتيات الذين قدّموا أنفسهم لخدمة جهاز الأمن الجديد، وهم يحملون تجاربهم السابقة وخبراتهم المستندة على أساليب تدريبهم بواسطة السيكورتيات الذي تمّ حله[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١١٦ ـ ١١٧.

جهاز "شتازي" الألماني الشّرقي

في عام ١٩٩٠ تم توحيد شطري ألمانيا وسقط جهاز أمن دولة ألمانيا الشرقية "شتازي" الذي كان يجمع ما بين البوليس السياسيّ وجهاز الاستخبارات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد حلّ الجهاز تسرّب العديد من المعلومات حول أنشطته في العمليّات القذرة التي شملت تصفية بعض المعارضين السياسيّين جسديًا، ويشاع أنّ شتازي قد نفّذ أكثر من ٢٠٠ عمليّة إعدام في السجون الخاصّة به من دون أيّ محاكمة، وتشير سجلاّت سجون شتازي إلى أنّ هؤلاء قد ماتوا بالسكتة القلبيّة.

ويقول باحثون إنّ جهاز شتازي كان أداة تجسّس في الخارج، وإرهاب في الداخل. وإنّ خطوط الهاتف كانت مراقبة خلال اليوم بأكمله، وكان يعمل فيَ قطاع التنصّت ٢,٠٠٠ شخص. وإنّ الجهاز كان يدير "مصرفًا" للمتاجرة بالأعضاء البشريّة من خلال بيعها من البلدان الغربيّة بأسعار باهظة.

ويقول باحثون إنّه بالرغم من إجراء تغييرات في جهاز شتازي، ومن تغيير اسمه إلى "مكتب الأمن القوميّ"، فإنّ هذا الأخير لم يدم طويلاً. فعندما بدأت عمليّات الزحف الشعبيّ لتوحيد شطري ألمانيا، شعر عناصر شتازي بأنّهم لن يتمكّنوا من الصمود أمام ذلك التيّار الشعبيّ العارم، لذلك تمّ توزيع المال والوثائق المزيّفة على ضبّاط الجهاز المهدّدين بالخطر في حال سقوط النظام، حتى يتمكّن كلّ عنصر من عناصر الجهاز من النجاة بنفسه وفق هويّة جديدة تحمل أسماء من المفترض ألا يُكشف أنّها مزوّرة. كما أنّ عمليّة توحيد ألمانيا قدر جرّدت الغالبيّة العظمى من رجال شتازي السابقين من

وظائفهم وجعلتهم في زمرة العاطلين عن العمل، وان كـان جهـاز KGB السـوفياتيّ قـد استوعب العديد منهم.

فبعد توحيد ألمانيا أصبحت "تهمة" الإنتمـاء السـابق لجهـاز شـتازي بمثابـة وصمـة تهدّد بالقضاء على المستقبل السياسـيّ فـي دولـة ألمانيـا الموحـدة لأيّ مـن يتثبـت عليـه الإنتماء السابق إلى ذلك الجهاز [1].

كَشفُ أعمَال شتَازي غير المشروعَة

إثر انهيار النظام الشيوعيّ في ألمانيـا الشـرقيّة وهـدم جـدار برليـن والشـروع فـي عمليّة إعادة الوحدة إلى شطرَي ألمانيـا، تحـت لـواء النظـام الحـرّ الـذي كـانت تنتهجـه ألمانيا الغربيّة، تقدّم أكثر من ٥٠ ألف مواطن ألمـانيّ بطلبـات الحصـول علـى ملفّـاتهم الشخصيّة من أرشيف المخابرات الألمانيّة الشرقيّة "شـتازي" حتّـى النصـف الأوّل مـن العام ١٩٩١.

منذ الساعات الأولى لخروج الملفّات السريّة إلى العلن في مطلع ذلك العام، والبلاد تعيش حالة من الخوف والجزع... مع كلّ ملفّ فضيحـة... لا بـل فضـائح... فالأقنعـة سقطت وانكشفت أدوار الأصدقاء والأقارب والمحبّين، الذين تستّروا طويلاً بـالإخلاص والوفاء والمحبّة وراحوا يدبّجون التقارير عن كلّ شـاردة وواردة فـي حيـاة الشـخص المعنيّ.

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١١٥ ـ ١١٦.

إلاّ أنّ الخطير، لا يكمن في انكشاف أسماء المخبرين السريّين والأدوار التي قاموا بها طوال أربعين عامًا من حياة جمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة، بل يكمن في الجرائم الفظيعة التي ارتُكبت من قبل جهاز المخابرات الألماني الشرقيّ "شتازي" بحقّ المعارضين السياسيّين وفي كيفيّة تغلغل عناصر هذا الجهاز في مهن الطبّ والمحاماة والتدريس... كلّ ذلك، بهدف تنفيذ خطّة إزالة العناصر المعادية للنظام من الوجود.

"جمهوريّة الرعب"، هو الإسم الذي يصحّ إطلاقه على جمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة بعد انكشاف حجم وخطورة الجرائم التي ارتكبها عناصر "شتازي" بحقّ المواطنين.

في خلال الأسبوعين الأوّلين من عام ١٩٩١، ومن خلال عدد بسيط من الملفّات التي خرجت إلى النور، انكشف دور المخابرات الألمانيّة الشرقيّة في جرائم القتل التي مورست وجرائم إدخال العناصر السياسيّة المتمرّدة على النظام إلى المصحّات العقليّة، ومحاولة إزالتها من الوجود بالأدوية السامّة...

بالإضافة إلى ذلك انكشف دور المخابرات الألمانيّة الشرقيّة في محاولات تغلغلها في الحركات السياسيّة المعارضة وتسلّمها لمراكز قياديّة في هذه الحركات والتنظيمات بهدف حرفها عن المسار السياسيّ المعارض، وتوظيف المعارضة الفنيّة، عبر خطوات تدريجيّة لاتّجاه خدمة النظام القائم ومؤسّساته...

"الهدف: شلّ القدرات العقليّة والجسديّة"... هذا التعبير يتكرّر في أكثر الملفّات التي حصل عليها أقطاب المعارضة الألمانيّة الشرقيّة، وهو تعبير يطلق بصفة الأمر على عناصر جهاز "شتازي" لتنفيذه بحقّ الضحيّة بكافّة الوسائل الممكنة وأسرعها لتحقيق الغاية المرجوّة. والذي يثير الرهبة والخوف في "جمهوريّة الرعب" الألمانيّة الشرقيّة، أنّ بعض هذه الجرائم قد تمّ تنفيذه بـ"قفازات بيضاء"، عن طريق الأطبّاء

الذين خانوا رسالتهم الإنسانيّة وباعوا أنفسهم لجهاز "شتازي" مقابل منحهم بعض الامتيازات البسيطة، كتبوّء مراكز إداريّة عالية، وحقّ السفر، ومنزل لقضاء العطل... هؤلاء الأطبّاء أقدموا على تقديم الموت عوضًا عن العلاج لمرضاهم، فكانوا يقدّمون العقاقير السامّة عوضًا عن الأدوية، أو يدبّجون التقارير الطبيّة بهدف وضع المرء في مصحّات عقليّة نائية تمهيدًا لعزله عن معارفه والعمل على شلّ قدراته الجسديّة والعقليّة لمنعه من القيام بأيّ نشاط معاد للنظام...

كذلك كشفت الملفّات السريّة الصادرة عن جهاز "شتازي" أنّ معظم المحامين ووكلاء الدفاع في "جمهوريّة الرعب" هم عناصر في جهاز "شتازي"، عملوا على توريط موكّليهم المتهمين في جرائم كاذبة زادت في مدّة عقوبتهم وعزلهم عن محيطهم الشعبيّ، تمهيدًا لشلّ قدراتهم ومنعهم من النشاط السياسيّ.

ملايين المواطنين الألمان عاشوا في تلك الأيّام حوادث الرعب والموت التي تضمّنتها الملفّات السريّة. وسائل الإعلام حملت يوميًّا جريمة أفظع من سابقتها، وعليه كان يصعب تقدير العواقب والأخطار التي تسبّبت بها "شتازي" من أضرار للمواطنين الألمان "الشرقيّين" على مدى أربعين عامًا من الاستبداد المنظّم.

وممّا كشفته ملفّات "شتازي"، أنّ الكاهن "أولريش كسباريك"، من مدينة "يانا" في مقاطعة "ساكسونيا"، كان يدعو باستمرار إلى ضرورة منح مواطني ألمانيا الشرقيّة المزيد من الحريّات، وخاصّة حريّة السفر وحريّة التعبير...

وعندما حصل الكاهن كسباريك على ملفّه الشخصيّ عام ١٩٩١، من أرشيف المخابرات، أصيب بالهلع لمّا علم بالمصير الذي كان ينتظره، لولا حصول التغييرات السياسيّة وسقوط "جمهوريّة الرعب" من الوجود. ففي خريف عام ١٩٨٨، أصيب الكاهن كسباريك بوعكة صحيّة نتيجة الإرهاق والتضييق الذي مورس عليه من قبل

رجال "شتازي"... في المستوصف الصحّي حيث كان يقيم، أبدى كسباريك رأيه السياسيّ في الأوضاع القائمة في جمهوريّة ألمانيا الشرقيّة، أمام بعض المرضى، ومنهم امرأة مريضة سارعت إلى تدبيج تقرير رفعته إلى جهاز المخابرات تضمّن الانتقادات القاسيّة التي وجّهها الكاهن للنظام القائم.

ماذا حلّ بالكاهن كسباريك؟

تقرير طبّيّ سريع أفاد أنّ الكاهن بحاجة إلى العناية الفائقة ويتوجّب نقله إلى مصحّ للأمراض العصبيّة يقع على الحدود الألمانيّة... ملفّ المخابرات جاء فيه: إنّ قيادة الشعبة عشرين في وزارة المخابرات الألمانيّة الشرقيّة، أمرت بشلّ قدرات الكاهن العقليّة والجسديّة، وقتله في مكان بعيد عن أقاربه ومعارفه... وحدها التطوّرات السريعة في ألمانيا الشرقيّة أنقذت الكاهن كسباريك من الموت...

قبل ذلك، حصل وزير داخليّة مقاطعة ساكسونيا "هانيز إيكرت"، وهو قسّ إنجيليّ، على ملفّه الشخصيّ من أرشيف المخابرات الألمانيّة الشرقيّة، فأصيب بصدمة نفسيّة قويّة عندما اطّلع على الطريقة التي استخدمها "شتازي" ضدّه لـ"شلّ قدراته العقليّة والجسديّة".

روى إيكرت لوسائل الإعلام تفاصيل مخطّط الموت الذي تعرّض إلى بعض حلقاته.

منذ عام ١٩٧٤، وُضع القسّ هاينز إيكرت تحت مراقبة رجال المخابرات المشدّدة. أكثر من ٦٠ عنصرًا من "شتازي" كانوا يتابعون تحرّكاته وتحرّكات أطفاله في المدارس... البريد والهاتف تحت المراقبة الدائمة... وفي عام ١٩٨٢، وبعدما زاد إيكرت من نشاطه السياسيّ المعادي للنظام، قرّر رئيس دائرة المخابرات في مدينة

"درسدن" الميجور "هورست بوم"، شلّ قدرات إيكرت العقليّة والجسديّة... فأصدر أوامره إلى فرقة إعدام خاصّة لتنفيذ المخطّط...

عام ١٩٨٣، وبينما كان هاينز إيكرت يقضي وعائلته إجازة الصيف على شاطئ بحر الشمال، أصيب بعارض صحّيّ فجائيّ: إسهال قويّ منعه من البقاء مع عائلته في المخيّم واضطرّه إلى الانتقال إلى أقرب مستشفى...

بعد العناية الفوريّة والسريعة، أفيد إيكرت أنّه مصاب بمرض الزحار، وتمّ نقله إلى مصحّ بعيد عن عائلته ومعارفه...

الآن، علم إيكرت من خلال ملفّه الشخصيّ أنّه كان عرضة لتناول جرثومة الزحار التي دسّها رجال المخابرات في فنجان القهوة أثناء الاحتفال بذكرى عيد ميلاد أحد الأصدقاء على الشاطئ أثناء الإجازة.

في المصحّ، حيث نُقل إيكرت، ازدادت حالته الصحيّة تدهورًا. الطبيب المشرف على علاجه الدكتور "رينهارد وولف"، كان عنصرًا نشيطًا في جهاز المخابرات، وهو راح يقدّم لمريضه أدوية مليئة بالجراثيم للخلاص منه...

وحوى الملفّ الشخصيّ لإيكرت، جميع التقارير الطبيّة التي رفعها الدكتور وولف إلى جهاز المخابرات التي تبيّن أنواع الجراثيم التي حُقن بها...

عام ١٩٨٤، وبعد أن تدهورت حال القسّ هاينز إيكرت الصحيّة كثيرًا، تمّ ربط يديه إلى الكرسيّ أو إلى السرير طوال النهار لمنعه من الفرار، أو الانتحار، وذلك بحجّة إصابته باختلال عقليّ...

جميع الحوادث التي دارت بين الطبيب وولف والمريض إيكرت كانت موجودة في ملفّ إيكرت الشخصيّ، وهي تبيّن الملاحظات التي كان يرفعها الطبيب المعالج إلى

أسياده في دارة المخابرات. ويذكر إيكرت أنّه أُجبر على تناول نصف كوب من العقاقير يوميًا لكنّه كان يخالف تعليمات الطبيب ويرمي العقاقير في المرحاض...

بفضل التطوّرات السياسيّة التي حدثت على أراضي "جمهوريّة الرعب"، استعاد هاينز إيكرت عافيته، وتبوّأ مركز وزير داخليّة مقاطعة ساكسونيا...

عندما اطّلع إيكرت على ملفّه الشخصيّ، قام بزيارة إلى المصحّ الذي أُجبر على البقاء فيه... وقابل الطبيب الذي أشرف على علاجه... رينهارد وولف... وقد بكى هذا الأخير واعتذر عن فعلته، لكنّ العقاب لم يكن بحجم الجريمة، فلقد مُنع الطبيب وولف من مزاولة مهنة الطبّ وتمّ إغلاق المستوصف إلى الأبد.

هذه هي حادثة وزير داخليّة مقاطعة ساكسونيا هاينز إيكرت، وهي، إن انتهت فصولاً، إلاّ أنّها فتحت باب الذاكرة على الكثير من الأحداث التي أصابت معارضين سياسيّين، وكانت وفاتهم الغريبة مدعاة للتساؤل...

عضو المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة في الحزب الاشتراكي الألماني الموحّد، "باول كادن"، الذي حكم "جمهوريّة الرعب"، أقدم عام ١٩٨٨ على انتقاد عمليّة الانتخاب والتزوير الذي حصل في البلاد، فكانت النتيجة إدخاله إلى مصحّ عقليّ وحجزه لمدّة أسبوعين، خرج بعدها فاقدًا صوابه...

الأمر نفسه حدث لأحد أقطاب المعارضة السياسيّة في برلين الشرقيّة، ويُدعى "ديتليف يوخوم". فقد تمّ حجز حريّته لمدّة ١٣ عامًا، وخرج مع نهاية "جمهوريّة الرعب"، في العام ١٩٨٩... مصابًا بالجنون.

مجلّة "دير شبيغل"، ذكرت في عددها ١٩٩٢/٣ المزيد من الأحداث المرعبة التي تحويها ملفّات مخابرات ألمانيا الشرقيّة، وخاصّة ما أصاب العائلة "بوبيه"، والمخطّط

الجهنّميّ الذي نفّذ بحقّها وهدف إلى إبعاد الزوجين عن بعضهما البعض من خلال النصائح التي كان يوجّهها أحد قضاة ألمانيا الشرقيّة للزوجة "أولريكه بوبيه"، وهي من أقطاب المعارضة السياسيّة للنظام القائم. لقد تمّ تدمير هذه العائلة بكافّة الوسائل، ولم يتورّع جهاز المخابرات عن التغرير بالأطفال لإبعادهم عن الوالدين.

وفي هذا السياق أيضًا، كشفت الملفّات الشخصيّة التي خرجت من أرشيف المخابرات الألمانيّة الشرقيّة، مفاجآت كثيرة، ليس أقلّها، إكتشاف نائب "حزب الخضر - الرابطة ٩" في البرلمان الألماني السيّدة "فيرا فولنبرغر"، وهي من العناصر القياديّة في حركة التغيير الألمانيّة الشرقيّة، أنّ زوجها "كنود فولنبرغر" كان عميلاً للاستخبارات الألمانيّة الشرقيّة، واسمه الحركي "دونالد"، وهو كان يدبّج التقارير عن نشاطاتها اليوميّة ولقاءاتها مع بقيّة الأقطاب في حرمة التغيير التي قادت الثورة المسالمة في ألمانيا الشرقيّة.

كنود فولنبرغر، أو "دونالد"، اعترف أمام مشاهدي التلفزة الألمانيّة بجميع النشاطات التي قام بها لصالح جهاز "شتازي"، وهو لم يتورّع عن كتابة التقارير بحق ابنه فيليب الذي كان في بداية العشرينات من عمره... أمّا النائب "فيرا فولنبرغر، فاعتذرت من أعضاء البرلمان عمّا فعله زوجها، وقرّرت الطلاق فورًا من الزوج العميل.

إلى ذلك، جاءت ملفّات مخابرات ألمانيا الشرقيّة لتؤكّد على هويّة بقيّة العملاء الذين تسلّلوا إلى قيادة حركة التغيير في ألمانيا الشرقيّة بهدف توظيفها لصالح النظام القائم ومن هؤلاء: "أبراهام بومه" مؤسّس الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا الشرقيّة وأبرز القياديّين في حركة التغيير... وقد كشفت الملفّات عن إسمه الحركيّ "ماكسيميليان" وعن دوره في رفع التقارير اليوميّة عن نشاط أعضاء الحزب الجديد...

وقد كان مقدّرًا لهذا الرجل أن يتبوّأ أعلى المراكز لو لم تنكشف هويّته الحقيقيّة. وسرعان ما طرد بومه من الحزب واعتزل العمل السياسيّ إذ أقام في مكان مجهول.

المحامي "دوولنغنغ شنور"، مؤسّس "حركة اليقظة الديمقراطيّة"، نال شعبيّة واسعة في أوساط حركة التغيير ثمّ تبيّن أنّه كان عميلاً لجهاز "شتازي". انكشف دوره... ما أدّى إلى إصابته بانهيار عصبيّ وتواريه عن الأنظار.

المحامي "لوتار دي ميزيار"، رئيس آخر حكومة ألمانيّة شرقيّة، رئيس الحزب الديمقراطي المسيحيّ في ألمانيا الشرقيّة، ونائب المستشار هلموت كول، والحائز على أعلى نسبة من أصوات الناخبين في أوّل انتخابات حرّة في ألمانيا الشرقيّة، انفضح دوره وتبيّن أنّه عميل لجهاز "شتازي"، ويحمل الإسم الحركيّ "سيرني". وقد بيّنت الملفّات التي كشفت التقارير التي رفعها لوتار دي ميزيار إلى أسياده في جهاز المخابرات "شتازي". وقد أقيل دي ميزيار من جميع مسؤوليّاته في الحزب الديمقراطي المسيحي.

رئيس وزراء مقاطعة براندنبورغ، القسّ "مانفريد شتولبه"، كان انكشاف دوره وعلاقته بالمخابرات صدمة كبيرة لجميع المواطنين الألمان الذين كانوا يعتبرونه ضحيّة، فاكتشفوا انتسابه للمخابرات.

المحامي "غريغوري غيزي"، رئيس حزب الاشتراكيّة الديمقراطيّة، وهو الحزب الذي كان حاكمًا في السابق في ألمانيا الشرقيّة، كشفت الملفّات عن إمكانيّة ضلوعه في جهاز "شتازي"... ورغم نفيه أيّ علاقة له في جهاز المخابرات، تؤكّد "باربل بولاي"، وهي من العناصر الناشطة في حركة التغيير، أنّ المحامي غيزي هو عضو في جهاز "شتازي"، ويحمل الإسم الحركيّ "توتار". وتستند بولاي في اتّهامها إلى مضمون ملفّها الشخصيّ وهو يحوي مقابلات شخصيّة أجرتها مع غيزي وتمّ تدوينها في تقارير

موقّعة باسم "توتار". إلى ذلك، جاءت ملفّات أخرى استحصل عليها أقطاب المعارضة الألمانيّة الشرقيّة، وهي تربط إسم المحامي غريغور بالإسم الحركي "توتار"...

بالإضافة إلى هذه الأسماء الشهيرة، كشفت الملفّات أسماء العديد من الذين لعبوا دورًا قياديًّا في حركة التغيير، تغلغلوا في أوساط الأحزاب وأوساط الكنيسة، في محاولة أخيرة لتوظيف نقمة الضحايا لصالح "جمهوريّة الرعب".

إنتهى جهاز المخابرات الألمانيّة الشرقيّة "شتازي"، وتمّ فضح أفراده البالغ عددهم مائة ألف، لكنّ ملفّات هذا الجهاز المرعب، والتي يبلغ عددها بطول ستّة كيلومترات في حال رصفها إلى جانب بعضها البعض، قد حملت سجلاً من الإدانات لهذا الجهاز لن تمحوه الأيّام من صفحات التاريخ[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٥٣٩ ـ ٥٤٧.

ماركوس وولف: الجاسوس المعلّم

في أحد أيام الربيع الدافئة من سنة ١٩٧٩، عبر عميل جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA الذي يدعى "ويرنر ستيلر" نقطة تفتيش تشارلي في برلين الشرقية وأعلن ارتداده.

في ذلك المنعطف من عمليات التجسس في الحرب الباردة، لم تكن محاولات الارتداد أمرًا نادرًا، ولكنّ هذه المحاولة التي نحن بصددها على وجه الخصوص كانت مختلفة جدًا، ذلك أن ستيلر جرى الترحيب به كأنه الرجل القادم بالكأس المقدسة.

كان ذلك الاهتمام الشديد في أمر ستيلر من جانب أجهزة مكافحة التجسس في كل من ألمانيا الغربية وأميركا وبريطانيا وفرنسا يرتبط جزئيًا بحقيقة أنه كان يعرف هوية الجواسيس العاملين في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA وجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB في ألمانيا الغربية... فقد كشف ستيلر أسماء ١٧ جاسوسًا منهم، بينما هرب خمسة من الجواسيس الآخرين إلى الناحية الشرقية في اللحظة التي أصبحوا فيها عارفين بارتداده...

وجاءت بؤرة الاهتمام الحقيقية في أمر ستيلر بسبب حقيقة أن الغرب تمكن لأول مرة من النفاذ إلى ذلك الرجل الذي أطلقوا عليه لقب "كارلا"، وهو الجاسوس المعلم الألماني الشرقي الغامض الذي خدعهم لعدة سنوات.

لم يكن "كارلا" الاسم الرمزي للجاسوس المعلم، وإنما كان يستخدم في روايات "جون لوكار" لتمثيل جاسوس سوبر خيالي تعبيرًا عن شخصية حقيقية، وهي شخصية

"ماركوس وولف"، العامل لحساب جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA. والآن أصبح باستطاعة ستيللر، الصديق الشخصي الحميم والمتمتع بحماية وولف، إلقاء بعض الضوء على الرجل الذي اعتبر في مرتبة الجاسوس المعلم المثير للإعجاب في تاريخ التجسس في الحرب الباردة.

ومثله كمثل خطوط محيطة غير واضحة لصورة فوتوغرافية تصبح أكثر وضوحًا شيئًا فشيئًا في صينية تحميض الصور الفوتوغرافية، فإن الأسرار التي أفشاها ستيللر كست باللحم ماركوس وولف، من حيث كونه إنسانًا وأيضًا من حيث كونه جاسوسًا معلمًا.

وفي ما يتعلق بخلفيته، فإن أفعال وولف السابقة كشفت عن نمط مألوف معين يتصل بالشيوعيين الألمان...

كان وولف المولود سنة ١٩٢٣، ابن الكاتب المسرحي الشيوعي "فريديريك وولف"، الذي أدرك، كيهودي وشيوعي، عدم إمكانية وجود أي مستقبل في ظل نظام هتلر. وبعد شهرين من تولي هتلر السلطة، هرب وولف وعائلته إلى الاتحاد السوفياتي.

من الناحية المبدئية، فإن ابن وولف كانت لديه طموحات في أن يصبح دبلوماسيًا. ودرس في مدارس الكومنتيرن في موسكو، ثم حصل على درجات جامعية في الدبلوماسية. وفي العام ١٩٤٥، أصبح القنصل الأول في البعثة الألمانية الشرقية الجديدة في موسكو.

على العكس من الجهاز الحكومي المحايد الذي هيمن على الحكومة الألمانية الشرقية الأولى، فإن وولف كان شخصية مستقلة، وشابًا نشطًا ومتميزًا بقدرة مذهلة

على فهم التفاصيل، ورجلاً ذكيًّا جدًّا. وهذه الصفات لفتت انتباه عدد من المسؤولين السوفيات الأصغر سنًا الذين كانوا يترنحون تحت قبضة ستالين القاتلة، وفي وولف وجدوا روح ابن البلد الذي يمثل مستقبل الشيوعية. وعلى رأس هؤلاء كان "ألكسندر بانيوشكين"، وهو شخصية رفيعة المقام في المؤسسة الدبلوماسية والاستخباراتية السوفياتية، و"يوري أندروبوف"، الدبلوماسي الذي وضع بصماته على عمليات جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. (بعد حوالي ٣٠ عامًا، أصبح أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB). وقرر هذان الرجلان أن مواهب وولف الرائعة تتلائم مع العمل الاستخباراتي في ألمانيا الشرقية التي نشأت حديثًا. وفي ألمانيا على وجه الخصوص، كما جادل بانيوشكين، يمكن أن تقع المعارك العظيمة بين الاستخبارات الشرقية والغربية. وكما كان يعرف، فإن هيكل الاستخبارات الألماني الشرقي الأول كان خاضعًا لهيمنة "المحاربين القدماء" من أيام هتلر، وهم الرجال الذين قضوا عقدين من الزمن في أعمال سرية ضد النازية. وكان ذلك عملاً جديرًا بالثناء، ولكنه لم يكن استعدادًا جيدًا لعالم التجسس المختلف جدًا اللاحق على الحرب.

وإلى حد ما، فإن الحسابات السوفياتية أخذت في اعتبارها شخصية مثيرة للانتباه في الجانب الآخر، ذلك أن "رينهارد غيهلن"، رئيس وحدة الاستخبارات العسكرية الألمانية في الجبهة الشرقية، اكتسب سمعة في كونه صاحب التقييمات المخلصة والدقيقة للقوة العسكرية السوفياتية، ومالك القدرة على إدارة هيكل ضخم. وبعد طرده من الخدمة سنة ١٩٤٥ من جانب هتلر، الذي طالب أيضًا بوضعه في سجن المجانين، لجأ غيهلن إلى الأميركيين. وفي وقت لاحق، قام الأميركيون بإرساله إلى ألمانيا الغربية بأموال سخية من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA من أجل إدارة

ما أطلق عليه "الأورغ"، وهو جهاز استخبارات مرن استهدف التغلغل إلى ألمانيا الشرقية وبقية الكتلة الشرقية.

في مواجهة هذا النوع من التحديات، لجأ جهاز الاستخبارات KGB إلى وولف، وعهد إليه القيام بمهمة تكوين هيكل استخبارات في ألمانيا الشرقية. وكان العنصر الرئيسي في تركيبة هذا الهيكل شعبة أطلق عليها الدائرة الرئيسية الرابعة، التي أدارت عمليات الاستخبارات الخارجية، مع التركيز على ألمانيا الغربية. وحينما جرت تسمية وولف رئيسًا لها في العام ١٩٥٤ وهو في الحادية والثلاثين، كان ذلك بمثابة دلالة واضحة على الاحترام الذي كان يحظى به في نظر جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB.

رد وولف على هذه الثقة على نحو عاجل تقريبًا، وذلك من خلال تنظيم عملية تغلغل واسعة النطاق ضد ألمانيا الغربية، وهي عملية أدت في غاية الأمر إلى إضعاف الهيكل الحكومي في ذلك البلد من خلال تلك الحلقات المتشابكة من الجواسيس النافعين الذين جعلوا جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA، وكذلك جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، عارفَين بكل شيء يستحق المعرفة.

بعد عامين، اعترافًا ببراعته، أصبح وولف رئيس جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA. وفي ظل ما عرف عنه جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB من أنه رجل مترفّع عن الهوى، اتضح أن لديه مجموعة من أفكار يمكن تدريسها لأساتذته. وكان من بين أفكاره المثيرة للانتباه مفهوم "التغلغل الخفي"، وهو عبارة عن أسلوب في العمل يتضمن الحصول على جوازات سفر وأوراق أخرى تخص الألمان الغربيين الذين انتقلوا إلى بلدان أخرى، ويقوم وولف بعدئذٍ بتجنيد جواسيس نافعين من الألمان الشرقيين الذين تنطبق عليهم التفاصيل الشخصية في هذه الأوراق إلى أقرب حد

ممكن، وبعد ذلك يمكن لهؤلاء الجواسيس التغلغل إلى ألمانيا الغربية بخلفيات "نظيفة" بحيث يصعب على رجال مكافحة التجسس اكتشافهم.

وهناك فكرة أخرى وهي "الهجوم على السكرتيرات"، وتتضمن تجنيد الشباب الوسيمين من الألمان الشرقيين للقيام بمهمة التغلغل إلى ألمانيا الغربية تحت غطاء كونهم لاجئين، وعقد علاقات صداقة مع السكرتيرات الحكوميات، ولكن ليس أية سكرتيرة بالطبع، ذلك أن الفكرة تعتمد على قيام الشباب بالتودد إلى السكرتيرات العوانس ومتوسطات الجمال اللواتي يشكلن الجزء الأعظم من قوة السكرتيرات الحكوميات، ويقوم رجال وولف من الشباب بالتردد على الحانات والمنتجعات وأماكن التسلية الأخرى من أجل العثور على السكرتيرات غير المتزوجات وفي منتصف العمر اللواتي يمكن شد البساط من تحت أرجلهن عن طريق اهتمام الشباب العاشقين بهن، وحين استكمال عملية الإغواء، يتمكن هؤلاء الشباب من حمل السكرتيرات على إحضار وثائق حكومية إلى البيت لتصويرها وإرسالها إلى الناحية الشرقية بشريط ميكروفيلم.

وفي الوقت نفسه، فإن وولف كان مشغولاً في الصراع ضد جهاز رينهارد غيهلن "الأورغ" الذي أصبح وكالة الاستخبارات الألمانية الغربية BND في العام ١٩٥٥. ومن خلال حرب خفية في وقت لاحق جرى تخليدها في رواية جون لوكار "الجاسوس الذي جاء البلاد الباردة"، خاض وولف وغيهلن معركة الجواسيس العاملين في الظلام، والتغلغل، والتغلغل المضاد، والعميل المزدوج، والعميل الثلاثي. وكانت المعركة متكافئة إلى أن شرع وولف في العمل من نقطة الضعف الرئيسية عند غيهلن، وهي نزعته إلى استخدام عملاء وكالة الاستخبارات النازية وجهاز الاستخبارات الألماني والغستابو السابقين دون محاولة التدقيق التفصيلي

في خلفياتهم على افتراض أن مثل هؤلاء الرجال لا يحملون أفكارًا متعاطفة مع "الشيوعية".

هذا الافتراض برهن على كونه افتراضًا خاطئًا في ما يخص "هانز فيلف"، المسؤول السابق في وكالة الاستخبارات النازية الذي عمل خلال الحرب في عمليات مكافحة التجسس ضد جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وكان فيلف نازيًا متطرفًا، ولكنه كان أيضًا معاديًا على نحو فعلي للأميركيين والبريطانيين بسبب الدمار المخيف الذي أصاب مكان ولادته المحبوب، مدينة درسدن، خلال غارات القصف الجوي التي قام بها الحلفاء سنة ١٩٤٥. وإدراكًا من جانبه لهذه الشيزوفرينيا المثيرة، عكف وولف وجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB على محاولة إقناع فيلف، وجرى تجنيده كجاسوس نافع.

كانت الخطوة التالية تتمثل في جعل فيلف يتغلغل في جهاز الاستخبارات الألماني الغربي BND، وهذا التغلغل أمكن تحقيقه من خلال تزويد فيلف بقدر كبير من معلومات استخباراتية متدنية الدرجة، ولكنها مع ذلك مثيرة في مظهرها، حول جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB وجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA. وفي غضون ذلك، قام غيهلن بتجنيد هذا الرجل السابق في وكالة الاستخبارات النازية SD، وأصبح فيلف متمتعًا بحرية الحركة. وفي عملية جرى إعدادها على نحو رائع، تلقى فيلف سيلاً متدفقًا من المعلومات الاستخباراتية من الشرق، الأمر الذي عمل على تعزيز مكانته كرجل بارع في مكافحة التجسس. وفي بعض الحالات، كان جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB وجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA يقومان بالتضحية على نحو متعمد ببعض عملائها الأقل أهمية في ألمانيا الغربية من أجل تعزيز مكانة فيلف على نحو أفضل. وبلغت عملية فيلف ذروتها سنة ١٩٥٨، حينما

جرت تسميته رئيس قسم مكافحة التجسس السوفياتي في جهاز الاستخبارات الألماني الغربي BND، ومسؤول الارتباط بين هذا الجهاز ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA، ووكالات الاستخبارات الغربية الأخرى.

كان اكتشاف أمر فيلف في وقت لاحق كجاسوس نافع يعمل لحساب كل من جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB وجهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA قد أدى إلى تدمير غيهلن، الذي اضطر إلى الاستقالة بسبب هذه الفضيحة والنتائج اللاحقة عليها. وبعد ذلك، انتقل وولف إلى عمليته التالية، التي أصبحت بمثابة الإنجاز الأعظم في مهنته (فيلف جرى اكتشاف أمره من جانب "ميخائيل جولينفسكي"، العميل في جهاز الاستخبارات البولندي UP والجاسوس النافع في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGF في ١٩٦١. وبعد إلقاء القبض عليه بتهمة التجسس، حكم عليه بالسجن لمد ١٤ عامًا. وفي ١٩٦٩، جرى إطلاق سراحه في عملية تبادل الجواسيس، وذهب إلى ألمانيا الشرقية، واختفى).

كانت الفكرة، بالدرجة الأولى، تتصل بكيفية التغلغل إلى مكتب المستشار الألماني الغربي "ويلي برانت" عن طريق إغواء سكرتيرة أو جاسوس نافع آخر متدني المرتبة، وإنما عن طريق زرع جاسوس عامل في الظلام رفيع المرتبة بحيث يمكنه الاتصال على نحو وثيق مع برانت والاطلاع على كل المعلومات التي تأتي إلى طاولة المستشار. ودرس وولف المشكلة لبعض القوت، وانتهى إلى خطة أظهرت ماهية الصبر الضروري لعمليات طويلة الأجل لجاسوس عامل في الظلام.

عرف وولف أن برانت، في أيامه السابقة على الحرب الثانية حينما كان عضواً في خلية سرية معادية للنازية، تلقى علاجًا طبيًا عند الطبيب الشيوعي، "ماكس غولوم"، الذي هرب في وقت لاحق من ألمانيا واستقر في غاية الأمر في ألمانيا الشرقية بعد

الحرب. وظل ماكس غولوم شيوعيًا ملتزمًا، وأصبح ابنه جونتر، كما عرف وولف، شيوعيًا مخلصًا أيضًا. وقام وولف بمفاتحة الرجلين، ونجح في تجنيدهما لما وصفها "عملية طويلة الأجل" في ألمانيا الغربية.

كانت الخطوة الأولى تتمثل في أن يصبح جونتر جولوم لاجئًا، وذلك من خلال الهروب عبر الحدود والانتهاء إلى مخيم اللاجئين. والخطوة التالية: في العام ١٩٥٦، كتب ماكس جولوم رسالة إلى صديقه القديم، طالبًا فيها منح جولوم الصغير وظيفة. وأعرب الأب عن أسفه تجاه قرار الابن بالهروب إلى الناحية الغربية، ولكنه تفهم واحترم القرار. هل يستطيع برانت مساعدة ابن صديق قديم؟

قام برانت بترتيب أمر خروج جولوم الصغير من مخيم اللاجئين وتعيينه كمساعد إداري في منظمة برانت السياسية. ولم تكن هذه هي الوظيفة المنشودة، ولكن وفق حسابات وولف، فإن المسؤولين في المنظمة كانوا يعرفون أن جولوم حصل على هذه الوظيفة من خلال ارتباطات مع برانت نفسه، وهي ظروف عملت على تعزيز مستقبل جولوم الوظيفي.

نجح جولوم في دفع الأشياء قدمًا من خلال البرهنة على مواهب تنظيمية وإدارية. وفي العام ١٩٦٩، جرى تعيينه سكرتيرًا خاصًا للمستشار برانت، وانتهى الأمر عند هذا الحد...

أخيرًا، بدأت العملية التي استغرقت ١٣ عامًا تحقق الغرض منها، ذلك أن جولوم أصبح في منصب يمكنه الاطلاع على كل شيء يأتي إلى طاولة برانت، بما فيها تلك المعلومة المثيرة وهي أن المستشار برانت كان على جدول رواتب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA منذ ١٩٤٧.

إنتهت عملية جولوم في العام ١٩٧٣، وذلك حينما تمكن البريطانيون من اكتشاف أمرها عن طريق حل رموز الشيفرة (جولوم حكم عليه بالسجن لمدة ١٣ عامًا)، ولكن الأضرار كانت بالغة: كل أسرار ألمانيا الغربية الدبلوماسية والعسكرية تدفقت إلى جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي HVA لمدة أربع سنوات متواصلة. وأصبح وولف، الرجل الواقف وراء العملية، في ذلك الوقت، شيئًا من الأسطورة في عالم التجسس، بسجل لا تنافسه فيه أيّ وكالة استخبارات أخرى، وأضعف الجهاز الرئيسي المنافس له، جهاز الاستخبارات الألماني الغربي BND، وتغلغل إلى صفوف أكثر من ٣،٠٠٠ جاسوس نافع في ألمانيا الغربية، مع عدة آلاف من الجواسيس النائمين، وأحبط عددًا من محاولات التغلغل إلى جهازه الخاص به، واختتم هذا كله بالتخطيط لوضع جاسوس عامل في الظلام داخل مكتب المستشار الألماني الغربي.

كانت دوائر مكافحة التجسس الغربية تعرف وولف، ولكن بالنظر إلى أنه لم يخدم كعميل خارج بلاده، فربما كان من الصعب معالجة موضوعه...

لم يحدث قبل العام ١٩٧٩، حينما جاء مساعده، وخليفته المفترض، ويرنر ستيللر إلى ألمانيا الغربية، أن عرف أي من خصوم وولف حقيقة هذا الرجل. وكان ارتداد ستيللر سببًا رئيسيًا في كبح عمليات وولف، وتقاعد وولف في العام ١٩٨٧، ولكنه لم يكن مستعدًا للكرسي الهزاز في ذلك الوقت.

وبسبب علاقته الوثيقة مع جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، أصبح وولف منهمكًا في عملية إحلال رجل "معتدل" محل زعيم ألمانيا الشرقية المريض، "إريك هونيكر"، بحيث يكون قادرًا، كما افترضت موسكو، على إنقاذ النظام المترنح في ألمانيا الشرقية. ومع ذلك، فربما كانت هذه العملية واحدة من عمليات وولف الفاشلة.

في العام ١٩٩٠، في أعقاب انهيار ألمانيا الشرقية، هرب وولف إلى موسكو تحت حماية جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. ولكن هذه الحماية حجبت عنه حين انهيار الاتحاد السوفياتي نفسه، وعاد وولف إلى ألمانيا معلنًا أنه على الرغم من أحداث العامين الماضيين المرهقة للأعصاب، فهو ما زال شيوعيًا غير تائب. ولكن الحكومة الجديدة في ألمانيا لديها ذاكرة قوية، وألقت القبض عليه بتهمة التجسس. وبعد إطلاق سراحه بكفالة قيمتها ١٥٠،٠٠٠ دولار، قدم سلسلة من الاقتراحات تحدّى فيها حق الحكومة في محاكمته، مفجرًا بذلك جدلاً قانونيًا معقدًا ما زال قائمًا حتى اليوم. وفي ١٩٩٣، ذهب إلى المحاكمة أخيرًا.

أيًا كانت مواهبه في التجسس، فإن وولف يبدو أنه لا يميل إلى استخدام التعبيرات الساخرة. وفي قصة حياته، المكتوبة في العام ١٩٩٢، أعرب عن تذمره على نحو مرير تجاه ظلم النظام القضائي في ألمانيا الذي قرر محاكمته بتهمة التجسس، متجاهلاً بذلك على ما يبدو أنه يخضع لعملية قانونية لم يتمتع بها أحد غيره من الألمان الشرقيين[1]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٢٥٣ ـ ٢٦١.

هيمنة وكالة المخابرات المركزيّة على استخبارات أوروبّا الغربيّة

طمحت الولايات المتّحدة الأميركيّة دومًا إلى التأثير على كافّة حلفائها في العالم، لذلك كثيرًا ما اتّخذت إجراءات هدفت من خلالها إلى العمل على توجيه سياسات تلك الدول لتتلاءم مع مصالحها وإن تضارب ذلك مع المصلحة القوميّة للبلد نفسه. وحسب رأي "توم ماكوي" وهو ضابط في وكالة المخابرات المركزيّة خدم في روما خلال الخمسينات: "لقد أعدّ جيمس أنغلتون، مدير برنامج المخابرات المضادّة الخاصّة بوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA عدّته في هذا السبيل، وبالرغم من أنّه ترك روما منذ منتصف الخمسينات، إلاّ أنّه استمرّ في مراقبة العمليّات الجارية في إيطاليا، وله عدّة رجال فيها من بينهم أحد المصادر في الفاتيكان نفسه، وكانوا جميعًا لا يتّصلون إلاّ به، كما أنّه كان على اتّصال مع ثلاثة عملاء متسرّبين ضمن الحكومة الإيطاليّة دأبوا على إمداده بالمعلومات منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية. وكان أحدهم موظّفًا في وزارة الداخليّة، وكان الإسم الرمزيّ للثالث هو "ديتكتور Detector" وهو رئيس للدرك لكنّه كان، خلال الحرب العالميّة الثانية، رئيسًا لقسم التجسّس المضادّ إذ إنّه على علم بمكان تواجد كافّة مصادر المعلومات المدفونة.

على مرّ السنين قام هؤلاء المسؤولون الكبار الثلاثة بتقديم معلومات قيّمة حول المشاكل الداخليّة في الدولة الإيطاليّة وكانوا يعطون وكالة المخابرات المركزيّة نصائح في ما يتعلّق بتوظيف رؤوس الأموال. وكان أنغلتون ومساعده "روكّا" هما اللذان جنّداهم وكانا الوحيدَين في واشنطن القادرَين على التحدّث بثقة عمّا يجري في إيطاليا".

لقد كان أنغلتون واثقًا بأنّ بلاد طفولته على حافة الانغماس في الشيوعيّة، الأمر الذي أثار، إلى حدّ بعيد، رئيس المركز الإيطاليّ في الخمسينات "ويليام كولبي" الذي راح يلحّ على عدم استبعاد اليسار، وقال، حسب حديث مساعد كولبي في روما توم ماكوي: "إنّنا ندعم المجموعات اليساريّة وننظّم معها كثيرًا من العمليّات، بينما كان أنغلتون متحيّزًا لأصدقائه في الشرطة الإيطاليّة إذ كان يعتبر تلك المجموعات بمثابة عناصر مشبوهة جدًّا". وبما أنّ إدارة كينيدي تبنّت انفتاحًا نسبيًا على العناصر الليبراليّة فقد طلبت دخول الحزب الاشتراكيّ في التحالف الحكوميّ. لكنّ أنغلتون كان يرى أنّ الحزب الاشتراكيّ الإيطاليّ هو أحد إفرازات الحزب الشيوعيّ في إيطاليا، وكانت تلك السياسة بالنسبة له بمثابة الاستسلام. فضلاً عن أنّه كان يشكّ بمؤسّسها الرئيسيّ في أميركا "أرثر شليسنغر" سكرتير البيت الأبيض الذي كان يعتبره أنغلتون عميلاً للسوفيات. وقد نقل عملاء أنغلتون إليه مرّة جملة قالها دبلوماسيّ سوفياتيّ كان يعمل في كاراكاس مفادها أنّه علم، عن طريق شخص في البيت الأبيض، الموعد المحدّد للإنزال في خليج الخنازير، فارتاب في شليسنغر الذي كان أحد قدماء العاملين في مكتب الدراسات الاستراتيجيّة OSS، وأحد الذين عارضوا تلك العمليّة.

في إيطاليا كان أنغلتون يرى في كلّ مكان أصابع المخابرات السوفياتيّة، وكان المنشقّ الروسي جولستين قد حدّثه عن تسرّب في مكاتب حلف شمال الأطلسيّ بتعابير تتّفق تمامًا مع أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجيّة الإيطاليّة، فأضحى موقنًا بأنّ المركز الإيطاليّ لا يقوم بعمله كما يجب إذ إنّه كان عاجزًا عن اقتفاء أثر العملاء الشيوعيّين العاملين في المستويات الدنيا من الحزب الاشتراكيّ الإيطاليّ، كما أنّه لم يستطع الكشف عن "خلد" ذي مرتبة رفيعة في الإدارة الإيطاليّة. ولا بدّ من القول بأنّ

المركز الإيطاليّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة كان يلجأ إلى الاستخبارات الإيطاليّة في ما يختصّ بالعملاء السوفيات. وربّما أنّه لا يمكن أن ينتظر شيئًا من هؤلاء الموظّفين إذ كانوا في حالة رعب دائم من معارضة السوفيات. وكان ذلك خطأ فادحًا لأنّ الأميركيّين كانوا يعتمدون بشكل تامّ على تعاون هؤلاء، فقال رئيس قسم شؤون أوروبّا الغربيّة في وكالة المخابرات المركزيّة: "في النتيجة أضحت وكالة المخابرات المركزيّة لا تعلم عن الشؤون الإيطاليّة إلاّ ما تريد السلطات المحليّة أن تعلمها به".

لتلافي ذلك الموقف كان لا بدّ من قائد صعب المراس ليقوم بتشكيل فرق للمراقبة وليضع خطوطًا للتنصّت ووسائل تقنية حديثة لهذا الغرض. وبلغة أخرى رئيس يستطيع إجبار المركز الإيطاليّ على القيام بعمليّات التجسّس لحسابه الخاصّ. كان ذلك القائد هو "هارفي" الذي لم يتحمّس أحد لأمر تعيينه لا سيّما أولئك القدامى الذين تمرّسوا في هذا النوع من الأعمال.

في الواقع كان القادم الجديد كالطائر الغريب. ففي إحدى الأمسيات، وبعد وصوله بقليل، قام أحد العاملين، الذي كان قد مضى على عمله في المركز عشرون عامًا، بالتحضير لعشاء مع الرئيس الجديد. وعند دخولهما المطعم أصرّ هارفي على الجلوس في زاوية منعزلة مسندًا ظهره إلى الحائط ليستطيع مراقبة المدخل، وعندما جلس كشف عن سترته ليتمكّن من التقاط مسدّسه بأسرع وقت ممكن. فظنّ الضابط في البدء أنّ هارفي يبغي المزاح فسأله إن كان يزمع الاعتماد عليه عندما يحتاج لمساعدة في تغطيته فرمقه هارفي بنظرة أجفلته.

حاول هارفي أن يقلب المركز إلى قاعدة للعمليّات المستترة ضدّ السوفيات بالرغم من جهله للموقف الإيطاليّ، لكنّه لم يكن يفكّر إلاّ بالروس وبالمخابرات السوفياتيّة. وقد

أسرّ يومًا إلى أحد القدامى بالقول: "أنت تعرف الشيء الكثير عن الطليان لكنّي أعلم عن الروس نفس المقدار من المعلومات لذلك سنتوصّل حتمًا إلى الوفاق". لكنّ العكس هو الذي حصل. فقد كانت تلك فترة من الفوضى المطبقة إذ انقلب المركز رأسًا على عقب في سبيل تجنيد روسيّ واحد، ولم يكن هارفي يثق بالاستخبارات الإيطاليّة فشكّل فرق مراقبة خاصّة به لمطاردة عملاء السوفيات، واضطرّ ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة القدامى، الذين كانوا يمضون أمسياتهم في عشوات هادئة مع السياسيّين الإيطاليّين، إلى القيام بدوريّات على أرصفة روما ليال كاملة. في هذا قال أحدهم: لم يجرِ أيّ سعي جادّ بهذا المقدار لكنّني لا أعتقد بأنّ ذلك سيؤدّي إلى تجنيد روسيّ واحد".

ساءت العلاقات مع الاستخبارات الإيطاليّة بشكل واضح أيّام هارفي، واستمرّ الأمر يزداد سوءًا. فلم تكن الحصافة وحدها تنقص هارفي بل لم يكن يقدّر أنّه يتعامل مع مسؤولين عن بلاد مستقلّة. وعندما توفّي رئيس السيفار، أحد فروع الاستخبارات الإيطاليّة، لم يتردّد هارفي في ممارسة الضغوط ليعيّن مكانه مدير قسم التجسّس المضادّ في الوقت الذي جرت العادة على أن تُسند تلك الوظيفة إلى العسكريّين. لكنّه نجح في محاولته، وسلّم المدير الجديد منصبه وغادر البلاد بعد أن أعلم وكالة المخابرات المركزيّة بأنّه وضع حدًّا لكافّة عمليّات المراقبة الموجّهة ضدّ سفارات أوروبّا الشرقيّة.

لم تكن صلة هارفي بمديره "ماكون"جيّدة، لذلك لم يستحسن هذا الأخير تعيينه في منصبه لا سيّما وأنّ ماكون كان غائبًا عندما تمّ التعيين فلم يسرّه الأمر أبدًا. ويجب القول بأنّ هذا الأخير لم يكن سعيدًا جدًّا من العمل الذي أنجزه هارفي عندما كان على رأس الحملة المعادية لكاسترو...

كان ماكون متزمّتًا لذلك كان شديد الاشمئزاز من هارفي المدمن على شرب الكحول. ولأنّ ماكون كان كاثوليكيًا كان يأتي إلى روما كلّ سنة ويجتمع إلى الحبر الأعظم بعدما يكون المركز الإيطاليّ قد رتّب أمر هذا اللقاء. وعندما أعلن ماكون عن وصوله راح هارفي يشرب حتّى الثمالة لأنّ مدير وكالة المخابرات المركزيّة كان ضيفًا ثقيلاً يطلب حجز أفضل الغرف في أفخم الفنادق، وتنظيم ساعات محدّدة في ملعب الغولف، ولم يكن ليتنازل عنها مقابل أيّ شيء في العالم، كما كان لا بدّ من إيجاد حقائب يد من الجلد يدويّة الصنع تُرسل لزوجته إلى منزلها في أميركا. فكانت حفلات العشاء مع المدير تعذيبًا بالنسبة لهارفي، الذي كان يمضي وقته، خلال وجود ماكون في إيطاليا، بالشرب حتّى الثمالة. ولم يخفِ ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة تبرّؤهم من العمل معه إلى درجة أنّ معظمهم طلب الانتقال إلى أماكن أخرى بدلاً من العمل مع رئيس مثله.

إنتشرت قصص فظيعة عن أعمال هارفي في إيطاليا من مثل كشك الجرائد الذي قلبه بسيّارته، والطلقة الناريّة التي انطلقت من مكتبه فظنّت السكرتيرات أنّه انتحر فدخلن المكتب ليجدنه جالسًا بهدوء فرمقهنّ بنظرة استفهام عن سبب دخولهنّ إليه وكأنّ شيئًا لم يحدث...

لم تلبث هذه الأخبار أن وصلت إلى واشنطن، فاعتبر رئيسه المباشر أنّ تلك الأخبار محض شائعات بسبب عدم تأقلم العاملين معه، الذين يحاولون، من خلالها، الحطّ من قيمته. لكن ظاهريًا، بدا أنّ هنالك عناصر من المخابرات السوفياتيّة تقف وراء تلك الشائعات، إذ قام مجهولون بتفريغ إطارات سيّارته من الهواء، وكثيرًا ما أوقظ في الليل من نومه على رنين هواتف مغفلة، حتّى أنّه في صباح أحد الأيّام وجد هارفي على باب شقّته اثنين من الجرذين مشنوقَين بعد أن سحق رأسيهما.

عندما أصيب هارفي بالجلطة، وصل إلى روما من ألمانيا طبيبان للوكالة لمعالجته. وبعد أن مرّت الأزمة نصحاه بالتوقّف عن الشرب والتدخين، فامتثل لأوامرهما واستكان إلى العمل، فنجح في عدّة عمليّات كان لها صداها في وكالة المخابرات المركزيّة، فاستعاد ثقته بنفسه، لكنّه ما لبث أن عاد إلى الشراب.

في يوم أرسل هارفي برقيّة إلى واشنطن يطلب فيها إعادة عدد من ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة إلى بلادهم لأنّهم شكّلوا عصابة وباتوا يعارضون التغييرات التي يحاول إحداثها. وكان هارفي قد وصل في تلك الفترة إلى أقصى مراحل الهيجان ضدّ "مارك وايت" ضابط الاتّصال مع الاستخبارات الإيطاليّة الذي يتمتّع بشخصيّة مليئة بالحيويّة والدماثة ويتحدّث الإيطاليّة بشكل كامل ويملك ثروة طائلة. بالاختصار كان يتمتّع بما يجعل هارفي يشعر بالدونيّة والعداء إزاءه. لذلك جاء تقريره الذي أرسله إلى واشنطن سلبيًا بدرجات قصوى.

كان "ديزموند فيتز جيرالد" رئيس قسم العمليّات آنذاك، فقرّر السفر إلى روما ليتحقّق ممّا يجري، ورافقه ضابط كان قد تلقّى إنذارًا من "وايت" يقول فيه: "إمّا هارفي وإمّا أنا". وكان وايت يرغب في البقاء في روما حتّى الصيف التالي ليتمكّن أولاده من إتمام السنة الدراسيّة. لكنّ الأوامر التي وصلته كانت تقضي بنقله إلى مكان آخر وكان عليه الامتثال للأمر وتنفيذه فورًا. وقال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة القدامى عندما شاهد وايت يغادر مع عائلته على متن الباخرة: "إنّ أيّام هارفي أصبحت معدودة وإنّني لأراهن بأنّ قيصر سيسقط قبل أعياد آذار ـ مارس". أمّا "فيتز جيرالد" الذي كان يدعم هارفي، فانتبه إلى أنّ هذا الأخير أضحى عاجزًا عن رئاسة المركز بسبب مرضه الذي أثّر على نوعيّة أعماله. فاتصل بهيلمز هاتفيًا وأعطاه تقريرًا مفصّلاً عن القضيّة، فأمر هذا الأخير بتغيير هارفي وكلّف معاون "فيتز جيرالد" بإبلاغه الخبر

وقال هذا معقّبًا على ذلك: "لن أنسى أبدًا تلك الليلة، إذ أمضيت سبع ساعات وأنا أشرح له ذلك وكان جالسًا بشكل مواجه لي واضعًا مسدّسه المحشوّ على ركبتَيه، وأخذ يشرب الكونياك وينظّف أظافره بخنجر". ولم يطلق أيّ تهديد لكنّ سبطانة مسدّسه بقيت مصوّبة تجاه محدّثه حتّى نهاية اللقاء.

في اليوم التالي، وكان يوم ١٥ آذار ـ مارس، أعلن هارفي، ببرقيّة إلى كافّة أقسام وكالة المخابرات المركزيّة في إيطاليا، بأنّه عائد إلى واشنطن، ولم يظهر شيئًا عن فقدانه حظوته، وأقام حفلة وداعيّة كبرى في فندق هيلتون بلغ البذخ فيها مقدارًا كبيرًا سالت فيها كؤوس الشامبانيا حتّى أكبر مدى.

في النتيجة، إنّ التحاق هارفي بروما قد ألحق أضرارًا بالغة بنشاط وكالة المخابرات المركزيّة فيها إذ إنّه كان دون مستوى المنصب الذي تولاّه، ولم يكن يقدّره حقّ التقدير، فتأثّرت السياسة الأميركيّة في إيطاليا بسبب وجوده فيها. لكنّ نشاط الاستخبارات الأميركيّة عاد إلى سابق عهده بعد مغادرة هارفي روما بفترة وجيزة.

لا شكّ في أنّ ألمانيا الغربيّة بموقعها الجغرافيّ وتقسيمها كانت قد أصبحت مسرح المعارك المفضّل لكافّة عمليّات التجسّس. ولا ريب في أنّ الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة كانت أكثر الاستخبارات الحليفة فعاليّة ضدّ الكتلة السوفياتيّة. ولا شكّ في أنّها كانت تدين بقدرتها تلك إلى الجنرال الشهير "غيهلن" المسمّى بالجنرال الرماديّ الذي كان مفتاح الاستخبارات الألمانيّة الخاصّة. بدأت قصّته قبل نهاية الحرب العالميّة الثانية بقليل في ٤ نيسان ـ أبريل ١٩٤٥، أي قبل شهر وأربعة أيّام من استسلام ألمانيا النازيّة عندما اجتمع ثلاثة ضبّاط في قاعة صغيرة من فندق "كور" في مدينة "بادالستر". كان من بينهم رجل قصير القامة أصلع ذو شفتَين رقيقتَين اسمه "جيرهاد غيهلن"...

كان غيهلن من مواليد ٣ نيسان ـ أبريل ١٩٠٢ في مدينـة إرفـورت، حصـل علـى رتبته من خلال المعارك، واستلم منصب مدير مصلحة الاستعلامات العسكريّة في أوروبّا الشرقيّة .F.H.O، وكان على علاقة جيّدة مع "والتر شلنبرغ" ومدراء الشرطة المركزيّة للرايخ الثالث، سهّل للجيش الألمانيّ الحصول على نصر تلو الآخر ضدّ الثوّار الشيوعيّين أثناء الاحتلال النازيّ لبلاد السوفيات.

وإلى جانب غيهلن كان مساعداه، الأوّل هو "جيرهارد فيس" الضابط الأعلى للتجسّس المضادّ في الجيش النازيّ الذي يشغل منصب نائب المدير، والثاني هو المقدّم "هيرمان بون" مدير مصلحة الاستكشاف والترصّد والتسرّب على الجبهة الشرقيّة.

في ذلك الاجتماع قال غيهلن: "إنّ الرايخ ينازع ولن يدوم إلاّ أسابيع أو ربّما أيّامًا. وحسب تقديري، إنّ الحلفاء سينشقّون عند نهاية المعركة. فإلى جانب الأميركيّين سنضمن أمننا الذي لا شكّ في أنّه قليل، لكنّنا نستطيع أن نواصل الكفاح ضدّ الشيوعيّة وحماية وطننا".

بعد عشر سنوات من ذلك تحقّق مشروع هذا الضابط إذ وضعت ألمانيا الشرقيّة فدية لرأسه بلغت مليون مارك. واستمرّ محافظًا على مساعدَيه كلَيهما.

منذ شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٤ قام غيهلن بتصوير كافّة المستندات والمعلومات واللوائح الحاملة للأسماء في الأرشيف السريّ، وجمعها في مقرّ قيادته القريب من قرية "زوسن" في جنوب برلين. أمّا الأفلام الأصليّة فاحتفظ بها في خزانة بقي مفتاحها معه.

في ٢٠ نيسان ـ أبريل ١٩٤٥ أوقفه الأميركيّون في "ميسباخ" فطلب مباشرة التحدّث مع مسؤول سياسيّ من الجيش الأميركيّ.

عندما بدأ الروس البحث عنه في تمّوز ـ يوليو، عرف الحلفاء قيمته، فنُقل إلى معسكر "أورسل"، وكلّف الجنرال "إيدوين سبرت" باستنطاقه، فكان هذا رجلاً ذكيًّا حصيفًا فاتّصل مباشرة مع واشنطن قائلاً: "إنّ لدينا رجل على أعظم قدر من الأهميّة، وأنا أطلب إذنًا استثنائيًّا لنقله". فحصل على الإذن في آخر شهر آب ـ أغسطس، وسافر غيهلن إلى الولايات المتّحدة التي بقي فيها سنة كاملة عاملاً مع مكتب الدراسات الاستراتيجيّة OSS ثمّ مع وكالة المخابرات المركزيّة إلى أن وضع في النهاية شروطًا معيّنة للتعامل معها. وممّا قال لمحدّثيه: "إن شئتم أم أبيتم فإنّكم مضطرّون إلى إنشاء منظّمة للتجسّس المضادّ في ألمانيا وأنا مستعدّ لمساعدتكم وسأعطيكم كافّة المعلومات التي احتفظت بها في مكان أمين. لكنّي أريد الحصول على الضمانات اللازمة بأنّ المصلحة التي ستوكل إليها هذه المهمّة ستعمل تحت إمرتي وسيكون باستطاعتي أن أوظّف فيها من أشاء، وأنّها لن تُستغلّ بأي شكل ضدّ مصلحة وطني".

رضخ الأميركيّون لطلبه وقام مكتب الدراسات الاستراتيجيّة OSS ومن بعده وكالة المخابرات المركزيّة CIA بإنشاء أوّل مركز للمراقبة في فرنكفورت على نهر التاونس، وعاد غيهلن إلى فراكفورت بعد ذلك بأربعة أشهر وباشر العمل على وضع شبكته.

ظلّ غيهلن يقوم بأعمال كثيرة ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ والمعسكر الاشتراكيّ، وأمدّ أسياده الأميركيّين بنتائج أعماله التي كان من أهمّها "إكسيوس هيرمس" إذ استغلّ الضبّاط والجنود الألمان العائدين من معسكرات الاعتقال في الاتّحاد السوفياتيّ للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن نقاط الضعف في البلدان الاشتراكيّة. وتُعتبر شبكة التجسّس التي أنشأها غيهلن في الاتّحاد السوفياتيّ أكبر شبكة في العالم لصالح الغرب تعتمد عليها وكالة المخابرات المركزيّة اعتمادًا كليًّا.

في عام ١٩٥٦ ناقش البوند ستاغ الألمانيّ الذي كان قد أحدث في ذلك العام، في جلسة سريّة هذا الموضوع، وقضى بأنّ التعاون وارد في مجال الاستخبارات رغم ما أثارته الصحافة عن موضوع الاستقلاليّة في العمل وضرورة التوقّف عن التبعيّة، وأنّ ألمانيا بلد حرّ وغير مضطرّ لأن يلعب دور الوسيط لصالح حلفاء لا يعتمد عليهم كثيرًا. ذلك حسب ما نشرته مجلّة "دير شبيغل" في عدد ٨ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٦.

إستمرّ عناصر وضبّاط الاستخبارات الألمانيّة يتلقّون التدريب في الولايات المتّحدة الأميركيّة في ثكنة "فورت براغ" في كارولينا الشماليّة. ولكلّ عنصر اسم رمزيّ. وهؤلاء العناصر لا يجتمعون إلاّ في الأماكن العامّة ولا يعترفون إلاّ برتبتهم الوظيفيّة ويضعون تقاريرهم في علب الرسائل الميتة. أمّا فروع الاستخبارات الألمانيّة فكثيرة تحمل أسماء لشركات تجاريّة لها فروع ثانويّة وأخرى ثالثيّة وأخيرًا المفوضيّات التي تشمل كلّ واحدة منا أربعة أقسام هي: الإدارة والاستعلامات والعمليّات والتجسّس المدنيّ، ويُسمّى بقسم الأمن داخل الوطن. ومنذ عام ١٩٥٦ اتّخذت الاستخبارات الألمانيّة اسم "الوكالة الفدراليّة للاستخبارات" التي استمرّ غيهلن في إدارتها حتّى عام ١٩٦٨، ومن ثمّ أتى مساعده الجنرال فيسيل. وعندما طلب وزير العدل الألمانيّ في حكومة "ويلي براندت" من الجنرال فيسيل أن يعطيه أسماء عملاء "الوكالة الفدراليّة للاستخبارات" في دول أوروبّا الشرقيّة قدّم هذا الأخير استقالته وأعطى المعلومات لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة. وصرّح فيسيل في ما بعد: "طلبوا منّي ذلك حتّى يدعموا سياسة المهادنة مع الشرق الذي نادى بها الزعيم ويلي براندت".

وأخيرًا لا بدّ من ذكر أنّ الجنرال عاش في قصر منيف أهدته إيّاه وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، بلغت تكاليفه ربع مليون دولار

عام ١٩٥٦، فـي منطقـة بافاريـا علـى ضفـاف نهـر "ستارن برغـر" كمكافـأة لـه علـى خدماته لها.

إنّ التعاون قائم بين كافّة الاستخبارات الغربيّة وتهيمن وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة على كافّة أقسام الاستخبارات. ولربّما كانت الاستخبارات الفرنسيّة أقلّها رضوخاً لكنّها تبقى تابعة، بشكل أو بآخر، إلى الاستخبارات الأميركيّة، ولربّما كان هذا هو أحد الأسباب التي دعت الجنرال ديغول إلى الانسحاب من القسم العسكريّ لحلف شمال الأطلسيّ[1].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ٣٤٦ ـ ٣٥٣.

المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ــ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

جريدة "الديار" اللبنانيّة.

الجزائري سعيد، المخابرات تحرّك العالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩)

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الخوري ميخائيل، فوشيه أبو المخابرات الحديثة، مجلّة "الجيل"، المجلّد السابع، العدد الأوّل، شهر كانون الثاني - يناير ١٩٨٦.

الخير هاني، أشهر الاغتيالات السياسيّة في العالم، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٨٥)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

عبده نديم، أمن الكومبيوتر: الفيروسات والقرصنة والمعلوماتيّة وانعكاساتها على الأمن القومي، دار الفكر (بيروت،١٩٩١)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ.(مكتبة مدبولي، (القاهرة،١٩٩٩)

لجنة من الباحثين، وكالة المخابرات الأميريكيّة، وثائق سريّة، مترجم عن الإنكليزيّة بإشراف طلعت غنيم حسن، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٣)

الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط٢، دار الجيل (بيروت،٢٠٠١)

August Frantisek et Rees David, *Red Star Over Prague,* Sherwood Press (London,1984)

Biloff Nora, *Tito's Flawed Legacy,* Victor Gollancz (London,1985)

Clissold Stephen, *Djilas: The Progress of a Revolutionery.* Maurice Temple Smith (Hounslow,1983)

Contouvidis John et Reynolds Jeanne,*1939-1947,* University Pren (Leicester, 1986)

Dedjier Vladimir, *Tito Speaks* (London, 1953)

Djilas Milovan, *Rise and Fall* Macmillan, (London,1985)

Djilas Milovan, *Conversations With Stalin,* Rupert Hart-Davis (London, 1962)

Djirkvelov Ilya, *Secret Servant,* Collins (London,1987)

Feis Herbert, *Between War and Peace,* Princeton University Press (Princeton, 1910)

Harry S Truman Memoirs, *Years of Decision,* Doubleday (New York, 1955)

Hodos George . *Show Trials: Stalinist Purges in Easterm Europe 1948-1954,* Praeger (New York,1987)

Ioneseu Ghita, *Communism in Rumania 1944-1962,* Oxford University Press (London,1964)

Kaplan Karedl, *The Short March: The Communist Takeover in Czecholovakia* 1945-1948, C. Hurst and Co (London,1987)

King Robert R., *History of the Romania Communist Party,* Hoover Institution Press (Stanford,1980)

Lane Arthur Bliss, *I Saw Freedom Betrayed,* Regency Publi. (London,1949)

Leonhard Wolfang, *Child of the Révolution,* Collind (Londres,1957)

Mastny Vojtech, *Russia's Road to the Cold War,* Columbia University Press (New York,1979)

Mikolajezyk Stanislaw, *The Pattern of Soviet Domination,* Sampson Low, Marston et Co, (London, 1949)

Niarad Nickolas, *My Ringside Seat in Moscow,* Thomas Y. Crowell Co. (New York,1985)

Oren Nissan, *Bulgarian Communism: The Road to Power 1934-1944,* Columbia University Press (New York,1971)

Owen Richard, *Crisis in the Kremlin,* Victor Gollancz (London, 1986)

Rupnik Jacques, *The Other Europe,* Weidenfeld et Nicolson (London,1988)

Szasz Béla, *Volunteers for the Gallowas,*Chatto & Windus (Londres,1971)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإستخبارات الفرنسيَّة	٥
جُوزيف فُوشيه: أبو الاستخبَارات الفرنسيَّة	٥
المديريَّة العامَّة للأمن الخَارجيّ DGSE	١٤
نشوء المخابرات الفرنسيَّة الحديثة وتطوّرها	١٨
المخَابَرات الفَرنسيَّة في عَهد دومَارَانش	٤٠
هيربيرت ياردلي والشيفرة الألمانيّة المستعملة في فرنسا	٤٤
فَضيحَة جان دَايد التي هزَّت فَرنسَا	٥١
دَورُ المُخَابَرات في اغتيَال المهدي بِن بَركة	٦٤
التغلغُل المخَابَراتي السوفياتي في فرنسا	٧٢
الإستخبَارات الألمانيَّة	٨٠
هنريش هملر	٨٠
الغستابو	٨٣
رينهارد هيدريش: سرٌ مُرعب	٩١

الموضوع	الصفحة
هينريش موللر: نازي في موسكو؟	١٠٠
عندمَا اتَّحدَت الألمَانيتَان	١١١
ألمانيا الغربيّة	١١٢
منسّق أجهزَة الاستخبَارات الألمانيَّة إرنست أورلاو	١١٢
التغلغُل الاستخبَارَاتي السُّوفيَاتي في جُمهُوريَّة ألمَانيا الفيدراليَّة	١١٤
نظام البابويّة في الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة	١٢٠
جيمس أنغلتون ومهمّته الفاتيكانيَّة	١٢٢
في أوروبّا الشرقيّة	١٢٩
ألفرِد ريدِل: دمّره الطيش والهوى	١٢٩
المخَابَرات في أوروبَّا الشَّرقيَّة إثرَ الحَرب العَالميَّة الثَّانيَة	١٣٦
في بُولونيَا	١٣٨
في ألمانيا الشرقيّة	١٤٨
في رومانيا	١٥١
في بلغاريا	١٥٤
في هنغاريا	١٥٥
في تشيكوسلوفاكيا	١٥٩

الموضوع	الصفحة
في يوغوسلافيا	١٦٣
في ألبانيا	١٦٩
الغَزو السُّوفيَاتيّ لهنغَاريَا	١٧٢
جابور بيتر: أحدب بودابست	١٨١
ربيع براغ	١٩١
الإتّحاد السوفيَاتي وفنلَندا	٢٠٥
جهاز "السيكُورتيَات" الرومَاني	٢٠٨
جهاز "شتازي" الألماني الشّرقي	٢١٠
كَشفُ أعمَال شتَازي غير المشروعَة	٢١١
ماركوس وولف: الجاسوس المعلّم	٢٢٠
هيمنة وكالة المخابرات المركزيّة على استخبارات أوروبّا الغربيّة	٢٣٠
لائحة المراجع	٢٤١


Bibliotheca Alexandrina
0586430